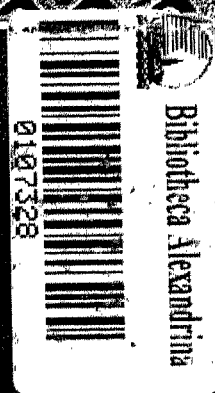


مكتبة خزانة وقطع الألف  
لابن مسكويه

مكتبة وشيخ غريب  
ابن الخطيب

مكتبة الثقافة الدينية









هَذَا خَلْقٌ وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ

لَا بِنِ مَسْكُوتٍ

حَقَّقَتْهُ وَشَرَحَ غَرِيبَهُ  
ابْنُ الْخَطِيبِ

أَنْفُسُ مَا قَالَ فَلَاسِفَةُ الْعَالَمِ فِي الْأَخْلَاقِ

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنقل محفوظة



تأليف: محمد باقر  
محرر: محمد باقر  
تأليف: محمد باقر



# تعريفُ بالمؤلف

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، أبو علي : باحث ، مؤرخ .  
 أصله من الري ، وسكن أصفهان ، وتوفي بها عام ٤٢١ هجرية — ١٠٣٠ ميلادية .  
 اشتغل بالكيمياء ، والفلسفة ، والمنطق : مدة طويلة ، ثم أولع بالآداب ، والتاريخ  
 والإلشاء ؛ وكان نفوذ عظيم بالري .  
 اشتهر بالخازن : لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد . ثم كتب عضد الدولة :  
 ابن بويه .

ثم اختص بهاء الدولة البويهى ، وعظم شأنه عنده .  
 قال أبو حيان — فى جملة وصفه — لطيف الالفاظ ، سهل المأخذ ، مشهور المعاني ،  
 شديد التوقى ، ضعيف الترقى : يتناول جهده : ثم يقصر . وله مأخذ ، وغرائب من  
 الكذب . وهو حائل العقل : لشغفه بالكيمياء . اهـ .

بيد أننا لا نوافقه فيما نسب إليه من الوصفين الأخيرين .  
 ألف كتباً كثيرة ، نافعة . منها : تجارب الأمم ، وتعاقب الهمم : فى التاريخ :  
 انتهى به إلى السنة التى مات فيها عضد الدولة ( ٣٧٢ هجرية ) .

ومنها أيضاً : طهارة النفس ، وكتاب آداب العرب والفرس ، والفوز الأصغر  
 فى أصول الديانات ، والفوز الأكبر ، وفوز النجاة : فى الاخلاق . وكتاب السياسة ،  
 ومختار الأشعار ، ونديم الفريد ، ونزهة نامة علائى (فارسي) كتبه باسم علاء الدولة  
 الديلمى ، وجاويدان خرد (فارسي أيضاً) ، وترتيب السعادات : فى الاخلاق ، والادوية  
 المفردة ، والاشربة ، وغير ذلك : مما لم نستطع الوصول إليه .

— ٤ —

وجاء في إرشاد اللبيب : أنه كان مجوسياً وأسلم .

ولعله أراد بذلك : جده القفطى .

وهو لا يعيبه الإسلام بعد التمجس : إن لم يكن يشرفه : إذ اهتدى بعد ضلال ؛  
ونجا بنفسه من شرور الضلال !

وقال عنه : إنه من كبار فضلاء العجم ، وأجلاء فارس .

وقد جزم بعضهم أن مسكويه : جده لا أبوه .

وكل ما نأخذه عليه في هذا الكتاب : ضعف تعبيره : رغم ارتفاعه بالمعاني ؛  
التي بلغ فيها شأواً بعيداً : لم يدانه فيه كاتب ؟

المحقق



# مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين !  
وبعد فإن من أكرم الفضائل ، وأحسن الشئائل ، خلق يتحلى به الإنسان ، ليعمل به عن  
مراتب الحيوان !

فالإنسان : لحم ، وعصب ، ودم . والحيوان أيضاً : لحم ، وعصب ، ودم : يفرق  
بين الاثنين : الخلق ، والفهم . فإذا ما العدماء : انعدمت الفروق بينهما . وصارا مثلين ،  
متشابهين ، وبالجهل ، والحق ، متلازمين .

غير أن هذا : يتطق . وذاك : لا يتطق . وقد ينطق الإنسان بالفحش والهجر ! حيث  
لا يتطق الحيوان بفحش ولا هجر !

وحينئذ يكون الصامت : خير من الناطق ؛ والساكت خير من المتكلم !

هذا ، وقد نزع فلاسفة العالم إلى البحث عما يخرج الإنسان من هذه المرتبة الدنيئة  
الوضيعة : إلى المرتبة السامية الرفيعة : التي ترتفع به عن مصاف الحيوان ، إلى المرتبة :  
التي اختصه الله تعالى بها ، وخلقها من أجلها : وهي خلافته في الأرض : ليبسط فيها العدل  
الإلهي : الذي يرتضيه الله ؛ والخلق الفاضل : التي جبله المولى عليه ؛ ووجه أداته ،  
وهو العقل : الذي يعقله عن السيئات ، ويحثه على الحسنات !

ولما رأى الفلاسفة : أن عودة الإنسان إلى إنسانيته ، وبعده عن حيوانيته . لا يكون  
إلا بالتحلى بالأخلاق الفاضلة ، والخلال السكاملة : عمدوا إلى التأليف : التي تحمضه على ذلك ،  
وتبعده عن المبالك !

— ٦ —

وكان من خير ما كتبه الكتّابون ، وأنصح مادونه المدونون : كتاب تهذيب  
الآخلاق ، وتطهير الأعراق ، لابن مسكويه ، وقد اطلع على كل ما ألفه فلاسفة المتقدمين :  
كأرسطوطاليس ، وزينون ، وجالينوس ، وغيرهم من ألف كتباً نفيسة في الآخلاق :  
كانت عدة للكثيرين من فضلاء المتقدمين والمتأخرين !

وبذلك : جمع فيه مؤلفه : خلاصة من تقدمه من فلاسفة العالم . وزاد عليه ما ارتأه :  
من فيض علمه ومزيد فهمه .

مستدلاً — على ما يقول — بآيات من الكتاب الكريم ، وأحاديث للرسول  
الرؤف الرحيم !

فإذا به خلاصة الخلاصة ، وصفوة الصفوة !

ولم يترك شاردة : إلا أحصاها ، ولا واردة : إلا بينها ونماها .

فجاء — لحسن نية مؤلفه — كما أراد ، وكما يريد الله !

هذا . وقد كنت — وقت اشتغالي بصناعة المطابع — قد جمعت حروف هذا الكتاب  
جميعه بيدي . وقد كانت سني وقتذاك : لا تعدو الثانية عشرة .

وقد مر وجداني : ما رأيته فيه ، وعلق بذهني قوة إقناعه بما يقول ، وصدق دعوته  
إلى الآخلاق المنجية ، والبعد عن الخلال المردية !

هذا : وقد قرأت — فيما قرأت — أبواباً من هذا الكتاب برمتها في إحياء علوم  
الدين للإمام الغزالي ، فظننت — بادئ ذي بدء — أن ابن مسكويه : نقل عن الغزالي  
هذه الأبواب .

ولكني — بعد البحث — وجدت أن ابن مسكويه : توفي في عام ٤٢١ في حين  
أن الغزالي قد توفي في عام ٥٠٥ فيكون ابن مسكويه : أسبق من الغزالي ، وبذلك يكون  
الغزالي هو الناقل عن ابن مسكويه .

وكفاه ذلك فخراً ، ومجداً .

— ٧ —

وقد كانت نظارة المعارف قد قررت لمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم الآن) .  
وقد أصابت في ذلك . فقد تخرج منها أساطين الأدب ، ودهاقين البلاغة !

بيد أن الكتاب : لم يأخذ حظه من الانتشار ، وأهميته وزارة التعليم ، حتى غدا  
أثراً بعد عين .

ومن حقه على القارئ بالامر : أن يحفلوا به ، ويخدمون أمته بدراسته !  
وقد وقعت في يدي نسخة منه : فاحتفيت بها ، وشمرت عن ساعد الجلد في إخراجها :  
في الثوب اللائق بمنزلها .

فشرحت غريبه ، وصححت أخطاءه ؛ فجاء — كما ترى — حسن منظر ومخير ؛  
كما قال الشاعر :

تزين معانيه الفاظه وألفاظه زائحات المعاني  
والله أسأل أن ينفع به ؛ وينفعني بما قدمت فيه ؟

ابن الخطيب

رمضان المعظم سنة ١٣٩٨ هـ



## مقدمة

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرشد إلى الصراط المستقيم ، ومدح الخلق العظيم ، وأرسل نبيه محمداً  
متممًا لمكارم الاخلاق ، وأدبه فأحسن تأديبه على الإطلاق !

اللهم إنا نتوجه إليك ، ونسعى نحوك ، ونجاهد نفوسنا فى طاعتك ، ونركب الصراط  
المستقيم الذى نهجته لنا إلى مرضاتك !

فأعنا بقوتك ، واهدنا بعزتك ، واعصمنا بقدرتك ، وبلغنا الدرجة العليا برحمتك ،  
والسعادة القصوى بجودك ورافتك ، إنك على ما تشاء قدير !

وقال ، أحمد بن محمد بن مسكويه : غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً  
تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا : لا كلفة فيها ولا مشقة ،  
ويكون ذلك بصناعة ، وعلى ترتيب تعليمي .

والطريق فى ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا : ما هى ؟ وأى شئ هى ؟ ولأى شئ  
أوجدت فيها ؟

أعنى كمالها وغايتها ، وما قواها وملكانها ، التى إذا استعملناها على ما ينبغى : بلغنا بها  
هذه الرتبة العلية !

وما الأشياء المائعة لنا عنها ؟ وما الذى يزيكها فتفلس ؟ وما الذى يدسها فتخبى ؟  
فإن الله عز من قائل يقول ( ونفس وما سواها فالهملها لجورها وتقواها \* قد أفلح  
من زكاها \* وقد خاب من دساها ) .

ولما كان لكل صناعة مباد : عليها تبتنى ، وبها تحصل .

وكانت تلك المبادئ ؛ مأخوذة من صناعة أخرى ، وليس في شيء من هذه الصناعات : أن تبين مبادئ أنفسنا : كان لنا عذر واضح في ذكر مبادئ هذه الصناعة : على طريق الإجمال والإشارة بالقول الوجيز .

وإن لم يكن مما قصدنا له ، وإتباعها بعد ذلك بما توخيناها : من إصابة الخلق الشريف ، الذى يشرف شرفاً ذاتياً حقيقياً : لا على طريق العرض الذى لا ثبات له ، ولا حقيقة .

أعنى المكتسب بالمال ، والمكاثرة ، أو السلطان ، والمغالبة ، أو الاصطلاح والمواضعة .

فنقول وبالله التوفيق : قولاً نبين به أن فينا شيئاً : ليس بجسم ، ولا بجزء من جسم ، ولا عرض ، ولا يحتاج في وجوده إلى قوة جسمية . بل هو جوهر بسيط ، غير محسوس بشيء من الحواس .

ثم نبين ما مقصودنا منه ؟ الذى خلقنا له وزدنا إليه ، فنقول :

المقالة الأولى  
لنفس





# تعريف النفس

إنما وجدنا في الإنسان شيئاً ما : يضاد أفعال الأجسام ، وأجزاء الأجسام : بجده ، وخواصه ، وله أيضاً أفعال : تضاد أفعال الجسم وخواصه ، حتى لا يشاركه في حال من الأحوال .

وكذلك نجد بياض الأعراض ، وبيضاضها كلها ، غاية المباينة .

ثم وجدنا هذه المباينة المضادة للأجسام والأعراض : إنما هي من حيث كانت الأجسام أجساماً ، والأعراض أعراضاً : حكمتنا بأن هذا الشيء : ليس بجسم ، ولا جزء من جسم ، ولا عرضاً . وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ، ولا نقص .

(وبيان ذلك) : أن كل جسم له صورة ما : فإنه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى ، إلا بعد مفارقتها الصورة الأولى ، مفارقة تامة .

(مثال ذلك) : أن الجسم إذا قبل صورة ، وشكلاً من الأشكال : كالتشليث مثلاً . فليس يقبل شكلاً آخر ، من التربييع ، والتدوير ، وغيرهما : إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول .

وكذلك إذا قبل صورة نقش ، أو كتابة ، أو أي شيء كان من الصور : فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس : إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة .

فإن بقي فيه شيء من رسم الصورة الأولى : لم يقبل الصورة الثانية على التمام ؛ بل تختلط به الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام .

(مثال ذلك) إذا قبل السمع صورة نقش في الخاتم ، لم يقبل غيره من النقوش : إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول .

وكذلك الفضة : إذا قبلت صورة الخاتم ، وهذا حكم مستقيم ، مستمر في الأجسام . ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها : على اختلافها من المحسوسات ، والمعقولات : على التمام والكمال ، من غير مفارقة للأولى ، ولا معاقبة ، ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول : تاماً ، كاملاً . وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاماً كاملاً . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة ، أبداً دائماً : من غير أن تضعف ، أو تقصر : في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ، ويطرأ عليها من الصور ، بل تزداد بالصورة الأولى : قوة على ما يرد عليها من الصورة الأخرى .

وهذه الخاصة : مضادة لخواص الأجسام ، ولهذا العلة : يزداد الإنسان فهماً ، كلما ارتاض . وتخرج في العلوم والآداب . فليست النفس لإذن جسماً ؛ فأما إنها ليست بعرض : فقد تبين من قبل : أن العرض لا يحمل عرضاً ، لأن العرض في نفسه : محمول أبداً موجود في غيره . لا قوام له بذاته .

وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله ، هو قابل أبداً ، حامل أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض .

فإذن النفس ليست جسماً ، ولا جزءاً من جسم ، ولا عرضاً .

وأيضاً فإن الطول ، والعرض ، والعمق : الذي به صار الجسم جسماً : يحصل في النفس في قوتها الوهمية من غير أن تصير به طويلة ، عريضة ، عميقة .

ثم تزداد فيها هذه المعاني أبداً بلا نهاية : فلا تصير بها أطول ، ولا أعرض ، ولا أعمق . بل لا تصير بها جسماً البتة ؛ ولا إذا تصورت أيضاً : كصفات الجسم تسكيفت بها .

أعني إذا تصورت الألوان ، والطعوم ، والروائح : لم تتصور بها كما تتصور الأجسام ، ولا يمنع بعضها قبول بعض أضدادها : كما يمنع في الجسم . بل تقبلها كلها في حالة واحدة بالسواء .

وكذلك حالها في المعقولات ؛ فإنها تزداد بكل معقول تحصله قوة على قبول غيره دائماً أبداً بلا نهاية .

وهذه حالة مقابلة لأحوال الأجسام ، وخاصة في غاية البعد من خواصها .

وأيضاً فإن الجسم قواه لا تعرف العلوم ، إلا من الحواس ، ولا نميل إلا إليها . فهي تشوقها بالملايسة ، والمشاكلة : كالشهوات البدنية ، ومحبة الانتقام والغلبة .  
وبالجملة كل ما يحس ، ويوصل إليه الحس ، والجسم : يزداد بهذه الأشياء قوة ، ويستفيد منها تماماً ، وكالآلة : لأنها مادته ، وأسباب وجوده .

فهو يفرح بها ، ويشاقق إليها : من أجل أنها تتم وجوده ، وتزيد فيه وتمده .  
فأما هذا المعنى الآخر الذى سميناه نفساً : فإنه كلما تباعد من هذه المعانى البدنية : التى أحصيناها ، وتداخل إلى ذاته ، وتحلى من الحواس بأكثر ما يمكن : ازداد قوة ، وتمازجاً ، وكالآلة : وتظهر له الآراء الصحيحة ، والمعقولات البسيطة .

وهذا إذن أول دليل على أن طباعه ، وجوهره : من غير طباع الجسم والبدن ، وأنه أكرم جوهرأ ، وأفضل طباعاً من كل ما فى هذا العالم من الأمور الجسمانية .

وأيضاً فإن تشوقها إلى ما ليس من طباع البدن ، وحرصها على معرفة حقائق الأمور الإلهية ، وميلها إلى الأمور التى هى أفضل من الأمور الجسمية ، وإشارتها لها ، والنصرافها عن الأمور ، واللذات الجسمانية : يدلنا دلالة واضحة : أنها من جوهر أعلى ، وأكرم جداً من الأمور الجسمانية . لأنه لا يمكن فى شيء من الأشياء : أن يتشوق ما ليس من طباعه وطبيعته ، ولا أن ينصرف عما يكمل ذاته ، ويقوم جوهره .

فإذن كانت أفعال النفس إذا انصرفت إلى ذاتها ، فتركت الحواس مخالفة لأفعال البدن ، ومضادة لها ، فى محاورلاتها وإراداتها : فلا محالة أن جوهرها مفارق لجوهر البدن ، ومخالف له فى طبيعته .

وأيضاً فإن النفس ، وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس : فلها من نفسها مبادئ أخرى ، وأفعال لا تأخذها عن الحواس البتة ، وهى المبادئ : الشريفة العالية ، التى تنبنى عليها القياسات الصحيحة .

وذلك أنها إذا حكمت أنه ليس بين طرفي النقيض واسطة : فإنها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر : لأنه أولى ، ولو أخذته من شيء آخر لم يكن أولياً .

وأيضاً فإن الحواس : تدرك المحسوسات فقط . وأما النفس : فإنها تدرك أسباب الاتفاقات ، وأسباب الاختلافات التى من المحسوسات . وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها بشيء من الجسم ، ولا آثار الجسم .

## النفس العاقلة : وما تستبينه من خطأ الحواس

وكذلك إذا حكمت على الحس : أنه صدق ، أو كذب : فليست تأخذ هذا الحكم من الحس : لأنه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه . ونحن نجد النفس العاقلة فينا : تستدرك شيئاً كثيراً من خطأ الحواس ، في مبادئ أفعالها ، وترد عليها أحكامها .

من ذلك أن البصر يخطئ فيما يراه : من قرب ، ومن بعد .

أما خطؤه في البعيد : فيأدرك الشمس صغيرة ، مقدارها عرض قدم ، وهي مثل الأرض : مائة وثلاثين ومرة .

يشهد بذلك البرهان العقلي : فتقبل منه ، وترد على حس ما شهد به ؛ فلا يقبله .

وأما خطؤه في القريب : فبمنزلة ضوء الشمس إذا وقع علينا من ثقب مربعات صغار : كحلل الأهواز<sup>(١)</sup> وأشباهاها ، التي يستظل بها ؛ فإنه يدرك بها الضوء الواصل إلينا منها مستديراً ، فتزد النفس العاقلة عليه هذا الحكم ، وتغلطه في إدراكه ، وتعلم أنه ليس كما يراه .

ويخطئ البصر أيضاً في حركة القمر ، والسحاب ، والسفينة ، والشاطئ .

ويخطئ في الأساطين<sup>(٢)</sup> المسطرة ، والنخيل . وأشباهاها : حين يراها مختلفة في أوضاعها .

ويخطئ أيضاً في الأشياء التي تتحرك على الاستدارة : حتى يراها كالحلقة والطوق .

ويخطئ أيضاً في الأشياء الناقصة في الماء : حتى يرى أن بعضه أكبر من مقداره ، ويرى بعضها مكسوراً : وهو صحيح ، وبعضها معوجاً وهو مستقيم ، وبعضها منكسراً وهو منتصب .

(١) الحلال : جمع حلة (بكسر الحاء) وهي : مجتمع الناس .

والأهواز : تسع مدنت صغيرة : بين البصرة وفارس .

(٢) الأساطين جمع أسطوانة . وهي جسم صلب : ذو طرفين متساويين : على هيئة دائرتين

متماثلتين : تحصران سطحاً ملفوفاً بحيث يمكن متابعته بخط يتحرك موازياً نفسه .

فيستخرج العقل أسباب هذه كلها : من مباد عقلية ، ويحكم عليها أحكاماً صحيحة .  
وكذلك الحال في حاسة السمع ، وحاسة الذوق ، وحاسة الشم ، وحاسة اللمس .  
أعني حاسة الذوق : تغلط في الحلو : تجده مرأ عند الصل<sup>(١)</sup> وما أشبهه .  
وحاسة الشم تغلط كثيراً في الأشياء المنتمية : لاسيما في المشتغل من رائحة إلى رائحة :  
فالعقل يرد هذه القضايا ، ويقف فيها ، ثم يستخرج أسبابها ، ويحكم فيها أحكاماً صحيحة .  
والحاکم في الشيء المزيّف له ، أو المصحح : أفضل وأعلى رتبة ، من المحكوم عليه .  
وبالجملة فإن النفس إذا علمت أن الحس : صدق أو كذب . فليست تأخذ هذا العلم  
من الحس ، ثم إذا علمت أنها قد أدركت معقولاتها : فليست تعلم هذا العلم من علم آخر .  
لأنها لو علمت هذا العلم من علم آخر : لاحتاجت في ذلك العلم أيضاً إلى علم آخر ، وهذا  
يمر بلا نهاية . فإذا علمت بأنها علمت : ليس بماخوذ من علم آخر البتة . بل هو من ذاتها ،  
وجوهرها : أعني العقل . وليست تحتاج في إدراكها ذاتها إلى شيء آخر غير ذاتها .  
ولهذا ما قيل في أواخر هذا العلم : إن العقل ، والعقل ، والمعقول : شيء واحد ،  
لا غيرية شيء يتبين في موضعه . فأما الحواس : فلا تحس ذاتها ، ولا ما هو موافق لها  
كل الموافقة ، كما سيتبين أيضاً .

## النفس : لا تقاس بالأجسام

ولإذ قد تبين من هذه الأشياء ببياناً واضحاً بأن النفس ليست بجسم ، ولا بجزء  
من جسم ، ولا حال من أحوال الجسم ، وأنها شيء آخر : مفارق للجسم بجوهره ،  
وأحكامه ، وخواصه ، وأفعاله فنقول :

( ١ ) الصدا : السكرة تملو وجه الشيء . ولعله أراد : عند صدم اللسان : برض أو نحوه .  
قال البوصيري رضي الله تعالى عنه :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويشكر الفم طعم الماء : من سقم

## شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها

أما شوقها إلى أفعالها الخاصة بها : أعنى العلوم ، والمعارف . مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به ، فهو فضيلتها .

وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة ، وحرصه عليها : يكون فضله . وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه ، والصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعنى ؛ بجهده ، وطاقته .

وقد وضع بما تقدم : ما الأشياء العائقة لنا عن الفضائل .

أعنى الأشياء البدنية ، والحواس ، وما يتصل بها .

فأما الفضائل أنفسها : فليست تحصل لنا إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل ، التي هي أضدادها .

أعنى شهواتها الرديئة الجسدية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية !

فإن الإنسان إذا علم أن هذه الأشياء : ليست فضائل ، بل هي رذائل ؛ تجنبها ، وكره أن يوصف بها .

ولذا ظن أنها فضائل : لزمها ، وصارت له عادة .

وبحسب التباسه وتدنسها بها : يكون بعده من قبول الفضائل .

وقد يظهر للإنسان أن هذه الأشياء التي يشتهاها البدن بالحواس ، ويميل إليها الجمهور : أعنى المآكل ، والمشارب ، والمتاكح : هي رذائل ، وليست فضائل ، وأنه إذا عقلها في الحيوانات الآخر : وجد كثيراً منها ، أقدر على الاستكثار منها ، وأحرص عليها ؛ كالخنزير ، والكلب ، وأصناف كثيرة من حيوان الماء ، وسباع الوحش ، والطير : فإنها أقوى ، وأحرص من الإنسان على هذه الأشياء ، وأكثر احتمالاً لها ، وليست تكون بها أفضل من الإنسان .

وأيضاً فإن الإنسان إذا اكتفى من طعامه وشرابه ، وسائر لذاته البدنية : إذا عرض عليه الاستزادة منها : كما يستزاد من الفضائل : أبى ذلك وعافه ، وتبين له قبح صورة من يتماطأها . لاسيما مع الاستغناء عنها ، والاكتفاء منها . بل يتجاوز ذلك إلى مقتنه ، وذمه ، بل إلى تقويمه ، وتأديبه .

فينبغي الآن أن تقدم أمام ما نطلبه من سعادة النفس ، وقضائها : كلاماً يسهل به فهم ما نريده فنقول :

كل موجود : من حيوان ، ونبات ، وجماد ، وكذلك بسائطها : أعنى النار ، والهواء ، والارض ، والماء .

وكذلك الاجرام العلوية : له قوى ، وملكات ، وأفعال : بها يصير ذلك الموجود هو ما هو ، وبها يميز عن كل ما سواه . وله أيضاً قوى ، وملكات ، وأفعال : بها يشارك ما سواه .

ولما كان الإنسان من بين الموجودات كلها : هو الذى يلتمس له الخلق المحمود ، والأفعال المرضية : وجب أن لا ننظر في هذا الوقت : في قواه ، وملكاته ، وأفعاله : التى بها يشارك سائر الموجودات : إذ كان ذلك من حق صناعة أخرى ، وعلم آخر يسمى العلم الطبيعى .

وأما أفعاله ، وقواه ، وملكاته : التى يختص بها من حيث هو إنسان ، وبها تتم إنسانيته ، وفضائله : فهى الامور الإرادية : التى بها تتعلق قوة الفكر ، والتمييز . والنظر فيها يسمى الفلسفة العلية .

والاشياء الإرادية التى تنسب إلى الإنسان : تنقسم إلى الخيرات ، والشرور . وذلك أن الغرض المقصود من وجود الإنسان : إذا توجه الواحد منا إليه : حتى يحصل هو الذى يجب أن يسمى به خيراً ، أو سيئاً .

فأما من عاقه عنها عوائق أخر : فهو الشرير الشقي .

فإذن الخيرات : هى الامور التى تحصل للإنسان بإرادته وسعيه : فى الامور التى لها أوجد الإنسان : ومن أجلها خلق .

والشروع وهى الامور التى تعوقه عن هذه الخيرات : بإرادته وسعيه ،  
أو كسله وانصرافه .

والخيرات قد قسمها الاولون إلى أقسام كثيرة . وذلك أن منها ما هى شريفة ، ومنها  
ما هى ممدوحة ، ومنها ما هى بالقوة كذلك .

ولنعنى بالقوة : التهيؤ والاستعداد ، ونحن نعددها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا القول أن كل واحد من الموجودات : له كمال خاص ، وفعل : لا يشاركه  
فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء . أعنى أنه لا يجوز أن يكون موجود آخر سواء :  
يصلح لذلك الفعل منه ، وهذا حكم مستمر فى الأمور العلوية والسفلية : كالشمس وسائر  
السكواكب ، وكأنواع الحيوان كلها : كالفرس والبازى<sup>(١)</sup> ، وكأنواع النبات والمعادن ،  
وكالعناصر البسائط : التى متى تصفحت أحوالها : تبين لك من جميعها صحة ما قلناه  
وحكمنا به .

فإذن الإنسان من بين سائر الموجودات : له فعل خاص به : لا يشاركه فيه غيره ،  
وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية .

فكل من كان يتميزه أصح ، ورويته أصدق ، واختياره أفضل : كان أكمل  
فى إنسانيته .

وكما أن السيف والمنشار ، وإن صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص : بصورته الذى  
من أجله عمل . فأفضل السيوف : ما كان أمضى وأضر ، وما كفاه يسير من الإيماء فى  
بلوغ كاله : الذى أعد له .

وكذلك الحال فى الفرس ، والبازى<sup>(١)</sup> وسائر الحيوانات .

فإن أفضل الأفراس : ما كان أسرع حركة ، وأشد تيقظاً لما يريد الفارس منه :  
فى طاعة اللجام ، وحسن القبول فى الحركات ، وخفة العدو والنشاط .

فكذلك الناس أفضلهم : من كان أقدر على أفعاله الخاصة به ، وأشد  
جوهره الذى يتميز به عن الموجودات .

( ١ ) البازى : نوع من الصقور : يتخذ الصيد .



## المحرص على الخيرات

فإذن الواجب الذي لا مرية فيه : أن نحرص على الخيرات التي هي كاللنا ، والتي من أجلها خلقنا ، ونجتهد في الوصول إلى الانتهاء إليها ، وتجنب الشرور التي تعوقنا عنها ، وتنقص حظنا منها .

فإن الفرس : إذا قصر عن كماله ، ولم تظهر أفعاله الخاصة به على أفضل أحواله : حط عن مرتبة الفرسية ، واستعمل بالإكاف<sup>(١)</sup> كما تستعمل الخير .

وكذلك حال السيف ، وسائر الآلات : متى قصرت ونقصت أفعالها الخاصة بها : حطت عن مراقبتها ، واستعملت استعمال ما دونها .

والإنسان إذا نقصت أفعاله ، وقصرت عما خلق له .

أعني أن تكون أفعاله التي تصدر عنه ، وعن رويته : غير كاملة : أخرى بأن يحط عن مرتبة الإنسانية ، إلى مرتبة البهيمية !

هذا إن صدرت أفعاله الإنسانية عنه ناقصة غير تامة .

فإذا صدرت عنه الأفعال بضد ما أعد له : أعني الشرور التي تكون بالروية الناقصة ، والعدول بها عن جهتها : لأجل الشهوة التي يشارك فيها البهيمة أولاً ، أو الاعتزاز بالأمور الحسية : التي تشغله عما عرض له من تركية نفسه : التي ينتهي بها إلى الملك الرفيع ، والسرور الحقيقي ، وتوصله إلى قرة العين : التي قال الله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وتبلغه إلى رب العالمين في النعيم المقيم ، واللذات التي لم ترها عين ، ولا سمعها أذن ، ولا خطر على قلب بشر !

( ١ ) الإكاف : البرذعة .

وانخذع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة ، بتلك الحساسات التي لا ثبات لها .  
فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل ، خليق بتسجيل العقوبة له ، وإراحة العباد  
والبلاد منه .  
وإذ تبين أن سعادة كل موجود : إنما هي صدور أفعاله التي تخص صورته عنه ،  
تامة كاملة !

## السَّعَادَاتِ وَأُضْدَادُهَا

وأن سعادة الإنسان : تكون في صدور أفعاله الإنسانية عنه : بحسب تميزه ورويته .  
وأن لهذه السعادة مراتب كثيرة بحسب الروية والمروى فيه .  
ولذلك قيل : أفضل الروية : ما كان في أفضل مروى .  
ثم ينزل رتبة فرتبة إلى أن ينتهي إلى النظر في الأمور الممكنة من العالم الحسى ، فيكون  
الناظر في هذه الأشياء قد استعمل رويته ، والصور الخاصة به : التي صار من أجلها سعيداً .  
معرضاً للملك الأبدى ، والنعم السرمدى : في أشياء دنيئة : لا وجود لها بالحقيقة .  
فقد تبين أيضاً أجناس من السعادات بالجملة ، وأضدادها من الشقاوات وأجناسها .  
وأن الخيرات والشُرور ، في الأفعال الإرادية ، هي إما باختيار الأفضل ، والعمل به .  
وإما باختيار الآدون والميل إليه .  
ولما كانت هذه الخيرات الإنسانية وملكانها ، التي في النفس كثيرة ، ولم يكن في  
طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعها : وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم .  
ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة ، وأن يجتمعوا في زمان واحد ، على تحصيل  
هذه السعادات المشتركة : لتكامل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له : فتكون الخيرات

مشتركة : والسعادة مفروضة بينهم : فيتوزعونها حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ، ويتم للجميع بمعاونة الجميع : الكمال الإلهي ، وتحصل لهم السعادات الثلاث التي شرحناها في كتاب الترتيب .

ولاجل ذلك : وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً .  
لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته .  
فيكون إذن كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن .  
وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه .

## قوى النفس الثلاث

وقد تبين للناظر في أمر هذه النفس وقواها أنها تنقسم إلى ثلاثة : أغنى القوة التي بها يكون الفكر والتمييز ، والنظر في حقائق الأمور ، والقوة التي بها يكون الغضب والسجدة والإقدام على الأموال ، والشوق إلى التسلط والترفع ، وضروب الكرامات ، والقوة التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح ، وضروب اللذات الحسية .

وهذه الثلاث : متباينة .  
ويعلم من ذلك أن بعضها إذا قوى : أضر بالآخر ، وربما أبطل أحدهما فعل الآخر .  
وربما جعلت نفوساً ، وربما جعلت قوى لنفس واحدة .

والنظر في ذلك ليس يليق بهذا الموضع ، وأنت تسكتفي في تعلم الأخلاق : بأنها قوى ثلاث متباينة : تقوى لإحداها وتضعف : بحسب المزاج ، أو العادة ، أو التأديب .  
فالقوة الناطقة : هي التي تسمى الملكية ، وآلتها التي تستعملها من البدن : الدماغ .

والقوة الشهوية : هي التي تسمى بالبهيمية ، وآلتها التي تستعملها من البدن : الكبد .  
والقوة الغضبية : هي التي تسمى السبعية <sup>(١)</sup> ، وآلتها التي تستعملها من البدن : القلب .  
فلذلك وجب أن يكون عدد الفضائل بحسب أعداد هذه القوى .

وكذلك أعدادها التي هي رذائل : فمتى كانت حركة النفس الناطقة : معتدلة ، وغير  
خارجة عن ذاتها . وكانت شوقها إلى المعارف الصحيحة : لا المظنونة : معارف . وهي  
بالحقيقة جهالات . حدثت عنها فضيلة العلم : وتتبعها الحكمة .

ومتى كانت حركة النفس البهيمية : معتدلة ، متقادة للنفس العاقلة ، غير متأبئة عليها :  
فيما تسقط لها ، ولا منهمكة في اتباع هواها : حدثت عنها فضيلة العفة ، وتتبعها  
فضيلة السخاء !

ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة : تطيع العاقلة فيما تسقط لها : فلا تهيج في غير  
حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها : حدثت منها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة .  
ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث : باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض : فضيلة هي  
كاملها ، وتسميها : وهي فضيلة العدالة .

فلذلك أجمع الحكماء : على أن أجناس الفضائل أربع : وهي الحكمة ، والعفة ،  
والشجاعة ، والعدالة .

ولهذا لا يفخر أحد ، ولا يتباهى إلا بهذه الفضائل فقط .  
فأما من افتخر بأبائه وأسلافه : فلائهم كانوا على بعض هذه الفضائل ، أو عليها كلها .  
وكل واحدة من هذه الفضائل إذا تعدت صاحبها إلى غيره <sup>(٢)</sup> : تسمى صاحبها بها ،  
ومدح عليها .

( ١ ) السبعية نسبة إلى السبع : لأن يتخذها : يتمجل الغضب ، والاقام : كالسبع في بطشه .

( ٢ ) أي إذا تعدت حكمته ، وعفته ، وشجاعته ، وعمله إلى غيره : فاتفق بها : إفادة ،  
أو تقليداً ، أو تأسيماً .

وإذا اقتصر على نفسه : لم يسم بها : بل غيرت هذه الأسماء .  
 أما الجود فإنه إذا لم يتعد صاحبه : سمي صاحبه متفاقاً<sup>(١)</sup> .  
 وأما الشجاعة فإن صاحبها يسمى أنفاً<sup>(٢)</sup> .  
 وأما العلم فإن صاحبه يسمى مستبصراً .  
 ثم إن صاحب الجود والشجاعة : إذا عم غيره بفضيلته ، وتعدياه : رجي بإحداهما واحتشم وهيب بالآخرى .  
 وذلك في الدنيا فقط : لأنها فضيلتان حيوانيتان .  
 أما العلم إذا تعدى صاحبه : فإنه يرجى ويحتشم في الدنيا والآخرة .  
 لأنه فضيلة إنسانية ملكية .  
 وأضداد هذه الفضائل الأربع : أربع أيضاً .  
 وهي الجهل ، والشبه ، والجبن ، والجور .  
 وتحت كل واحد من هذه الأجناس : أنواع كثيرة ، سندكر منها ما يمكن ذكره .  
 فأما أشخاص الأنواع : فهي بلا نهاية .  
 وهي أمراض نفسانية : تحدث منها أمراض كثيرة : كالخوف ، والحزن ، والغضب ،  
 وأنواع العشق الشهواني ، وضروب من سوء الخلق .  
 وسندكرها ونذكر علاجاتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .  
 والذي يجب علينا الآن : هو تحديد هذه الأشياء ، أعني الأجناس الأربعة التي تحتوى  
 على جل الفضائل فنقول :

( ١ ) متفاقاً : أى متلافياً .

( ٢ ) أنفاً : أى مستعليماً ، مستكبراً .

## الحكمة

أما الحكمة : فهي فضيلة النفس الناطقة المميزه وهي :  
أن تعلم الموجودات كلها : من حيث هي موجودة .  
وإن شئت فقل : أن تعلم الأمور الإلهية ، والأمور الإنسانية .  
ويشر عليها بذلك : أن تعرف المعقولات : أيها يجب أن يفعل ، وأيها يجب  
أن يفعل .  
وأما العفة : فهي فضيلة الحس الشهواني . وظهور هذه الفضيلة في الإنسان يكون بأن  
يصرف شهواته بحسب الرأي .  
أعني أن يوافق التمييز الصحيح : حتى لا يتقاد لها . ويصير بذلك حراً غير متعبد لشيء  
من شهواته .

## الشجاعة

وأما الشجاعة : فهي فضيلة النفس الغضبية .  
وتظهر في الإنسان بحسب انقيادها للنفس الناطقة المميزه ، واستعمال ما يوجبها الرأي  
في الأمور المائلة .  
أعني أن لا يخاف من الأمور المفزعة : إذا كان فعلها جميلاً ، والصبر عليها محموداً .

## العدالة

فأما العدالة : فهي فضيلة للنفس : تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التي عددناها .

وذلك عند مسالة هذه القوى : بعضها البعض ، واستسلامها للقوة المميزة : حتى لا تتغالب ، ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها .

ويحدث للإنسان بها سمة : يختار بها أبدأ الإنصاف من نفسه على نفسه أولا ، ثم الإنصاف والإنصاف من غيره وله .

وسنتكلم على كل واحدة من هذه الفضائل بكلام أوسع من هذا : إذا ذكرنا الفضائل التي تحت كل جنس من هذه الأربع .

إذا كان غرضنا في هذا الموضع : الإشارة إليها بالرسوم الوجيزة : ليتصورها المتعلم .

والذي ينبغي الآن : أن نكتب ما قدمنا بذكر أنواع هذه الاجناس ، وما تحت كل واحد منها فنقول :

## الأقسام التي تحت الحكمة

الذكاء ، الذكر ، التعقل ، سرعة الفهم وقوته ، صفاء الذهن ، سهولة التعلم .

وبهذه الاشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة .

فأما الوقوف على جواهر هذه الأقسام فيكون من حدودها .

وذلك أن العلم بالحدود : يفهم جواهر الاشياء المطلوبة الموجودة دائما على حال

واحد . وهو العلم البرهاني ؛ الذي لا يتغير ، ولا يدخله الشك بوجه من الوجوه .

والفضائل التي هي بذاتها فضائل : لا تكون في حال من الأحوال غير فضائل .  
فكذلك العلوم بها .

- أما الذكاء : فهو سرعة انقذاح النتائج ، وسهولتها على النفس .
- أما الذكر : فهو ثبات صورة ما يخلصه العقل ، أو الوهم من الأمور .
- وأما التعقل : فهو موافقة بحسب النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه .
- وأما صفاء الذهن : فهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب .
- وأما جودة الذهن وقوته : فهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم .
- وأما سهولة التعلم : فهي قوة للنفس ، وحدة في الفهم : بها تدرك الأمور النظرية .

## الفضائل التي تحت العفة

الحياة ، الدعة ، الصبر ، السخاء ، الحرية ، القناعة ، الدمامة ، الانتظام ، حسن الهدى ،  
المسألة ، الوقار ، الورع .

أما الحياة : فهو انحصار النفس <sup>(١)</sup> خوف إتيان القبائح ، والحذر من الذم ، والسب  
الصادق <sup>(٢)</sup> .

وأما الدعة : فهي سكون النفس عند حركة الشهوات .

وأما الصبر : فهو مقاومة النفس الهوى : لئلا تنقاد لقبائح اللذات .

---

( ١ ) انحصار النفس : أي حبسها عن إتيان القبائح . ومنه قوله تعالى في يحيى عليه السلام  
( وسيداً وحصوراً ) .

( ٢ ) والسب الصادق : أي أنت يسب بما هو فيه . أما السب الكاذب : فهو اعتداء :  
لا يؤبه به ، ولا يعيب .



وأما السخاء : فهو التوسط في الإعطاء . وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغي<sup>(١)</sup> على مقدار ما ينبغي ، وعلى ما ينبغي .

وتحت السخاء خاصة : أنواع كثيرة نحسبها فيما بعد ، لكثرة الحاجة إليها .

وأما الحرية : فهي فضيلة النفس : بها يكتسب المال من وجهه ، ويعطى في وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه .

وأما القناعة : فهي التساهل في المآكل ، والمشارب ، والزينة<sup>(٢)</sup> .

وأما الدمثة : فهي حسن انقياد النفس لما يحمل ، وتسرعها إلى الجميل .

وأما الانتظام : فهو حال النفس تقودها إلى حسن تقدير الأمور وترتيبها كما ينبغي .

وأما حسن الهدى : فهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة<sup>(٣)</sup> .

وأما المسألة : فهي موادة تحصل للنفس عن ملل لا اضطراب فيها .

وأما الوقار : فهو سكون النفس ومباتها عند الحركات التي تكون في المطالب .

وأما الورع : فهو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس .

( ١ ) : إلقاء الأموال : فيها يلبي : هو الإففاق في سبيل الله ، وعلى الفقراء والمساكين : بنى حب ، ولا غيلة : بل ابتغاء وجه الله تعالى فحسب : مع علمه بأنه لا سرف في الخير ، ولا خير في السرف !

( ٢ ) : التساهل فيها : ألا يعتمد دائماً : أكل طيب الطعام ، وشرب أحسن الشراب ، وليس أنظر الثياب : لأن في ذلك خروج عن التواضع : القى يدهو إليه الإسلام : وفيه أيضاً كسر لحاظ الفقير : الذي يرى جميع ذلك ولا ينال به .

( ٣ ) : أريد بالزينة الحسنة : الأخلاق المرضية .

## الفضائل التي تحت الشجاعة

كبر النفس ، النجدة ، عظم الهمة ، الثبات ، الصبر ، الحلم ، عدم الطيش ، الشهامة ، احتمال السكد .

والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفة : أن هذا يكون في الأمور الهائلة ، وذلك يكون في الشهوات الهائجة .

أما كبر النفس : فهو الاستهانة باليسير ، والاقتدار على حمل الكرائه .

فصاحبه أبدأ يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافه لها .

وأما النجدة : فهي ثقة النفس عند المخاوف ، حتى لا يخامرها جزع .

وأما عظم الهمة : فهي فضيلة للنفس تحتل بها سعادة الجسد ، وخذها حتى الشدائد التي تكون عند الموت .

وأما الثبات : فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ، ومقاومتها في الأحوال خاصة .

وأما الحلم : فهو فضيلة للنفس تكسبها العظماءينة ، فلا تكون شعبة ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة .

وأما السكون الذي لعني به عدم الطيش : فهو إما عند الخصومات ، وإما في الحروب التي يذب بها عن الحريم ، أو عن الشريعة : وهو قوة للنفس تقصر حركتها في هذه الأحوال لشدها .

وأما الشهامة : فهي الحرص على الأهمال العظام توقماً للأحدوث الجيلة .

وأما احتمال السكد : فهو قوة للنفس بها تستعمل آلات البدن في الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة .

## الفضائل التي تحت السخاء

الكرم ، الإيثار ، النيل ، المواساة ، السباحة ، المساعدة .

أما الكرم : فهو إتفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر ،  
الكثيرة النفع ؛ كما ينبغي وبإتق شرائط السخاء التي ذكرناها .

وأما الإيثار : فهو فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى  
يئذله لمن يستحقه .

وأما النيل : فهو سرور النفس بالأفعال العظام ، وإبتهاجها بلزوم هذه السيرة .

وأما المواساة : فهي معاونة الأصدقاء ، والمستحقين ، ومشاركتهم في الأموال  
والأقوات .

وأما السباحة : فهي بذل بعض ما لا يجب .

وأما المساعدة : فهي ترك بعض ما يجب .

والجميع يكون بالإرادة والاختيار .



## الفضائل التي تحت العدالة

الصدقة ، الألفة ، صلة الرحم ، المكافأة ، حسن الشركة ، حسن القضاء ، التودد ، العبادة ، ترك الحقد ، مكافأة الشر بالخير ، استعمال اللطف ، ركوب المروءة في جميع الأحوال ، ترك المعاداة ، ترك الحكاية ممن ليس بعدل مرضى (١) ، البحث عن سيرة من يحكى عنه العدل ، ترك لفظة واحدة لا خير فيها لمسلم ، فضلاً عن حكاية توجب حداً ، أو قذفاً ، أو قتلاً ، أو قطعاً ، ترك السكون إلى قول سفلة الناس وسقطهم (٢) ، ترك قول من يكدى (٣) بين الناس : ظاهراً باطناً ، أو يلحف في مسألة ، أو يلح بالسؤال .

فإن هؤلاء يرضيهم الشيء اليسير فيقولون : لأجله حسناً ، ويستخفونهم إذا منعوا اليسير فيقولون ، لأجله قبيحاً ، ترك الشر في كسب الحلال ، وترك ركوب الدناءة في الكسب لأجل الضياع ، الرجوع إلى الله ، وإلى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به ؛ أو لحظ يلحظه ، أو خطرة ، في أعدائه وأصدقائه ، ترك اليمين بالله ، وبشيء من أسمائه وصفاته رأساً . وليس بعدل : من لم يكرم زوجته ، وأهلها المتصلين بها ، وأهل المعرفة الباطنة به .

وخير الناس : خيرهم لأهله وعشيرته والمتصلين به : من أخ ، أو ولد ، أو متصل بأخ ، أو والد ، أو قريب ، أو نسيب ، أو شريك ، أو جار ، أو صديق ، أو حبيب .

ومن أحب المال حباً مفرطاً : لم يؤهل لهذه المرتبة . فإن حرصه على جمع المال : يصدّه عن استعمال الرأفة ، وامتناء الحق ، وبذل ما يجب ، ويضطره إلى الخيانة ،

( ١ ) أي لا يروى عنه شيئاً : كما كان يفعل رواة الأحاديث ، والأخبار .

( ٢ ) سقط الناس : أوباشهم ، وأشافلهم .

( ٣ ) كدى الرجل : بخل ، أو قلل عطائه . قال الله تعالى (وأعطى قليلاً وأكدى) أي أعطى قليلاً ثم بخل . والطاء القليل : بخل .

والنكذب ، والاختلاق ، والزور ، ومنع الواجب ، والاستقصاء ، واستجلاب الدائق<sup>(١)</sup> والحبّة ، والذرة ؛ لبيع الدين والمروءة .

وربما أنفق أموالاً جمة : بحبة منه للحمدة ، وحسن الثناء ، ولا يريد بذلك وجه الله وما عنده . بل يتخذها مصيدة ، ويجعل ذلك مكسبة ، ولا يعلم أن ذلك عليه سيئة ومسبة . أما الصداقة : فهي حبة صادقة ، يهتم معها بجميع أسباب الصديق ، وإيثار فعل الخيرات التي يمكن فعلها به .

وأما الالفة : فهي اتفاق الآراء ، والاعتقادات ، وتحدث عن التواصل : فيعتقد معها المتصاف على تدبير العيش .

وأما صلة الرحم : فهي مشاركة ذوى اللحمية في الخيرات : التي تكون في الدنيا .

وأما المكافأة : فهي مقابلة الإحسان بمثله ، أو بزيادة عليه .

وأما حسن الشركة : فهو الأخذ والإعطاء في المعاملات : على الاعتدال الموافق للجميع .

وأما حسن القضاء : فهو مجازاة بعدل بغير ندم ولا من .

وأما التودد ، فهو طلب مودات الأكفاء ، وأهل الفضل : بحسن اللقاء ، وبالأعمال التي تستدعي المحبة منهم .

وأما العبادة : فهي تعظيم الله تعالى ، وتمجيده وطاعته ، وإكرام أوليائه : من الملائكة<sup>(٢)</sup> ، والأنبياء ، والأئمة . والعمل بما توجبه الشريعة .

وتقوى الله تعالى : تتم هذه الأشياء وتكملها .

وإذ قد تفحصنا الفضائل الأولى وأقسامها ، وذكرنا أنواعها وأجزائها : فقد عرفنا الرذائل ، التي تضاد الفضائل : لأنه يفهم من كل واحدة من تلك الفضائل كلها ما يقابلها ، لأن العلم بالاضداد واحد .

( ١ ) الدائق : لقد كان متداولاً : يبلغ سدس درهم .

وقد سمي الخليفة أبو جعفر المنصور بالدواليقي ؛ لبغله ، وشدة عاصيته على الدائق .

( ٢ ) إكرام الملائكة : أن يحبهم ، ويسلم عليهم : إذا ذكروا « عليهم السلام » .

ولما كانت هذه الفضائل : أوساطاً بين أطراف ، وتلك الأطراف هي الرذائل :  
وجب أن تفهم منها . وإن اتسع لنا الزمان ذكرناها : لأن وجود اسمائها في هذا  
الوقت متعذر .

وينبغي أن تفهم من قولنا : إن كل فضيلة فهي وسط بين رذائل ما أنها واصفه .  
أن الأرض لما كانت في غاية البعد من السماء : قيل إنها وسط ، وبالجمله المركز من  
الدائرة : هو على غاية البعد من المحيط .

وإذا كان الشيء على غاية البعد من شيء آخر : فهو من هذه الجهة على القطر .  
فعلى هذا الوجه : ينبغي أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة ؛ إذا كانت بين رذائل  
بعدها منها أقصى البعد .

ولهذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف : قربت من رذيلة  
أخرى ، ولم تسلم من العيب ؛ بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل إليها . ولهذا صعب  
جداً وجود هذا الوسط ؛ ثم النفسك به بعد وجوده أصعب .

لذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف : أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب  
بعد ذلك حتى لا يخطأها : أعسر وأصعب .

وذلك أن الأطراف التي تسمى رذائل : من الأفعال ، والأحوال ، والزمان ، وسائر  
الجهات : كثيرة جداً .

ولذلك كانت دواعي الشر : أكثر من دواعي الخير .

ويجب أن تطلب أوساط تلك الأطراف بحسب كل فرد فرد .

فأما ما يجب على المؤلف : فهو أن يذكر جل هذه الأوساط ، وقوانينها : بحسب  
ما يليق بالصناعة : لا على ما يجب على كل شخص شخص : فإن هذا غير ممكن .

فإن التجار ، والصائغ ، وجميع أرباب الصناعات : إنما يحصل في نفوسهم قوانين ،  
وأصول : فيعرف التجار صورة الباب ، والصيرير ، والصائغ صورة الخاتم ، والتاج  
على الإطلاق .

فأما أشخاص ما قام في نفسه : فإنما يستخرجها بتلك القوانين ، ولا يمكنه تعرف الأشخاص لأنها بلا نهاية .

وذلك أن كل باب وخاتم : إنما يعمل بمقدار ما ينبغي ، وعلى قدر الحاجة ، وبحسب المادة .

والصناعة لا تضمن إلا معرفة الأصول فقط .

وإذ قد ذكرنا معنى الوسط في الأخلاق ، وما ينبغي أن يفهم منه : فلنذكر هذه الأوساط لتفهم منها الأطراف التي هي رذائل ، وشرور : فنقول وبالله التوفيق :  
أما الحكمة : فهي وسط بين السفه والبله .

وأعنى بالسفه ههنا : استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغي ، وكما لا ينبغي . وسماء القوم الجريرة .

وأعنى بالبله : تعطيل هذه القوة ، وإطراحها ، وليس ينبغي أن يفهم أن البله ههنا نقصان الخلقة : بل ما ذكرته من تعطيل القوة الفكرية بالإرادة .

وأما الذكاء : فهو وسط بين الخبث والبلادة : فإن أحد طرفي كل وسط إفراط والآخر تفريط . أعنى الزيادة عليه والنقصان منه .

فالخبث ، والدهاء ، والحيل الرديئة : هي كلها إلى جانب الزيادة : فيما ينبغي أن يكون الذكاء فيه .

وأما البلادة ، والبله ، والمعجز عن إدراك المعارف : فهي كلها إلى جانب النقصان من الذكاء .

وأما الذكر : فهو وسط بين النسيان ، الذي يكون بإهمال ما ينبغي أن يحفظ ، وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ .

وأما التعقل : وهو حسن التصور : فهو وسط بين الذهاب بالنظر في الشيء الموضوع إلى أكثر مما هو عليه ، وبين القصور بالنظر فيه عما هو عليه .

وأما سرعة الفهم : فهي وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير إحكام لفهمه ، وبين الإبطاء عن فهم حقيقته .

وأما صفاء الذهن : فهو وسط بين ظلمة النفس عن استخراج المطلوب ، وبين التهايب يعرض فيها : فيمنعها من استخراج المطلوب .

وأما جودة الذهن وقوته : فهو وسط بين الإفراط في التأمل لما لزم من المقدم : حتى يخرج منه إلى غيره ، وبين التفريط فيه ، حتى يقتصر عنه .

وأما سهولة التعلم : فهي وسط بين المبادرة إليه بسلاسة ، تثبت معها صورة العلم ، وبين التعصب عليه وتعذره .

وأما العفة : فهي وسط بين رذيلتين : وهما الشره ، وخود الشهوة .

وأعنى بالشره : الانهماك في اللذات ، والخروج فيها عما ينبغي .

وأعنى بخمود الشهوة : السكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة ، التي يحتاج إليها البدن في ضروراته : وهي ما رخص فيه صاحب الشريعة والعقل .

وأما الفضائل التي تحت العفة : فإن الحياء ؛ وسط بين رذيلتين .

إحداهما الوقاحة ، والآخرى الخرق .

وأنت تقدر على أن تلاحظ أطراف الفضائل الأخرى : التي هي رذائل ، وربما وجدت لها أسماء بحسب اللغة ، وربما وجدت لها أسماء ، وليس يعسر عليك فهم معانيها ، والسلوك فيها على السبيل التي سلكناها .

وأما الشجاعة : فهي وسط بين رذيلتين : إحداهما الجبن ، والآخرى الثور .

أما الجبن : فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه .

وأما الثور : فهو الإقدام على ما لا ينبغي أن يقدم عليه .

وأما السخاء : فهو وسط بين رذيلتين : إحداهما السرف والتبذير ، والآخرى

البخل والتقتير .

أما التبذير : فهو بذل ما لا ينبغي لمن لا يستحق .

وأما التقتير : فهو منع ما ينبغي ممن يستحق .



وأما العدالة : فهي وسط بين الظلم والالظلام .

أما الظلم : فهو التوصل إلى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغي : كما لا ينبغي .

وأما الالظلام : فهو الاستخدام<sup>(١)</sup> ، والاستماتة في المقتنيات لمن لا ينبغي ، وكما لا ينبغي .

ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة : لأنه يتوصل إليها من حيث لا يجب ، ووجوه التوصل إليها كثيرة .

وأما المتظلم : فمقتنياته وأمواله : يسيرة جداً : لأنه يتركها من حيث لا يجب .

وأما العادل : فهو في الوسط . لأنه يقتنى الأموال من حيث يجب ، ويتركها من حيث لا يجب .

فالعدالة : فضيلة ينصف بها الإنسان من نفسه ، ومن غيره ؛ من غير أن يعطى نفسه من النافع أكثر ، وغيره أقل .

وأما الضرر فبالعكس : وهو أن لا يعطى نفسه أقل وغيره أكثر ؛ لكن يستعمل المساواة التي هي تناسب ما بين الأشياء : ومن هذا المعنى اشتق اسمه أعنى العدل .

وأما الجائر : فإنه يطلب لنفسه الزيادة من المنافع ، ولغيره النقصان منها .

وأما في الأشياء الضارة : فإنه يطلب لنفسه النقصان ، ولغيره الزيادة منها .

فقد ذكرنا الأخلاق : التي هي خيرات ، وفضائل ، وأطرافها : التي هي شرور ورذائل : على طريق الإيجاز . وحددنا ما يحمد منها . ورسمنا ما يرسم .

وسنشرح كل واحد منها : على سبيل الاستقصاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وينبغي أن نلخص في هذا الموضع شكار : ربما لحق طالب هذه الفضائل ، فنقول :

إننا قد بينا فيما تقدم : أن الإنسان من بين جميع الحيوان : لا يكتفى بنفسه في تكميل ذاته .

ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد : حتى يتمم به حياته طيبة ، ويجرى أمره على السداد !

( ١ ) استخذى الرجل : مال ، وذل ، وضعف .

ولهذا قال الحكماء : إن الإنسان مدني بالطبع . أى هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير : لتتم له السعادة الإنسانية .

فكل بالطبع وبالضرورة ، يحتاج إلى غيره : فهو لذلك مضطر إلى مضافة الناس ، ومعاشرتهم العشرة الجميلة ، ومحبتهم المحبة الصادقة : لأنهم يكملون ذاته ، ويتممون إنسانيته ، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك .

فإذا كان كذلك بالطبع ، وبالضرورة : فكيف يؤثر الإنسان ، العاقل العارف بنفسه : التفرد والتخلي ، ولا يتعاطى ما يرى الفضيلة في غيره .

فإذا القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد ، وترك مخالطة الناس ، وتفردوا عنهم .  
لما بملازمة المغارات في الجبال . ولما ببناء الصوامع في المفاوز .

ولما بالسياحة في البلدان : لا يحصل لهم شيء من الفضائل الإنسانية التي عددناها .  
ذلك أن من لم يخاطب الناس ، ولم يساكنهم في المدن : لا تظهر فيه العفة ، ولا النجدة ، ولا السخاء ، ولا العدالة : بل تصير قواه وملكانه التي ركبت فيه : باطلة لأنها لا تتوجه لا إلى خير ، ولا إلى شر .

فإذا بطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها : صاروا بمنزلة الجمادات ، والموتى من الناس : ولذلك يظنون ويظن بهم : أنهم أعفاء : وليسوا بأعفاء ، وأنهم عدول : وليسوا بعدول ، وكذلك في سائر الفضائل .

أعنى أنه إذا لم يظهر منهم أصداد هذه التي هي شرور : ظن بهم الناس أنهم أفاضل ، وليست الفضائل أعداداً : بل هي أفعال وأعمال : تظهر عند مشاركة الناس ، ومساكنتهم ، وفي المعاملات ، وضروب الاجتماعات .

ونحن إنما نعلم وتعلم الفضائل الإنسانية : التي نساكن بها الناس ، ونخالطهم ، ونصبر على أذاهم : لنصل منها وبها إلى سعادات أخر : إذا صرنا إلى حال أخرى . وتلك الحال غير موجودة لنا الآن .

# المقالة الثانية الحُلق



## الخلق

الخلق : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها : من غير فكر ولا روية .

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين :

١- منها ما يكون طبيعياً : من أصل المزاج : كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ، ويبهج من أقل سبب .

وكالإنسان : الذي يجهن من أيسر شيء : كالذي يفرع من أدنى صوت يطرق سمعه ، أو يرتاع من خبر يسمعه . وكالذي يضحك ضحكا مفرطاً : من أدنى شيء يعجبه . وكالذي يغم ويحزن : من أيسر شيء يناله .

٢- ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر . ثم يستمر عليه : أولاً فاولاً ، حتى يصير ملكة وخلقاً .

ولهذا اختلف القدماء في الخلق . فقال بعضهم : الخلق خاص بالنفس غير الناطقة .

وقال بعضهم : قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ .

ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً .

فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعي : لم ينتقل عنه .

وقال آخرون : ليس شيء من الاخلاق طبيعياً للإنسان . ولا نقول إنه غير طبيعي .

وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق . بل ننتقل بالتأديب والمواظ : إما سريعاً ، أو بطيئاً .

وهذا الرأي الأخير : هو الذي نختاره ، لانا لشاهده عياناً .

ولأن الرأي الاول : يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الاحداث والصبيان : على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً !

وأما الرواقيون<sup>(١)</sup> : فظنوا أن الناس كلهم يخلقون اختياراً بالطبع ، ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً : بمجالسة أهل الشر ، والميل إلى الشهوات الرديئة ، التي لا ترفع بالتأديب : فينهمك فيها ثم يتوصل إليها من كل وجه ، ولا يفكر في الحسن منها والقيح . وقوم آخرون كانوا قبل هؤلاء : ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى : وهي كدر العالم : فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع .

ولأنما يصيرون اختياراً بالتأديب والتعليم . إلا أن فيهم من هو في غاية الشر : لا يصلحه التأديب ، وفيهم من ليس في غاية الشر : فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا ، ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل .

فأما جالينوس<sup>(٢)</sup> فإنه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع ؛ وفيهم من هو شرير بالطبع ، وفيهم من هو متوسط بين هذين .

ثم أفسد المذهبين الأولين : اللذين ذكرناهما .

أما الأول : فبان قال : إن كان كل الناس اختياراً بالطبع ، ولأنما ينتقلون إلى الشر بالتعليم . فبالضرورة إما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم ، وإما من غيرهم .

فإن تعلموا من غيرهم : فإن المعلمين الذين علومهم الشر : أشرار بالطبع . فليس الناس إذاً كلهم اختياراً بالطبع .

وإن كانوا تعلموه من أنفسهم : فإما أن يكون فيهم قوة يشتهون بها إلى الشر فقط ؛ فهم إذاً أشرار بالطبع . وإما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتهى إلى الشر ، قوة أخرى تشتهى إلى الخير . إلا أن القوة التي تشتهى إلى الشر غالبية قاهرة للتي تشتهى إلى الخير .

( ١ ) الرواقيون : هم تلاميذ زينون : الفيلسوف اليوناني : لأنه كان يعلمهم في رواق .

ويطلق أيضاً على شيعة من اليهود : تقول بالتقدير ، والتناسخ .

وزينون هذا : مؤسس المذهب الرواقي : ينسبون إليه القول بالمأثور : إنما العيش : العيش مع الطبيعة . ولد في القرن الرابع قبل الميلاد .

( ٢ ) جالينوس : طبيب يوناني . له اكتشافات خطيرة في عالم التشريح . وقد ائتم به أطباء العرب . واهتمت أيضاً بالفلسفة ، وبرع فيها .

وعلى هذا أيضاً يكونون أشراراً بالطبع .

وأما الرأي الثانى : فإنه أفسده بمثل هذه الحجة . وذلك أنه قال : إن كان كل الناس أشراراً بالطبع : فإما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم ، أو من أنفسهم . ونعيد الكلام الأول بعينه .

ولما أفسد هذين المذهبين : صحح رأى نفسه من الأمور البينة الظاهرة . وذلك أنه ظاهر جداً أن من الناس من هو خير بالطبع : وهم قليلون ، وليس ينتقل هؤلاء إلى الشر .

ومنهم من هو شرير بالطبع : وهم كثيرون ، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير . ومنهم من هو متوسط بين هذين ، وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الأخيار ومواعظهم إلى الخير . وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر وإغوائهم إلى الشر .

وأما أرسطوطاليس<sup>(١)</sup> فقد بين فى كتاب الأخلاق ، وفى كتاب المقولات أيضاً ، أن الشرير : قد ينتقل بالتأديب إلى الخير ، ولكن ليس على الإطلاق : لأنه يرى أن تكرير المواقف والتأديب ، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة : لا بد أن يؤثر ضروب التأثير فى ضروب الناس : فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة ، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء .

ونحن نؤلف من ذلك قياساً وهو هذا :

كل خلق يمكن تغييره ، ولا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع .

فإذاً لا خلق ، ولا واحد منه بالطبع .

والمقدمتان صحيحتان ، والقياس منتج فى الضرب الثانى من الشكل الأول .

( ١ ) أرسطوطاليس : من أكارفلاسفة اليونان ، ومن أعظم مفكرى العالم ، وقد كان مؤيداً لالاسكندر ، وتأليفه : لأخصر لها : فى المنطق ، والطبيعيات ، والإلهيات ، والأخلاق ، وماوراء الطبيعة ، وقد تأثر بتأليفه : مفكروا العرب وفلاسفتهم ، ومن أهم من نقل عنه : إسحاق بن حنين ، مؤسس مذهب المشائين .

أما تصحيح المقدمة الأولى : وهى أن كل خلق يمكن تغييره : فقد تكلمنا عليه وأوضحناه : وهو بين من العيان .

وعما استدللنا به : من وجوب التأديب ونفعه ، وبأنه في الأحداث والصبيان .

ومن الشرائع الصادقة التى هى سياسة الله لخلقه .

وأما تصحيح المقدمة الثانية : وهى أنه لا شئ مما يمكن تغييره هو بالطبع : فهو ظاهر أيضاً .

وذلك أنا لا نروم تغيير شئ مما هو بالطبع أبداً .

فإن أى أحد لا يروم أن يغير حركة النار : التى إلى فوق بأن يعودها الحركة إلى أسفل .

ولا أن يعود الحجر حركة العلو : يروم بذلك أن يغير حركة الطبيعة التى إلى أسفل .

ولو رامه : ما صح له تغيير شئ من هذا ، ولا ما يجرى مجراه .

أعنى الأمور التى هى بالطبع . فقد صحت المقدمتان ، وصح التأليف في الشكل الأول . وهو الضرب الثانى منه ، وصار برهاناً .

فأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التى سميناها خلقاً ، والمصارعة إلى تعلمها ، والحرص عليها : فإنها كثيرة ، وهى تشاهد وتعاين فيهم ، وخاصة في الأطفال : فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ، ولا فسر : كما يفعل الرجل النام : الذى انتهى في نشئه وكماله : إلى حيث يعرف من نفسه ما يستعجب منه : فيخفيه بضروب من الحيل ، والأفعال المضادة لما في طبعه .

وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان : واستعدادهم لقبول الأدب ، أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر في بعضهم من الفحة ، وفي بعضهم من الحياء .



وكذلك ما ترى فيهم : من الجود ، والبخل ، والرحمة ، والقسوة ، والحسد وضده .  
ومن الأحوال المتفاوتة : ما تعرف به مراتب الإنسان ؛ في قبول الأخلاق الفاضلة ،  
وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة . وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل السلس ،  
والفظ العسر ، والخير والشرير .

والمتوسطون بين هذه الأطراف : في مراتب لا تحصى كثرة .  
وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم : نشأ كل إنسان على سوم طباعه ،  
وبقى عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولية ، وتبع ما وافقه في الطبع :  
إما الغضب وإما اللذة وإما الزعارة <sup>(١)</sup> ، وإما الشره ، وإما غير ذلك من الطباع  
المذمومة !

## الشرعية

والشرعية : هي التي تقوم الأحداث ، وتعودم الأفصال المرضية ، وتعد نفوسهم  
لقبول الحكمة ، وطلب الفضائل ، والبلوغ إلى السعادة الإنسانية : بالفكر الصحيح ،  
والقياس المستقيم .

وعلى الوالدين : أخذهم بها ، وبسائر الآداب الجميلة ؛ بضروب السياسات ، من  
الضرب إذا دعت إليه الحاجة ، أو التوبيخات إن صدتهم ، أو الإطعام في الكرامات ،  
أو غيرها : مما يميلون إليه من الراحة ، أو يحذرونه من العقوبات .

حتى إذا تعودوا ذلك ، واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة : أمكن فيهم حينئذ أن  
يعلموا بـأهين ما أخذوه تقليداً ، أو ينهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى  
غاياتها ، بهذه الصناعة التي نحن بصدد ما والله الموفق !

( ١ ) الزعارة : سوء الخلق . والأزم : المنسوب إلى الزعارة .

وللإنسان في ترتيب هذه الآداب وسياقها : أولاً فأولاً إلى الكمال الأخير : طريق طبيعي يتشبه فيما بفعل الطبيعة .

وهو أن ينظر إلى هذه القوى التي تحدث فينا : أيها أسبق إلينا وجوداً : فيبدأ بتقويمها ، ثم بما عليها على النظام الطبيعي : وهو بين ظاهر .

وذلك أن أول ما يحدث فينا : هو الشيء العام للحيوان والنبات كله ، ثم لا يزال يختص بشيء شيء : يتميز به عن نوع نوع : إلى أن يصير إلى الإنسانية .

فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذي يحصل فينا للغذاء فنقومه .

ثم بالشوق الذي يحصل فينا إلى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه .

ثم بآخره وهو الشوق الذي يحصل فينا إلى المعارف ، والعلوم فنقومه .

وهذا الترتيب الذي قلنا إنه طبيعي : إنما حكمنا فيه بذلك : لما يظهر فينا منذ أول نشونا .

أعني أنا نكون أولاً أجنة ، ثم أطفالاً ، ثم أناساً كاملين ، وتحدث فينا هذه القوى مرتبة .

فأما ان هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها ، أعني صناعة الاخلاق : التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان : بحسب ما هو لإنسان ؛ فيتمين بما أقول .

## الإنسان

لما كان للجوهر الإنسان فعل خاص : لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم ، كما بيناه فيما تقدم .

وكان الإنسان أشرف موجودات عالمنا ، ثم لم تصدر عنه أفعاله بحسب جوهره .

وشبهناه بالفرس : الذى إذا لم تصدر عنه أفعال الفرس على التمام : استعمل مكان الحمار بالإكاف<sup>(١)</sup> .

وكان وجوده : أروح له من عدمه : وجب أن تكون الصناعة التى تعنى بتجويد أفعال الإنسان حتى تصدر عنه أفعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره ، ورفعته عن رتبة الأخرس : التى يستحق بها المقت من الله ، والقرار فى العذاب الأليم : أشرف الصناعات كلها وأكرمها .

وأما سائر الصناعات الأخر : فرائبها من الشرف بحسب مراتب جوهر الشيء الذى تستعمله ، وهذا ظاهر جداً من تصفح الصناعات : لأن فيها الدباغة التى تعنى باستصلاح جلود البهائم المينة ، وفيها صناعة الطب والعلاج : التى تهتم باستصلاح الجواهر الثمينة الكريمة ، وهكذا الهمم المتفاوتة التى يتصرف بعضها إلى العلوم الدينية ، وبعضها إلى العلوم الشريفة .

وإذا كانت جواهر الموجودات ، متفاوتة فى الشرف : فى الجاد والنبات والحيوان .

أما فى الحيوان فكجواهر الديدان والحشرات : إذا قيس إلى جوهر الإنسان .

وأما فى جوهر الموجودات الأخر : فظاهر لمن أراد أن يحصيها :

فالصناعة والهمة التى تصرف إلى أشرفها : أشرف من الصناعة والهمة التى تصرف إلى الأدون منها .

ويجب أن يعلم أن اسم الإنسان : وإن كان يقع على أفضلهم ، وعلى أدونهم : فإن بين هذين الطرفين : أكثر مما بين كل متضادين من البعد .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان ) .

وقال عليه الصلاة والسلام : ( الناس كإبل مائة : لا تجد فيها راحلة واحدة )<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) الإكاف : البرذعة .

( ٢ ) أى لا تجد فيها واحدة تصلح للركوب . أى أن الأشرار : أكثر من الأخيار (وقليل

من هبأدى الشكور) .

وقال : ( الناس كأسنان المشط ، وفي بعضها كأسنان الحمار ، وإنما يتفاحلون بالعقل ، ولا خير في صحبة من لا يعرف لك من الفضل ما تعرف له ) وفي نظائر هذه أشياء كثيرة تدل على هذا المعنى ، وإن الشاعر الذى قال :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد : حتى عد ألف بواحد  
وإن كان عنده أنه قد بالغ : فإنه قد قصر .

والخبر المروى عن النبي عليه الصلاة والسلام ( أنى وزنت بأمتى فرجحت بهم )  
أصدق وأوضح .

وليس هذا فى الإنسان وحده : بل فى كثير من الجواهر الآخر .  
وإن كان فى الإنسان أكثر وأشد تفاوتاً : فإن بين السيف المعروف بالصمصام ، وبين  
السيف المعروف بالكهام<sup>(١)</sup> تفاوتاً عظيماً .

وكذلك الحال فى التفاوت الذى بين الفرس الكريم ، وبين البرذون<sup>(٢)</sup> المرقف<sup>(٣)</sup> .  
فمن أمكنه أن يرقى بالصناعة من أدون هذه الجواهر مرتبة إلى أعلاها : فأشرف به  
وبصناعته : ما أكرمه وأكرمها !

فأما الإنسان من بين هذه الجواهر : فهو مستمد بضروب من الاستعدادات ،  
لضروب من المقامات .

وليس ينبغى أن يكون الطمع فى استصلاحه على مرتبة واحدة ، وهذا شئ يتبين  
فيما بعد بمشيئة الله وعونه .

إلا أن الذى ينبغى أن يعلم الآن : أن وجود الجوهر الإنسانى : متعلق بقدره فاعله  
وعالقه ، تبارك وتقدس اسمه وتعالى !

---

( ١ ) الصمصام : السيف الصارم : الذى لا يثنى . والكهام : السيف الضعيف ، الكليل .  
( ٢ ) البرذون : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب : عظيم الخلق ، غليظ الأهضاء .  
( ٣ ) المرقف : الفرس : الذى أحد أبويه مريباً ، والآخر غير مريب .

فأما تجويد جوهره : فنفوض إلى الإنسان ، وهو معلق بإرادته ؛ فاعرف هذه الجملة إلى أن تلخص في موضعها إن شاء الله تعالى . وقد قدمنا في صدر هذا الكتاب أن قلنا : ينبغي أن نعرف نفوسنا : ما هي ؟ ولأى شيء هي ؟ .

ثم قلنا : إن لكل جوهر موجود كالا خاصاً به ، وفعل لا يشاركه فيه غيره : من حيث هو ذلك الشيء . وقد بينا ذلك غاية البيان في الرسالة المسعدة (١) .

وإذا كان ذلك محفوظاً : فنحن مضطرون إلى أن نعرف الكمال الخاص بالإنسان ، والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره ، من حيث هو إنسان ؛ لنحرص على طلبه وتحصيله ، ونجتهد في البلوغ إلى غايته ونهايته .

ولما كان الإنسان مركباً : لم يجوز أن يكون كاله ، وفعله الخاص به كمال بساطته ، وأفعالها الخاصة بها ، وإلا كان وجود المركب باطلاً : كالحال في الخاتم والسرير .

فإذا له فعل خاص به ، من حيث هو مركب وإنسان : لا يشاركه فيه شيء من الموجودات الأخرى .

فأفضل الناس أقدراً على إظهار فعله الخاص ، وأزهمهم له : من غير تلون فيه ، ولا إخلال به ، في وقت دون وقت .

وإذا عرف الأفضل : فقد عرف الأقل على اعتبار الضد .

فالكمال الخاص بالإنسان : كالان . وذلك أن له قوتين : إحداها العاملة ، والأخرى العاملة ، فلذلك يشترك بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم ، وبالأخرى إلى نظم الأمور ، وترتيبها . وهذان الكمالان : هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا :

---

( ١ ) الرسالة المسعدة : من إحدى رسائله التي لم تصل إلينا .

# الفلسفة

الفلسفة : تنقسم إلى قسمين : إلى الجزء النظرى ، والجزء العملى .  
 فإذا كل الإنسان بالجزء العملى ، والجزء النظرى : فقد سعد السعادة التامة .  
 أما كماله الأول بإحدى قوته : أعنى العاملة : وهى التى يشتاق بها إلى العلوم ، فهو أن  
 يصير فى العلم بمحيث يصدق لظره ، وتصح بصيرته ، وتستقيم رويته : فلا يغلط فى اعتقاد ،  
 ولا يشك فى حقيقة .  
 وينتهى فى العلم بأمور الموجودات على الترتيب : إلى العلم الإلهى الذى هو آخر مرتبة  
 العلوم ، ويشق به ، ويسكن إليه ، ويعلمن قلبه ، وتذهب حيرته ، وينجلي له المطلوب  
 الأخير : حتى يتحد به .  
 وهذا الكمال قد بينا الطريق إليه ، وأوضحنا سبله فى كتب آخر .  
 وأما الكمال الثانى : الذى يكون بالقرة الأخرى ، أعنى القوة العاملة : فهو الذى  
 نفعده فى كتابنا هذا ، وهو الكمال الخلقى : وعبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها :  
 حتى لا تتغالب ، وحتى تتسالم هذه القوى فيه ، وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته الميزة ،  
 منتظمة مرتبة كما ينبغى ، وينتهى إلى التدبير المدنى : الذى يرتب الأفعال والقوى  
 بين الناس : حتى تنتظم ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة : كما كان ذلك  
 فى الشخص الواحد .  
 فإذا الكمال الأول النظرى منزلته : منزلة الصورة ، والكمال الثانى العملى منزلته :  
 منزلة المادة ، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر ، لأن العلم مبدأ ، والعمل تمام ، والمبدأ  
 بلا تمام : يكون ضائعاً ، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً .  
 وهذا الكمال هو الذى سميناه غرضاً .

وذلك أن الغرض والكمال بالذات : هما شيء واحد ، وإنما يختلفان بالإضافة . فإذا نظر إليه وهو بعد في النفس ، ولم يخرج إلى الفعل ، فهو غرض ، فإذا خرج إلى الفعل وتم فهو كمال .

وكذلك الحال في كل شيء : لأن البيت إذا كان متصوراً للبانى ، وكان عالماً بأجزائه وتركيبه وسائر أحواله : كان غرضاً . فإذا أخرجه إلى الفعل وتممه : كان كمالاً .

فقد صح من جميع ما قدمناه : أن الإنسان يصير إلى كماله ، ويصدر عنه فعله الخاص به : إذا علم الموجودات كلها .

أى يعلم كلياتها ، وحدودها : التى هى ذواتها ، لا أعراضها ، وخواصها التى تميزها ببلانهاية .

فإنك إذا علمت كليات الموجودات : فقد علمت جزئياتها بنحو ما : لأن الجزئيات لا تخرج عن كلياتها . فإذا كملت هذا الكمال : فتممه بالفعل المنظوم ، ورتب القوى والممتلكات التى فىك : ترتيباً عالياً كما سبق عليك به .

فإذا انتهيت إلى هذه الرتبة : فقد صرت عالماً وحدك ، واستحققت أن تسمى عالماً صغيراً : لأن صور الموجودات كلها قد حصلت فى ذاتك : فصرت أنت هى بنحو ما . ثم نظمتها بأفعالك على نحو استطاعتك : فصرت فيها خليفة لمولاك : خالق الكل : جلست عظمتها فلم تخط فيها ، ولم تخرج عن نظامه الأول الحكيم ، فتصير حينئذ عالماً تاماً .

والثام من الموجودات : هو الدائم الوجود ، والدائم الوجود : هو الباقي بقاء سرمدياً ، فلا يزولك حينئذ شيء من النعيم المقيم ، لأنك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى دائماً أبداً . وقد قربت منه القرب الذى لا يجوز أن يحول بينك وبينه سبحانه . وهذه هى الرتبة العليا ، والسعادة القصوى .

ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس ، يمكنه تحصيل هذه المنزلة فى ذاته ، وتكامل صورته بها ، وإتمام نقصانه بالترقى إليها : لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات

الآخر ، أو كسيل أشخاص النبات : في مصيرها إلى الفناء والاستحالة التي تلحقها ،  
والنقصانات التي لا سبيل إلى تمامها . ولاستحال فيه البقاء الأبدى ، والنعيم السرمدي ،  
والمصير إلى ربه ، ودخول جنته .

ومن لا يتصور هذه الحالة ، ولا ينتهي إلى علمها من المتوسطين في العلم : يقع له  
شكوك ، فيظن أن الإنسان إذا انتقض تركيبه الجسماني : بطل وتلاشى : كالحال  
في الحيوانات الآخر ، وفي النبات : حينئذ يستحق اسم الإلحاد ، ويخرج عن سمة الحكمة ،  
وسنة الشريعة !

## كمال الإنسان : في اللذات المعنوية

وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته : هما في اللذات الحسية . وأنها هي الخير  
المطلوب ، والسعادة القصوى .

وظنوا أن جميع قواه الآخر : إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات ، والتوصل إليها .  
وأن النفس الشريفة التي سميناها ناطقة : إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها .  
ثم يوجهها نحو هذه اللذات : لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها له على النهاية  
والغاية الجسمانية .

وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة : أعنى الذكر ، والحفظ ، والروية : كلها تراد  
لتلك الغاية .

قالوا : وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي كانت حصلت له : بالمطاعم ،  
والمشارب ، والمناكح : اشتاق إليها ، وأحب معاودتها : فقدم صارت منفعة الذكر  
والحفظ : إنما هي اللذات وتحصيلها .



ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم : جعلوا النفس المميّزة الشريفة : كالعبد المميز ،  
وكالاجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية لتخدمها في المأكل ، والمشرب ، والمناكح ،  
وترتيبها لها ، وتعد لها إعداداً كاملاً موافقاً .

وهذا هو رأى الجمهور : من العامة الرعاع ، وجهال الناس السقاط<sup>(١)</sup>

وإلى هذه الخيرات التي جعلوها غاياتهم : تشوقوا عند ذكر الجنة ، والقرب من  
بارئهم عز وجل ؛ وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم .

وإذا خلوا بالعبادات ، وتركوا الدنيا ، وزهدوا فيها : فإنما ذاك منهم على سبيل  
المتجر ، والمراجعة في هذه بعينها : كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها ، وأعرضوا  
عن الفانيات منها : ليلبغوا إلى الباقيات .

إلا أنك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الأفعال : إذا ذكر عندهم الملائكة ،  
والخلق الأعلى الأشرف ، ومازهمهم الله عنه : من هذه القاذورات : علوا بالجملة أنهم  
أقرب إلى الله تعالى ، وأعلى رتبة من الناس ، وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات  
البشر . بل يعلمون أن خالقهم ، وخالق كل شيء ، الذي تولى إبداع الكل : هو منزّه  
عن هذه الأشياء ، متعال عنها : غير موصوف باللذة والتلذذ : مع التمكن من إيجادها .

وأن الناس يشاركون في هذه اللذات : الخنافس ، والديدان ، وصغار الحشرات ،  
والهجم<sup>(٢)</sup> من الحيوان .

وإنما يتناسبون الملائكة : بالعقل والتمييز . ثم يجمعون بين هذا الاعتقاد والاعتقاد  
الأول . وهذا هو العجب العجيب !

وذلك أنهم يرون عياناً ضروراتهم : بالأذى الذي يلحقهم : بالجوع ، والعري ،  
وضروب النقص : وحاجاتهم إلى مداواتها : بما يدفعها عنهم .

( ١ ) سقاط الناس : أراذلهم .

( ٢ ) الهجم : ذباب شديد : يقع على وجوه الغنم والحيد . ويطلق أيضاً على الحق ، ورعاع الناس :

لا نظام لهم .

فإذا زالت آثارها ، وعادوا إلى حال السلامة منها ، التذوا بذلك ، ووجدوا للراحة لذة ، ولا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا إلى لذة النسا كل : فقد اشتاقوا أولاً إلى ألم الجوع .  
وذلك أنهم إن لم يؤلموا بالجوع : لم يلتذوا بالأكل .

وهكذا الحال في سائر اللذات الأخر . إلا أن هذا الحال في بعضها أظهر منها في بعض .  
وستسكلم على أن صورة الجميع : واحدة . وأن اللذات كلها : إنما تحصل للملتذ بعد آلام تلحقه ، لأن اللذة : هي راحة من ألم ، وأن كل لذة حسية : إنما هي خلاص من ألم ، أو أذى . في غير هذا الموضع .

وسيتظهر عند ذلك : أن من رضى لنفسه بتحصيل اللذات البدنية ، وجعلها غاية ، وأقصى سعادته : فقد رضى بأخس العبودية ، لأخس الموالى <sup>(١)</sup> .

لأنه يصير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة : عبداً للنفس الدنيئة : التي يناسب بها الخنازير ، والخناس ، والديدان ، وخسائس الحيوانات : التي تشارك في هذا الحال .

وقد تعجب جالينوس <sup>(٢)</sup> في كتابه الذي سماه بأخلاق النفس من هذا الرأي ، وكثر استجهاله للقوم الذين هذه مرتبتهم من العقل .

إلا أنه قال : إن هؤلاء الخبيثاء : الذين سيرتهم أسوأ السير وأردأها : إذا وجدوا إنساناً هذا رأيه ومذهبه : نصره ونوهوا به ، ودعوا إليه : ليوموا بذلك أنهم غير متفردين بهذه الطريقة : لأنهم يظنون أنهم متى وصف أهل الفضل ، والنبل : من الناس بمثل ما هم عليه : كان ذلك عذراً لهم ، وتمويهاً على قوم آخرين : في مثل طريقةهم .

وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث : بإيهامهم أن الفضيلة : هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ .

( ١ ) أخس العبودية : أن يكون المرء عبداً لشهواته . وأخس الموالى : إبليس عليه لعنة .

( ٢ ) جالينوس : طبيب يوناني . له أكتافيات خطيرة في عالم النفس . وقد اهتم به أطباء

المرب . واشتغل أيضاً بالفلسفة ، وبرع فيها .

- . . -

وأن تلك الفضائل الأخر الملكية : إما أن تكون باطلة : ليست بشيء البتة . وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس .

والناس مائلون بالطبع الجسداني : إلى الشهوات : فيكثر اتباعهم ، وتقل الفضلاء فيهم . وإذا تذبذبه الواحد بعد الواحد منهم ، إلى أن هذه الذات : إنما هي لضرورة الجسد ، وأن بدنه مركب من الطبائع المتضادة : أعنى الحرارة ، والبرودة ، واليؤوسة ، والرطوبة ، وأنه إنما يعالج بالمسا كل والمشرب : أمراضاً تحدث به عند الانحلال : لحفظ تركيبه على حالة واحدة أبداً ما أمكن ذلك فيه .

وأن علاج المرض : ليس بسعادة تامة ، والراحة من الألم : ليست بغاية مطلوبة ولا خير محض .

وأن السعيد التام : هو من لا يعرض له مرض البتة .

وعرف مع ذلك أيضاً : أن الملائكة الأبرار : الذين اصطفتهم الله بقربه : لا تلحقهم هذه الآلام : فلا يحتاجون إلى مداواتها بالأكل والشرب .

وأن الله تعالى : منزّه متعال عن هذه الأوصاف : عارضوه بأن بعض البشر : أشرف من الملائكة ، وأن الله تعالى أجل من أن يذكر مع الخلق .

وشاغبوه وسفهوراياه ، وأوقعوا له شهاً باطلة : حتى يشك في صحة ما تذبذبه إليه ، وأرشدته عقله إليه .

والعجب الذي لا ينفضى : هو أنهم مع رأيهم هذا إذا وجدوا واحداً من الناس : قد ترك طريقتهم التي يميلون إليها ، واستهان باللذة والتمتع ، وصام وطوى ، واقتصر على ما أنبتت الأرض : عظمه ، وكثر تمجدهم منه ، وأهلوه للراتب العظيمة ، وزعموا أنه ولى الله وصفه ، وأنه شبيه بالملك ، وأنه أرفع طبقة من البشر ، وينضمون له ، ويدلون غاية الذل . ويعدون أنفسهم أشقياء بالإضافة إليه .

والسبب في ذلك : هو أنهم : وإن كانوا من أفن الرأي <sup>(١)</sup> وسفاهته :  
على ما ترى .

فإن فيهم من تلك القوة الأخرى السكريمة ، المميزة : وإن كانت ضعيفة ما يريهم فضيلة  
ذوى الفضائل ، فيضطرون إلى إكرامهم وتعظيمهم .

## قوى النفس الثلاث

وإذا كانت القوى ثلاثاً ، كما قلنا مراراً : فأدونها النفس البهيمية ، وأوسطها النفس  
السبعية <sup>(٢)</sup> ، وأشرها النفس الناطقة .

والإنسان إنما صار إنساناً : بأفضل هذه النفوس ، أعنى الناطقة ، وبها شارك  
الملائكة ، وبها باين البهائم .

فأشرف الناس : من كان حظه من هذه النفس : أكثر ، والصرافه إليها أتم وأوفر .  
ومن غلبت عليه إحدى النفسين الأخرين : انحط عن مرتبة الإنسانية : بحسب غلبة  
تلك النفس عليه .

فالظر رحلك الله : أين تضع نفسك ؟ وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها  
الله تعالى الموجودات ؟

فإن هذا أمر موكل إليك ، ومردود إلى اختيارك .

فإن شئت فانزل في منازل البهائم : فإنك تكون منهم .

وإن شئت فانزل في منازل السباع .

( ١ ) أفن الرجل : أقص عقله . فهو ما فؤد .

( ٢ ) السبعية : نسبة إلى السبع : في سرعة غضبه ، وشدة فتكه .

وإن شئت فانزل في منازل الملائكة وكن منهم .

وفي كل واحدة من هذه المراتب : مقامات كثيرة .

فإن بعض البهائم : أشرف من بعض ، وذلك لقبول التأديب : لأن الفرس إنما شرف عن الحمار : لقبوله الأدب .

وكذلك في البازي<sup>(١)</sup> فضيلة على الغراب .

وإذا تأملت الحيوان كله : وجدت القابل للتأديب ، الذي هو أثر النطق . أعنى النفس الناطقة : أفضل من سائر ، وهو يتدرج في ذلك إلى أن يصير إلى الحيوان الذي هو في أفق الإنسان .

أعنى الذي هو أكل البهائم : وهو في أخس مرتبة الإنسانية .

وذلك أن أخس الناس : هو من كان قليل العقل ، قريباً من البهيمية ، وهم القوم الذين في أقاصى الأرض المعمورة ، وسكان آخر ناحية الجنوب والشمال : لا ينفصلون عن القردة إلا بشئ قليل من التمييز .

وبذلك القدر يستحقون اسم الإنسانية ، ثم يتميزون ويتزايدون في هذا المعنى : حتى يبلغوا إلى وسط الأقاليم ، ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة العقل : فيصير فيهم العاقل التام ، والمميز العالم .

ثم يتفاضلون في هذا المعنى أيضاً : إلى أن يصيروا إلى غاية ما يمكن للإنسان أن يبلغ إليه : من قبول قوة العقل والنطق ، فيصير حينئذ في الأفق : الذي بين الإنسان والملك . ويصير فيهم القابل للوحى ، والمطبق لحل الحسكة : فتفيض عليه قوة العقل ، ويسيح إليه نور الحق .

ولا حالة للإنسان : أعلى من هذه مادام إنساناً .

---

( ١ ) البازي : نوع من الصقور : يتخذ للصيد .

ثم ارجع القهقري إلى النظر في الرتبة الناقصة : التي هي أدون مراتب الإنسان : فإنك تجد القوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة ، وهم القوم الذين ذكرنا أنهم في أفق البهائم : تقوى فيهم النفس البهيمية : فيميلون إلى شهواتها المأخوذة بالحواس : كالسأ كول ، والمشروب ، والملبوس ، وسائر النزوات الشبيهة بها .

وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية : حتى يرتكبوها ، ولا يرتدعوا عنها .

وبقدر ما يكون فيهم من القوة العافلة : يستحيون منها : حتى يستتروا بالبيوت ، ويتواروا بالظلمات : إذا هموا بلذة تخصمهم . وهذا الحياء منهم : هو الدليل على قبحها .

فإن الجليل بالإطلاق : هو الذي يتظاهر به ، ويستحب إخراجه وإذاعته .

وهذا القبح : ليس بشيء أكثر من النقائص اللازمة للبشر ، وهي التي يشناقون إلى إزالتها ، وأخفها : هو أنقصها . وأنقصها : أحوجها إلى الستر والدفن .

ولو سألت القوم : الذين يعظمون أمر اللذة ، ويجعلونها الخير المطلوب ، والغاية الانسانية : لم تكتفون الوصول إلى أعظم الخيرات عندكم ؟ وما بالكم تعدون موافقتها خيراً ثم تسترونها ؟

أترون سترها وكتانها ، فضيلة ، ومروءة . وإنسانية . والمجاهرة بها وإظهارها بين أهل الفضل ، وفي مجامع الناس : خساسة ، وقحة ؟

لظهر من انقطاعهم ، وتبلد في الجواب : ما تعلم به سوء مذهبهم ، وخبيث سيرتهم . وأقلهم حظاً من الانسانية : إذا رأى إنساناً فاضلاً احتشمه ، ووقره ، وأحب أن يكون مثله : إلا الشاذ منهم : الذي يبلغ من خساسة الطبع ، ونزارة الإنسانية ، ووقاحة الوجه : إلى أن يقيم على نصرة ما هو عليه : من غير محبة لرتبة من هو أفضل منه !

## الواجب على العاقل

فإذا : يجب على العاقل : أن يعرف ما ابتلى به الإنسان : من هذه النقائص :  
التي في جسمه ، وحاجاته الضرورية : إلى إزالتها وتكميلها . إما بالغذاء : الذي يحفظ به  
اعتدال مزاجه ، وقوام حياته : فينال منه قدر الضرورة في كماله ، ولا يطلب اللذة لعينها .  
بل قوام الحياة التي تتبعه اللذة .

فإن تجاوز ذلك قليلا : فبقدر ما يحفظ رتبته في مروته . ولا ينسب إلى الدناءة  
والبخل : بحسب حاله ومرتبته بين الناس .

وأما باللباس : فالذي يدفع به أذى الحر والبرد ، ويستر العورة .

فإن تجاوز ذلك : فبقدر ما لا يستحقر ، ولا ينسب إلى الشح على نفسه ، وإلى أن  
يسقط بين أقرانه ، وأهل طبقة .

وأما بالجراح : فالذي يحفظ نوعه ، ويتقى به صورته : أعنى طلب النسل .

فإن تجاوز ذلك : فبقدر ما لا يخرج به عن السنة ، ولا يتعدى ما يملكه إلى ما يملك  
غيره . ثم يلتمس الفضيلة في نفسه العاقلة : التي بها صار إنساناً ، وينظر إلى النقائص  
التي في هذه النفس خاصة : فيروم تكميلها بطاقته وجهده .

فإن هذه الخيرات : هي التي لا تستر . وإذا وصل إليها : لا يمنع عنها الحياء ،  
ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات . ويتظاهر بها أبدأً بين الناس ، وفي المحافل .  
وهي التي يكون بها بعض الناس أفضل من بعض ، وبعضهم : أكثر إنسانية من بعض .  
ويغزو هذه النفس : بغذاتها الموافق لها ، المتمم لنقصاتها . كما يغزو تلك بأغذيتها  
الملائمة لها .

فإن غذاء هذه : هو العلم ، والزيادة في المعقولات ، والارتياض بالصدق في الآراء ، وقبول الحق حيث كان ، ومع من كان ، والنفور من الكذب ، والباطل : كيف كان ، ومن أين جاء .

فمن اتفق له في الصبا أن يربى على أدب الشريعة ، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها : حتى يتعود .

ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق : حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين .

ثم ينظر في الحساب والهندسة : حتى يتعود صدق القول ، وصحة البرهان : فلا يسكن إلا إليها . ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم . حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الانسان ، فهو السعيد الكامل : فليكثر حمد الله تعالى : على الموهبة العظيمة ، والمنة الجسيمة !

ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوه ، ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش ، وقبول أكاذيبه ، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القباح ، ونيل اللذات . كما يوجد في شعر امرئ القيس ، والنايفة ، وأشباههما

ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء : يقرونه على روايتها ، وقول مثلها ، ويجزلون له العطية ، وامتنح بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسائية ، ومال طبعه إلى الاستكثار من المطاعم ، والملابس : والمراكب ، والزينة : وارتباط الخيل الفره<sup>(١)</sup> والعبيد الروقة<sup>(٢)</sup> ، كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الأوقات .

ثم انهمك فيها ، واشتغل بها عن السعادة : التي أهل لها .

---

( ١ ) ارتباط الخيل : أن يجعل لها رباطاً لتربيتها ورعايتها . والفره كركم : جمع فاره ، وهو الجميل الحسن .

( ٢ ) العبد الأروق : الذي حسنت أستانه ، وصفا خلقه ، وتجمع على روق ، وأريد به هنا : العبيد الحسنان ، غالبية الأتaman .



فليمد جميع ذلك شقاء لا نعيم . وخسراناً لا ربحاً .  
 وليجتهد على التدرج إلى فطام نفسه منها . وما أصعب ذلك ، إلا أنه على كل حال  
 خير من التمدى في الباطل .  
 وليعلم الناظر في هذا الكتاب : أنى خاصة تدرجت إلى فطام نفسه بعد الكبر ،  
 واستحكام العادة ، وجاهدتها جهاداً عظيماً .  
 ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل ، والطالب للأدب الحقيقي : بما  
 رضيت لنفسى .  
 بل تجاوزت لك في النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمرى : لتدرك  
 أنت ، ودلائك على طريق النجاة : قبل أن تقيه في مفاوز الضلالة ، وقدمت لك السفينة  
 قبل أن تغرق في بحر المهالك .  
 فافقه الله في نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد : استسلموا الحق ، وتأدبوا بالأدب  
 الحقيقي : لا المزور ، وغدوا الحكمة البالغة ، وانتهجوا الصراط المستقيم ، وتصوروا  
 حالات أنفسكم ، وتذكروا قوامها .  
 واعلموا أن أصبح مثل ضرب لكم من نفوسكم الثلاث التي مر ذكرها في المقالة  
 الأولى : مثل ثلاثة حيوانات مختلفة : جمعت في مكان واحد : ملك ، وسبع ، وخنزير :  
 فأياها غلب بقوته قوة الباقيين كان الحكم له .  
 وليعلم من تصور هذا المثال : أن النفس لما كانت جوهرأ غير جسم ، ولا شيء فيها  
 من قوى الجسم وأعراضه ، كما بينا ذلك في صدر هذا الكتاب : كان اتحادها واتصالها  
 بخلاف اتحاد الأجسام واتصال بعضها ببعض .

## النفوس الثلاث

وذلك أن هذه النفوس الثلاث : إذا اتصلت : صارت شيئاً واحداً .

ومع أنها تكون شيئاً واحداً : فهي باقية التغاير ، وباقية القوى : تنور الواحدة بعد الواحدة : حتى كأنها لم تنصل بالآخرى ، ولم تتحد بها ، وتستجدي أيضاً الواحدة للآخرى : حتى كأنها موجودة ولا قوة لها ، تنفرد بها .

وذلك أن اتحادها ليس بأن تنصل نهايتها ، ولا بأن تتلاقى سطوحها ، كما يكون ذلك في الأجسام : بل تصير في بعض الأحوال شيئاً واحداً ، وفي بعض الأحوال أشياء مختلفة ، بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن .

ولذلك قال قوم : إن النفس واحدة : ولها قوى كثيرة .

وقال آخرون : بل هي واحدة بالذات ، كثيرة بالعرض وبالموضوع ، وهذا شيء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب ، وسيمر بك في موضعه ، وليس يضرك في هذا الوقت : أن تعتقد أي هذه الآراء شئت ، بعد أن تعلم أن بعض هذه كريمة أدبية بالطبع ، وبعضها مهينة عادية للأدب بالطبع ، وليس فيها استعداد لقبول الأدب ، وبعضها عادية للأدب ، إلا أنها تقبل التأديب ، وتنقاد للتي هي أدبية .

أما الكريمة الأدبية بالطبع : فالنفس الناطقة .

وأما العادية للأدب : وهي مع ذلك غير قابلة له : فهي النفس البهيمية .

وأما التي عدمت الأدب ، ولكنها تقبله ، وتنقاد له : فهي النفس الغضبية .

ولنما وهب الله تعالى لنا هذه النفس خاصة : لمستعين بها على تقويم البهيمية

التي لا تقبل الأدب .

وقد شبه القدماء : الإنسان وحاله في هذه الأنفس الثلاث : بإنسان راكب دابة قوية : يتوحد كلباً ، أو فهداً للقنص . فإن كان الإنسان من بينهم : هو الذى يروض دابته و كلبه : يصرفهما ويطييعانه في سيره ، وتصيده ، وسائر تصرفاته : فلا شك في رغد العيش المشترك بين الثلاثة ، وحسن أحواله : لأن الإنسان يكون مرفهاً في مطالبه : يجرى فرسه حيث يحب ، وكما يحب ، ويطلق كلبه أيضاً كذلك ، فإذا نزل واستراح : أراحهما معه ، وأحسن القيام عليهما : في المطعم ، والمشرب ، وكفاية الأعداء ، وغير ذلك من مصالحهما .

وإذا كانت البهيمية هي الغالبة : ساءت حال الثلاثة ، وكان الإنسان مضمواً عندهما : فلم تقطع فارسها وغلبت .

فإن رأت عشياً من بعيد : عدت نحوه ، وتمسقت في عدوها ، وعدلت عن الطريق النهج : فاعترضتها الأودية ، والوهاد ، والشوك ، والشجر : فتقحمتها ، وتورطت فيها ، ولحق فارسها ما يلحق مثله في هذه الأحوال ، فيصيدهم جميعاً من أنواع المسكاره ، والاشراف على الهلكة : ما لا خفاء فيه .

وكذلك إن قوى الكلب : لم يطع صاحبه : فإن رأى من بعيد صيداً ، أو ما يظنه صيداً أخذ نحوه : لجذب الفارس وفرسه ، ولحق الجميع من الضرر والضرر أضعاف ما ذكرناه .

وفي تصور هذا المثل الذى ضرب به القدماء : تنبيه على حال هذه النفوس ، ودلالة على ما وهبه الله عز وجل للإنسان ، ومكنه منه ، وعرضه له ، وما يضيقه بعضيان بحالقه تعالى فيه : عند إهمال السياسة ، واتباعه أمر هاتين القوتين ، وتمبده لهما ، وهما اللذان ينبغى أن يتبعاه بتأمره عليهما ، فن أسوأ حالا من أهمل سياسة الله عز وجل ، وضع نعمته عليه ، وترك هذه القوى فيه : هاتجة ، مضطربة : تتغالب ، وصار الرئيس منها مرقوسا ، والمملك منها مستعبداً : يتقلب معها في المهالك : حتى تتمزق ، ويتمزق معها هو أيضاً .

نعوذ بالله من الانتكاس في الخلق : الذي سببه طاعة الشيطان ، واتباع الآبالية :  
فليست الإشارة بها إلى غير هذه القوى التي وصفناها ووصفنا أحوالها .  
فسأل الله تعالى عصمته : ومعونته على تهذيب هذه النفوس : حتى ننتهي فيها إلى  
طاعة الله : التي هي نهاية مصالحنا ، وبها نجاتنا وخلاصنا : إلى الفوز الأكبر ،  
والنعم السرمدي !

## سياسة النفس العاقلة

وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة ، وترك سلطان الشهوة ، يستولى عليها :  
برجل معه ياقوتة حراء شريفة : لا قيمة لها من الذهب والفضة : جلالة ونفاسة .  
وكان بين يديه نار تضطرم : فرماها في حباها<sup>(١)</sup> : حتى صارت كلساً<sup>(٢)</sup> : لا منفعة  
فيها فخرت : ففخر ضروب منافعها .

فقد علمنا الآن : أن النفس العاقلة : إذا عرفت شرف نفسها ، وأحسست بمرتبتها  
من الله عز وجل : أحسنت خلافته في تربية هذه القوى وسياستها ، ونهضت بالقوة التي  
أعطاه الله تعالى : إلى علمها من كرامة الله تعالى ، ومنزلتها من العلو والشرف ، ولم تخضع  
للسبعية<sup>(٣)</sup> ، ولا البهيمية .

بل تقوم النفس الغضبية التي سميها سبعية : وتقودها إلى الأدب : بحملها على حسن  
طاعتها . ثم تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية ، وحركتها إلى الشهوات : حتى  
يقمع بهذه سلطان تلك ، وتستخدمها في تأديبها ، وتستعين بقوة هذه على تأييد تلك .  
وذلك أن هذه النفس الغضبية : قابلة للأدب ، قوية على قمع الأخرى كما قلنا .

( ١ ) الجاحب : الشرور الذي يطاير من النار المغليمة .

( ٢ ) الكلس : هو المسادة التي تثبق من الحجارة بعد حرقها ، وضياح خصائصها .

( ٣ ) السبعية : نسبة إلى السبع ، في سرعة غضبه ، وشدة بطشه .

وتلك النفس البهيمية : عادمة للأدب ، غير قابلة له .

وأما النفس الناطمة أعنى العاقلة ، فهي كما قال أفلاطون بهذه الالفاظ : أما هذه فيمنزلة المذهب في الدين والانعطاف .

وأما تلك فيمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع .

فإن أنت آثرت الفعل الجميل : في وقت ، وجاذبتك القوة الأخرى إلى اللذة ، وإلى خلاف ما آثرت : فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج : بالأنفة والحمية ، وافهر بها للنفس البهيمية .

فإن غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت : فأنت في طريق الصلاح : فتمسك عزيزتك ، واحذر أن تعاودك بالطمع فيك ، والغلبة لك .

فإن لم تفعل ذلك ، ولم تكن العقبي في الغلبة لك : كنت كما قال الحكيم الأول :

لأنى أرى أكثر الناس يدعون محبة الأفعال الجميلة ، ثم لا يحتملون المؤنة فيها على علمهم بفضلها : فيغلبهم الترفه ، ومحبة البطالة . فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الأفعال الجميلة فرق ، إذا لم يحتملوا مؤنة الصبر ، ويصبروا إلى تعلم تمام ما أثروه وعرفوا فضله .

واذكر مثل البئر التي تردى فيها الأعمى والبصير : فيكونان في الهلكة سواء : إلا أن الأعمى أعذر .

ومن وصل من هذه الآداب إلى مرتبة يعتد بها ، واكتسب بها الفضائل التي عددناها : فقد وجب عليه تأديب غيره ، وإفاضة ما أعطاه الله على أبنائه جنسه !

# فصلك في تأويب الأحداث والصبيان خاصة

(نقلت أكثره من كتاب بروسن)

قد قلنا فيما تقدم : إن أول قوة تظهر في الإنسان ، وأول ما يشكون : هي القوة التي يشتاق بها إلى الغذاء ، الذي هو سبب كونه حياً ، فيتحرك بالطبع إلى اللبن : يلتصقه من الثدي الذي هو معدنه ، من غير تعليم ، ولا توقيف ، أو يحدث له مع ذلك قوة على التماسه : بالصوت الذي هو مادته ، ودليله الذي يدل به على اللذة والأذى .

ثم تزايد فيه هذه القوة ، ويتشوق بها أبداً إلى الازدياد ، والنصرف بها في أنواع الشهوات .

ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها : بالآلات التي تخلق له الشوق إلى الأفعال التي تحصل له هذه .

ثم يحدث له من الحواس : قوة على تخيل الأمور ، ويرسم في قوته الخيالية : مثالات فيتشوق إليها .

ثم تظهر فيه قوة الغضب : التي يشتاق بها إلى دفع ما يؤذيه ، ومقاومة ما يمنعه من منافعه .

فإن أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته : انتقم منها ، وإلا التمس معونة غيره : وانتصر بوالديه : بالتصويت والبكاء .

ثم يحدث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة : أولاً أولاً حتى يصير إلى كماله في هذا التمييز ، فيسمى حينئذ : عاقلاً .

وهذه القوى كثيرة ، وبعضها ضرورى في وجود الآخر . .  
الآخيرة . وهى التى لا تراد لغاية أخرى . وهو الخير المطلق  
حيث هو إنسان .

فأول ما يحدث فيه من هذه القوة : الحياء ، وهو الخوف من ظهور شو  
ولذلك قلنا : إن أول ما ينبغى أن يتفكر فى الصبي ، ويستدل به على عقلا  
فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به هو : يحذره ويتجنبه  
أن يظهر منه أو فيه .

فاذا نظرت إلى الصبي : فوجدته مستحيماً ، مطرقاً بطرفه إلى الأرض ،  
الوجه ، ولا يحدق إليك : فهو أول دليل نجابته ، والشاهد لك أن نفسه قد أحس  
والقبيح ، وأن حيائه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه ، وهذا ليس بشئ  
من إيثار الجليل ، والحرب من القبيح : بالتمييز والعقل ، وهذه النفس مستعدة للـ  
صالحة للعناية : لا يجب أن تهمل ، ولا تترك .

ومخالطة الأصدقاء الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة .

وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة : فإن نفس الصبي ساذج  
لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ، ولا عزيمة : تميلها من شئ إلى شئ .

فاذا نقشت بصورة وقبلتها : نشأ عليها واعتادها .

فالأولى بمثل هذه النفس : أن تنزه أبدأ على حب الكرامة ، ولا سيما ما يحصل له منها  
بالدين دون المال ، وبالأزوم سننه ووظائفه .

ثم يمدح الآخيار عنده ، ويمدح هو فى نفسه : إذا ظهر شئ جميل منه .  
ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه .

ويؤاخذ بأشتهائه للمآ كل ، والمشارب ، والملابس الفاخرة ، ويزين عنده خلق  
النفس ، والترفع عن الحرص في المآ كل خاصة ، وفي اللذات عامة .  
ويحبب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء ، والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد  
في التماسه .

## الملابس

ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة : النساء ، اللاتي يزين للرجال ،  
ثم العبيد والخول<sup>(١)</sup> .  
وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس : البياض ، وما أشبهه : حتى يترقى  
على ذلك ، ويسمعه كل من يقرب منه ، ويتكرر عليه ، ولم يترك مخالطة من يسمع منه  
ضد ما ذكرته : لا سيما من أتراه ، ومن كان في مثل سنه : بمن يعاشره ويلاعبه .  
وذلك أن الصبي في ابتداء نشوه ، يكون على الأكثر : قبيح الافعال : إما كلها ،  
وإما أكثرها : فإنه يكون كذوباً ، ويخبر ويحكي : ما لم يسمعه ولم يره ، ويكون حسوداً ،  
سرواقاً ، نماماً ، لجوجاً : ذا فضول : أضر شيء بنفسه ، وبكل أمر يلاعبه .  
ثم لا يزال به التأديب ، والسنن ، والتجارب : حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال .  
فلذلك ينبغي أن يؤخذ ما دام طفلاً : بما ذكرناه ، ونذكره : ثم يطالب بحفظ  
محاسن الاخبار ، والاشعار : التي تجري مجرى ما تعود به بالادب : حتى يتأكد عنده ،  
بروايتها وحفظها ، والمذاكرة بها ، جميع ما قدمنا .

( ١ ) الخول : العبيد والإماء .



ويحذر النظر في الأشعار السخيفة ، وما فيها من ذكر المشق وأهله ، وما يومه أصحابها : أنه ضرب من الظرف ، ورقة الطبع : فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً .

ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل ، وفعل حسن ، ويكرم عليه .

فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته . فالأولى أن لا يوبخ عليه ، ولا يكشف بأنه أقدم عليه : بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ، ولا هم به : لا سيما إن ستره الصبي ، واجتهد في أن يخفي ما فعله عن الناس .

فإن عاد فليوبخ عليه سرّاً<sup>(١)</sup> وليعظم عنده ما أتاه : ويحذر من معاودته .

فإنك إن عودته التوبيخ ، والمكاشفة : حملته على الوقاحة ، وحرخته على معاودة ما كان استقبحه ، وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات : التي تدعو إليها نفسه ، وهذه اللذات كثيرة جداً !

## آدابُ المطاعِم

والذي ينبغي أن يبدأ به في تقويمها ، آداب المطاعِم : فيفهم أولاً : أنها إنما تراد للصحة ، لا للذة ، وأن الأغذية كلها ، إنما خلقت ، وأعدت لنا : لتصح بها أبداننا ، وتصير مادة حياتنا ، فهي تجري مجرى الأدوية ، لينتدأى بها الجوع ، والالم الحادث منه .

فكما أن الدواء : لا يرام للذة ، ولا يستكثر منه الشهوة ، فكذلك الأطعمة ، لا ينبغي أن يتناول منها إلا ما يحفظ صحة البدن ، ويدفع ألم الجوع ، ويمنع من المرض : فيحقر

( ١ ) قال الشاعر :

نعمدني بنصحك : في المفردى      وجنبني النصيحة : في الجماعه  
فإن النصيح بين الناس : نوع      من التوبيخ : لا أرضى استماعه

عنده قدر الطعام : الذى يستعظمه أهل الشره ، ويقبح عنده صورة من شره إليه ، وينال منه فوق حاجة يده ، أو ما لا يوافقه : حتى يقتصر على لون واحد <sup>(١)</sup> .

ولا يرغب فى الألوان الكثيرة .

وإذا جلس مع غيره : لا يبادر إلى الطعام ، ولا يديم النظر إلى ألوانه ، ولا يحرق إليه شديداً ، ويقتصر على ما يليه ، ولا يسرع فى الأكل ، ولا يوالى بين اللقم بسرعة ، ولا يعظم اللقمة ، ولا يبتلعها : حتى يجيد مضغها ، ولا يلطخ يده ، ولا ثوبه ، ولا يلحظ من يواكله ، ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام .

ويعود أن يؤثر غيره بما يليه : إن كان أفضل ما عنده .

ثم بضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه ، ويأكل الخبز القفار : الذى لا آدم معه فى بعض الأوقات .

وهذه الآداب : وإن كانت جميلة بالفقراء : فهى بالأغنياء أفضل وأجمل .

وينبغى أن يستوفى غذاءه بالعشى ، فإن استوفاه بالنهار : كسل ، واحتاج إلى النوم ، وتباعد فهمه مع ذلك .

وإن منع اللحم فى أكثر أوقاته : كان أنفع له وقماً : فى الحركة والتهيض ، وقلة البلادة ، وبعثه على النشاط والخفة .

وأما الخلواء والفاكهة : فينبغى أن يمتنع منها ألبتة إن أمكن ، وإلا فليتناول أقل ما يمكن : فإنها تستحيل فى بدنه : فتكثر انحلاله ، وتعوده مع ذلك على الشره ، ومحبة الاستكثار من المأكول .

ويعود أن لا يشرب فى خلال طعامه الماء .

فأما النبيذ وأصناف الأبربة المسكرة : فإياها وإياها ، فإنها تضره فى بدنه ونفسه ، وتحمله على سرعة الغضب ، والتهور ، والإفدام على القبايح ، والقحة ، وسائر الخلال المذمومة .

( ١ ) قال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .

## آداب متنوعة

ولا ينبغي أن يحضر مجالس أهل الشرب ، إلا أن يكون أهل المجالس : أدباء فضلاء <sup>(١)</sup> .

وأما غيرهم فلا ، لئلا يسمع الكلام القبيح ، والسخافات التي تجري فيه .

وينبغي أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الأدب التي يتعلمها ، ويتعب تعباً كافياً .

وينبغي أن يمنع من كل فعل : يستره ويخفيه .

فإنه ليس يخفي شيئاً ، إلا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح .

ويمنع من النوم الكثير : فإنه يقبحه ، ويفلظ ذهنه ، ويميت خاطره : هذا بالليل ، فأما بالنهار ، فلا ينبغي أن يتعوده البتة .

ويمنع أيضاً من الفراش الوطى ، وجميع أنواع الترفه : حتى يصلب بدنه ، ويتعود الخشونة ، ولا يتعود الخيش <sup>(٢)</sup> ، والأسراب <sup>(٣)</sup> في الصيف ، ولا الأوبار والنيران : في الشتاء ، للأسباب التي ذكرناها .

ويعود المشي ، والحركة ، والركوب ، والرياضة : حتى لا يتعود أضعافها .

---

( ١ ) وأين الأدب والفضل : عند من أساء الأدب مع الله : الذي خافه وسواه ، ومن الشرب : منه ونهائه !

بل الواجب أن يمتنع عن مجالس الشرب البتة . فشاهد القهار لا بد أن يصبر لاهباً ، وشاهد الشرب لا بد أن يصبر - يوماً ما - شارباً ، وكل قرين بالمقارن يقتدى .

( ٢ ) الخيش : ثياب تتخذ من الكتان ، أو هو ثياب خفيفة بالقصب .

( ٣ ) الأسراب : لم نجد في كتب اللغة ما يدل عليه ، ولعله ثياب رقيقة : تلبس في الصيف . أو ثوب محل بالخرز ، وكل هذه المعاني محتملها الكلمة .

ويعود المشى : أن لا يكشف أطرافه ، ولا يسرع فى المشى ، ولا يرعى يديه ، بل يضمهما إلى صدره ، ولا يربى شعره ، ولا يزين بملايس النساء ، ولا يلبس خاتماً إلا وقت حاجته إليه ، ولا يفتخر على أقرانه ، بشئ مما يملكه والداه ، من مآكله وملابسه ، وما يجرى بهراه ، ولا يشين<sup>(١)</sup> : بل يتواضع لكل أحد ، ويكرم كل من عاشره .

ولا يتوصل بشرف : إن كان له ، أو سلطان من أهله : إن اتفق إلى غضب من هو دونه : أو استهزاء من لا يمكنه أن يرده عن هواه ، أو تطاوله عليه .  
كن اتفق له أن كان خاله وزيراً أو عمه سلطاناً : فتطرق به إلى هزيمة أقرانه ، وسلم لإخوانه<sup>(٢)</sup> ، واستباحة أموال جيرانه ومعارفه .

وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجالسه ، ولا يتمنخط ، ولا يتشاءب بمحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ، ولا يعمد رأسه بيديه : فإن هذا دليل الكسل ، وأنه قد بالغ به التقيج إلى أن لا يحمل رأسه . حتى يستعين بيده .

ويعود أن لا يكذب ، ولا يحلف البتة : لا صادقاً ، ولا كاذباً ، فإن هذا قبيح بالرجال : مع الحاجة إليه فى بعض الاوقات .

فأما الصبي : فلا حاجة به إلى اليمين .

ويعود أيضاً قلة الكلام : فلا يتكلم إلا جواباً .

وإذا حضر من هو أكبر منه : اشتغل بالاستماع منه ، والصمت له .

ويمنع من خبيث الكلام ، وهجينه<sup>(٣)</sup> ، ومن السب ، واللعن ، ولغو القول .

ويعود حسن الكلام وظريفه ، وجميل اللقاء وكريمه ، ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره .

( ١ ) الشين : العيب والقيح ، وهو ضد الزين . ومن الشين : أن يكون غليظاً متكبراً .

( ٢ ) أراد بسلم إخوانه : خذلانهم ، وإحلامهم ، وتركهم لعدوهم .

( ٣ ) هجين الكلام : سيؤه ، وأرذله .

ويعود خدمة نفسه ، ومعلمه ، وكل من كان أكبر منه .  
 وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب : أولاد الأغنياء والمترفين .  
 وينبغي : إذا ضربه المعلم : أن لا يصرخ ، ولا يستشفع بأحد . فإن هذا فعل المماليك ،  
 ومن هو خوار ضعيف .  
 ولا يعير أحداً إلا بالقبيح ، والسيء من الأدب .  
 ويعود أن لا يوحش الصبيان : بل يبرهم ، ويكافئهم على الجميل : بأكثر منه : لئلا  
 يعود الرج على الصبيان وعلى الصديق .  
 ويبغض إليه الفضة والذهب ، ويحذر منها : أكثر من تحذير السباع والحيات  
 والعقارب والأفاعي .  
 فإن حب الفضة والذهب : آفته أكثر من آفات السموم .  
 وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات : أن يلعب لعباً جميلاً : ليستريح إليه من  
 تعب الأدب .  
 ولا يكون في لعبه : ألم ولا تعب شديد .  
 ويعود طاعة والديه ، ومعلميه ، ومؤدبيه .  
 وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، ويهابهم .  
 وهذه الآداب النافعة للصبيان : هي للكبار من الناس أيضاً نافعة ، ولكنها للأحداث  
 أنفع : لأنها تعودهم بحبة الفضائل ، وينشأون عليها : فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل .  
 ويهيل عليهم بعد ذلك : جميع ما ترسمه الحكمة ، وتحده الشريعة والسنة .  
 ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة ، وتمكفهم عن الانهماك  
 في شيء منها ، والفكر الكثير فيها ، وتسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية ، وترقيهم إلى معالي  
 الأمور التي وصفناها في أول الكتاب : من التقرب إلى الله عز وجل ، وبجاورة الملائكة :

مع حسن الحال في الدنيا ، وطيب العيش ، وجميل الاحدوثة ، وقلة الاعداء ، وكثرة المداح ، والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة .

فاذا تجاوز هذه الرتبة ، وبلغ أيامه إلى أن يفهم أغراض الناس ، وعواقب الأمور : فهم أن الغرض الأخير من هذه الأشياء : التي يقصدها الناس ، ويحرصون عليها : من الثروة ، واقتناء الضياع ، والعبيد ، والخييل ، والفرش ، وأشياء ذلك : إنما هو لترفيه البدن وحفظ الصحة .

وأن يبقى على اعتداله مدة ما .

وأن لا يقع في الأغراض ، ولا تفجأه المشية .

وأن يهنا بنعمة الله عليه ، ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية .

وأن اللذات كلها في الحقيقة : هي خلاص من آلام وراحات من تعب .

فاذا عرف ذلك وتحققه ، ثم تعود بالسيرة الدائمة ، وعود الرياضيات : التي تحرك الحرارة الفريزية ، وتحفظ الصحة ، وتنفي الكسل ، وتطرد الباردة ، وتبعث النشاط ، وتذكي النفس .

فمن كان بمولا مترفاً : كانت هذه الأشياء التي رسمتها أصعب عليه ، لكثرة من يحتف به ، ويفويه ، ولموافقة طبيعة الإنسان في أول ما تنشأ هذه اللذات ، وإجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منها . وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم .

فأما الفقراء : فالامر عليهم أسهل ، بل هم قريبون إلى الفضائل ، قادرون عليها ، متمكنون من نياتها والإصابة منها .

وحال المتوسطين من الناس : متوسطة بين هاتين الحالتين .

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء : لا يربون أولادهم بين حشمهم ، وخواصهم : خوفاً عليهم من الاحوال التي ذكرناها ، ومن سماع ما حذرت منه . وكانوا يتفدونهم مع مقامهم إلى النواحي البعيدة منهم .

وكان يتولى تربيتهم : أهل الجفاء ، وخشونة العيش ، ومن لا يعرف التمتع ، ولا الترفه ، وأخبارهم في ذلك مشهورة .

وكثير من رؤسائهم في زماننا هذا : ينقلون أولادهم عند ما ينشأون : إلى بلادهم ليتعودوا بها هذه الأخلاق ، ويبعدوا عن عادات أهل البلدان الرديئة .

وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة ، في تأديب الأحداث : فقد عرفت أضرارها .

أعني أن من نشأ على خلاف هذا المذهب من التأديب : لم يرج فلاحه ، ولا ينبغي أن يشتغل بصلاحه وتقويمه : فإنه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي : الذي لا يطمع في رياضته . فإن نفسه العاقلة : تصير خادمة لنفسه البهيمية ، ولنفسه الغضبية : فهي منهكة في مطالبتها من الزوات .

وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية : التي لا تقبل التأديب ، كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها ، وأمعن قليلا في السن .

الهم إلا أن يكون في جميع أحواله : عالماً بقبح سيرته ، ذاماً لها ، عائباً على نفسه ، حازماً على الإفلاع والإقامة .

فإن مثل هذا الإنسان : من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج ، والرجوع إلى الطريقة المثلى : بالتوبة ، وبمصاحبة الأخيار ، وأهل الحكمة ، وبالإكباب على التفلسف .

وإذ قد ذكرنا الخلق المحمود ، وما ينبغي أن يؤخذ به الأحداث والصبيان : فنحن واصفون جميع القوى التي تحدث للحيوان أولاً وأولاً إلى أن ينتهي إلى أقصى الكمال في الإنسانية .

فإنك شديد الحاجة إلى معرفة ذلك : لتبتدىء على الترتيب الطبيعي في تقويم واحد منها فنقول :

## الأجسام الطبيعية

إن الأجسام الطبيعية كلها : تشترك في الحد الذي يعمها : ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة ، والصور التي تحدث فيها .

فإن الجاد منها : إذا قبل صورة مقبولة عند الناس : صار بها أفضل من الطينة الأولى : التي لا تقبل تلك الصورة .

فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات : صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجاد . وتلك الزيادة : هي الاعتناء ، والنمو ، والامتداد في الأفطار ، واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء ، وترك ما لا يوافقه ، ونفض الفضلات التي تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ<sup>(١)</sup> .

وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجاد ، وهي حال زائدة على الجسمية التي حددناها . وكانت حاصلة في الجاد .

وهذه الحالة الزائدة في النبات : التي شرف بها على الجاد تتفاضل . وذلك أن بعضه يفارق الجاد مفارقة يسيرة : كالمرجان وأشباهه . ثم يتدرج فيها : فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء : فبعضه ينبت من غير زرع ، ولا بذر ، ولا يحفظ نوعه بالبئر والبذر . ويكفيه في حدوثه : امتزاج العناصر ، وهبوب الرياح ، وطلوع الشمس . فذلك هو في أفق الجادات ، وقريب الحال منها . ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات : فيفضل بعضه على بعض : بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الإثمار ، وحفظ النوع بالبذر : الذي يخالف به مثله . فتصير هذه الحالة زائدة فيه ، وبميزة له عن حال ما قبله .

ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني : كفضل الثاني على الأول . ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض : حتى يبلغ إلى أفقه ، ويصير في أفق الحيوان :

---

الصموغ : جمع صمغ . وأريد بذلك : ما يخلف في الجسم من أذى الأمعاء الدسمة .



وهي كرام الشجر : كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه . إلا أنها بعد مختلطة القوى : أعنى أن قوى ذكورها وإناثها : غير متميزة . فهي تحمل وتلد المثل ، ولم تبلغ غاية أفعها الذي يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمن في هذا الأفق : إلى أن تصبح في أفق الحيوان : فلا تحتل زيادة . وذلك أنها إن قبلت زيادة يسيرة : صارت حيواناً ، وخرجت عن أفق النبات : فينشئ تتميز قواها ، ويحصل فيها ذكورة وأنوثة ، وتقبل من فضائل الحيوان : أموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر : كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها . ولم يبق بينه وبين الحيوان : إلا مرتبة واحدة : وهي الانفلاق من الأرض ، والسعى إلى الغذاء .

وقد روى في الخبر ما هو كالإشارة ، أو كالرمز إلى هذا المعنى . وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل : فإنها خلقت من بقية طينة آدم ، فإذا تحرك النبات ، وانقلع من أفعه ، وسعى إلى غذائه ، ولم يتقيد في موضعه : إلى أن يصير إليه غذاؤه : وكونت له آلات أخر : يتناول بها حاجاته : التي تسكله : فقد صار حيواناً .

وهذه الآلات تتزايد في الحيوان : من أول أفعه ، وتتفاضل فيه : فيشرب فيه بعضها على بعض . كما كان ذلك في النبات . فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة : حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة ، والأذى : فيلتمد بوصوله إلى منافع ، ويتألم بوصول مضاره إليه . ثم يقبل إلهام الله عز وجل إياه : فيتهدى إلى مصالحه : فيطلبها . وإلى أضراره : فيهرب منها .

وما كان من الحيوان في أول أفق النبات : فإنه لا يتزوج ، ولا يخلف المثل : بل يتولد : كالديدان ، والذباب ، وأصناف الحشرات الخسيسة .

ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة : كما كان في النبات سواء .

ثم تحدث فيه قوة الغضب : التي ينهض بها إلى دفع ما يؤذيها : فيعطى من السلاح بحسب قوته ، وما يطبق استعماله ، فإن كانت قوته الغضبية شديدة : كان سلاحه تاماً قوياً . وإن

كانت ناقصة : كان ناقصاً . وإن كانت ضعيفة جداً : لم يعط سلاح البتة . بل أعطى آلة الحرب : كشدة العدو ، والقدرة على الحيل : التي تنجيه من مخاوفه .

وأنت ترى ذلك عياناً من الحيوان : الذي أعطى القرون ، التي تجري له بجرى الرماح ، والذي أعطى الأنياب والمخالب : التي تجري له بجرى السكاكين والخناجر .

والذي أعطى آلة الرمي التي تجري له بجرى النبل والنشاب .

والذي أعطى الحوافر التي تجري له بجرى الدبوس والطبرزين <sup>(١)</sup> .

فأما ما لم يعط سلاحاً : لضعفه عن استعماله ، وقلته شجاعته ، ونقصان قوته النفسانية ، ولأنه لو أعطيه : لصار كلا عليه : فقد أعطى آلة الحرب ، والحيل : بجودة العدو ، والخفة ، والختل <sup>(٢)</sup> ، والمراوغة : كالآرانب وأشباهها .

وإذا تصفحت أحوال الموجودات : من السباع ، والوحش ، والطيور : رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين : لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين .

فأما الإنسان فقد عوض من هذه الآلات كلها : بأن هدى إلى استعمالها كلها ، وسخرت هذه كلها له ، وسنتكلم على ذلك في موضعه .

فأما أسباب هذه الأشياء كلها ، والشكوك التي تعترض في قصد بعضها بعضاً : بالتلف والأنواع من الأذى : فليس يليق بهذا الموضع ، وسأذكرها إن أقر الله في الآجل : عند بلوغنا إلى الموضع الخاص بها .

( ١ ) الطبرزين : فارسي معرب . وهو اسم آلة : تستعمل في الحروب : يعلقها الفارس بجانبه . وهي تشبه العأس . وتعرف - في العربية - بالطبر : يستعملها القصابون . وهي ما يسمونه بالساطور ( الشاطور ) أي الذي يشطر الأعم والمعظم وتسمى ( بلطة ) .

( ٢ ) الختل : المكسر ، والدعاء .

## مراتب الحيوان

ونعود إلى ذكر مراتب الحيوان فنقول : إن ما أهدى منها إلى الازدواج ، وطلب  
الفسل ، وحفظ الولد وتربته ، والإشفاق عليه ، بالسكن والعش واللباس . كما نشاهد  
فيما يلد ويبيض ، وتغذيته إما باللبن ، وإما بتقل الغذاء إليه : فإنه أفضل مما لا يهتدى  
إلى شيء منها .

ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوان : حتى يقرب من أفق الإنسان .  
حينئذ يقبل التأديب ، ويصير بقبوله للأدب : ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات .  
ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات ، حتى يشرف بها ضروب الشرف : كالفرس ،  
والبازي<sup>(١)</sup> المعلم .

ثم يصير من هذه المراتبة ، إلى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ،  
ويتشبه به من غير تعليم : كالفرده ، وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها : أن تستكني  
في التأديب : بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله ، من غير أن تحوج الإنسان إلى  
تعبها ، ورياضة لها .

وهذه غاية أفق الحيوان : التي إن تجاوزها ، وقبل زيادة يسيرة : خرج بها عن أفقه ،  
وصار في أفق الإنسان : الذي يقبل العقل ، والتمييز ، والنطق ، والآلات التي يستعملها ،  
والصور التي تلائمها .

فإذا بلغ هذه الرتبة : تحرك إلى المعارف ، واشتاق إلى العلوم ، وحدث له قوى ،  
ومسكات ، ومواهب من الله عز وجل : يقتدر بها على الترقى ، والإمعان في هذه الرتبة .  
كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها .

( ١ ) البازي : نوع من الصقور : يعلم ، ويتخذ للصيد .

وأول هذه المراتب من الأفق الإنساني : المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني : مراتب الناس : الذين يسكنون في أقاصى المعمورة : من الشمال والجنوب : كأواخر الترك ، من بلاد يأجوج ومأجوج ، وأواخر الزنج ، وأشباههم : من الأمم التي لا تميز عن القروء إلا بمرتبة يسيرة .

ثم تتزايد فيهم قوة التمييز ، والفهم : إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم ، فيحدث فيهم الذكاء ، وسرعة الفهم ، والقبول للفضائل .

وإلى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة : التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات .

ثم يستعمل بهذا القبول : لاكتساب الفضائل واقتنائها : بالإرادة ، والسعى ، والاجتهاد : الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه .

فإذا صار إلى آخر أفقه : اتصل بأول أفق الملائكة . وهذا أعلى مرتبة الإنسان . وعندها تتأحد الموجودات : ويتصل أولها بآخرها .

وهو الذى يسمى : دائرة الوجود . لأن الدائرة : هى التي قبل في حدها : إنها خط واحد : يبتدىء بالحركة من نقطة ، وينتهى إليها بعينها .

ودائرة الوجود : هى المتأحدة : التي جعلت الكثرة وحدة . وهى التي تدل دلالة صادقة برهانية : على موجدها ، وحكمتها ، وقدرته ، ووجوده : تبارك اسمه ، وتعالى جده ، وتقدس ذكره !

ولولا أن شرح هذا الموضوع : لا يليق بصناعة تهذيب الاخلاق : لشرحته ، وأنت تقف عليه إن بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله .

وإذا تصورت قدر ما أومأنا إليه ، وفهمته : اطلمت على الحالة التي خلقت ، وندبت إليها ، وعرفت الأفق الذى يتصل بأفقلك ، وتنقلك في مرتبة بعد مرتبة ، وركوبك طبقاً عن طبق ، وحدث لك الإيمان الصحيح ، وشهدت ما غاب من غيرك : من الدهماء . وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المسكونة : التي مبدؤها تعلم المنطق . فإنه الآلة في تقويم الفهم ، والعقل الغريزى .

ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطبائعها .

ثم التعلّق بها ، والتوسّع فيها ، والتوسّل منها إلى العلوم الإلهية .

وحينئذ تستعدّ لقبول مواهب الله عز وجل ، وعطاياه : فيأتيك الفيض الإلهي ؛ فتسكن عن قلق الطبيعة ، وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية ، وتلاحظ المرتبة التي ترقيت فيها أولاً فأولاً : من مراتب الموجودات .

وعلمت أن كل مرتبة منها : محتاجة إلى ما قبلها في وجودها .

وعلمت أن الإنسان ، لا يتم له كماله : إلا بعد أن يحصل له ما قبله .

ولإذا صار إنساناً كاملاً ، وبلغ غاية أفقه : أشرق نور الأفق الأعلى عليه : وصار إما حكماً تاماً تأتيه الإلهامات : فيما يتصرف فيه ، من المحاولات الحكيمة ، والتأيدات العلوّية في التصورات العقلية <sup>(١)</sup> .

ولما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضروب المنازل : التي تكون له عند الله تعالى ذكره .

فيكون حينئذ ، واسطة بين الملائ الأعلى ، والملائ الأسفل .

وذلك بتصوره حال الموجودات كلها : والحال التي ينتقل إليها من حال الإنسية ، ومطالعة الآفاق التي ذكرناها .

وحينئذ يفهم عن الله عز وجل قوله ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ) .

وتصور معنى قوله صلى الله عليه وسلم ( هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ) .

ولإذا بلغ هذا الكلام إلى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة : التي أهل الإنسان لها ،

ونسقنا أحواله التي يترقى فيها ، وأنه يكون أولاً بالشوق إلى المعارف والعلوم : فينبغي أن

نزيد في بيانه وشرحه فنقول :

( ١ ) جاء في الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه وتعالى « . . . وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ : مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سميته الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . . . »

# الشوق إلى المعارف والعلوم

إن هذا الشوق : ربما ساق الإنسان على منهج قويم ، وقصد صحيح : حتى ينتهي إلى غاية كماله ، وهي سعادته التامة .

وقلنا يتفق ذلك ، وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة : يطول ذكرها ، ولا حاجة بك إلى علها الآن وأنت في تهذيب خلقك .

فسكا أن الطبيعة : المدبرة للأجسام : ربما شوقت إلى ما ليس بتام للجسم الطبيعي ، لعل تحدث به ، وآفات تطرأ عليه : بمنزلة من يشاق إلى أكل الطين ، وما جرى مجراه : بما لا يكمل طبيعة الجسد ، بل يهدمه ويفسده .

كذلك أيضاً النفس الناطقة : ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذي لا يكملها ، ولا يشوقها نحو سعادتها ، بل يحركها إلى الأشياء التي تعوقها ، وتقتصر بها عن كمالها : فينتد محتاج إلى علاج نفسياني روحاني : كما احتاج في الحالة الأولى : إلى طب طبيعي جسماني .

ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين ، وإلى المؤدبين والمسددين . فإن وجود تلك الطبائع الفائقة التي تنساق بذاتها من غير توفيق إلى السعادة ، عسرة الوجود ، ولا توجد إلا في الأزمنة الطوال ، والمدد البعيدة .

وهذا الأدب الحق : الذي يؤدنا إلى غايتنا : يجب أن نلاحظ فيه : المبدأ الذي يجري مجرى الغاية : حتى إذا لحظت الغاية : تدرج منها إلى الأمور الطبيعية ، على طريق التحليل ، ثم يبتدىء من أسفل على طريق التركيب : فيسلك فيها إلى أن ينتهي إلى الغاية التي لحظت أولاً .

وهذا المعنى : هو الذي أحوجنا في هذا الكتاب ، وفي فصول آخر منه : أن نذكر أشياء طالية لا تليق بهذه الصناعة : ليتشوق إليها من يستحقها .

وليس يمكن الإنسان أن يشتاق إلى ما لا يعرفه البتة .  
 فإذا لحظها من فيه قبول لها ، وعناية بها : عرفها بعض المعرفة ، فتشوقها ، وسعى  
 نحوها ، واحتمل التعب والنصب فيها .  
 ويدبني أن يعلم أن كل إنسان : معد نحو فضيلة ما ، فهو إليها أقرب ، وبالوصول  
 إليها أخرى .  
 ولذلك لا تصير سعادة الواحد من الناس : غير سعادة الآخر : إلا من اتفق له نفس  
 صافية ، وطبيعة فائقة : فينتهي إلى غايات الآءور ، وإلى غاية غاياتها .  
 أعنى السعادة القصوى : التي لا . مادة بعدها

## الواجب على الحاكم

ولأجل ذلك : يجب على مدير المدن ، أن . ق كل إنسان نحو سعادته : التي تخصه .  
 ثم يقسم عنايته بالناس ، ولظفره لهم بقسمين :  
 أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم : بالعلوم الفكرية .  
 والآخر في تسديدهم نحو الصناعات ، والأعمال الحسية .  
 وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية : بدأ بهم من الغاية الأخيرة : على طريق التحليل ،  
 ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها .  
 وإذا سددهم نحو السعادة العملية : بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم إلى تلك الغاية .  
 ولما كان غرضنا في هذا الكتاب : السعادة الخلقية ، وأن تصدر عنا الأفعال كلها جميلة  
 كما رسمنا في صدر الكتاب وعملناه لمحي الفلسفة غاصة : لا للعوام ، وكان النظر يتقدم العمل :

وجب أن نذكر الخير المطلق ، والسعادة الإنسانية : لتلحظ الغاية الأخيرة ، ثم نطلب بالأفعال الإرادية التي ذكرنا جلها في المقالة الأولى .

وأرسطوطاليس إنما بدأ كتابه بهذا الموضوع ، وافتتحه بذكر الخير المطلق :  
ليعرف ويتشوق .

ونحن نذكر ما قاله ، ونلتبعه بما أخذناه أيضاً عنه في مواضع آخر : ليجتمع ما فرقه  
وإضيف إلى ذلك : ما أخذناه عن مفسري كتبه ، المنقلين لحكمته : فهو استطاعتنا ،  
واقفه الموفق المؤيد ؛ فإن الخير بيده وهو حسبنا ولعمركم الوكيل !

---



# المقالة الثالثة

---

## الخير والسعادة



## الفرق بين الخير والسعادة

نبدأ بمعونة الله تعالى في هذه المقالة : بذكر الفرق بين الخير والسعادة ، بعد أن نذكر ألفاظ أرسطوطاليس اقتداء به ، وتوفية لحقه فنقول :

إن الخير على ما حدده واستحسنه من آراء المتقدمين : هو المقصود من الكل ، وهو الغاية الأخيرة ، وقد يسمى الشيء النافع في هذه الغاية خيراً .

فأما السعادة : فهي الخير : بالإضافة إلى صاحبها ، وهي كمال له .

فالسعادة إذًا : خير ما ، وقد تكون سعادة الإنسان : غير سعادة الفرس ، وسعادة كل شيء في تمامه وكمال الذي يخصه .

فأما الخير الذي يقصده الكل ، بالشوق : فهو طبيعة تقصد ، ولها ذات : وهو الخير العام للناس : من حيث هم ناس ، فهم بأجمعهم مشتركون فيها .

فأما السعادة : فهي خير ما : لواحد واحد من الناس ، فهي إذًا بالإضافة : ليست لها ذات معينة ، وهي تختلف بالإضافة إلى قاصديها .

فلذلك يكون الخير المطلق : غير مختلف فيه .

وقد يظن بالسعادة : أنها تكون لغير الناطقين ، فإن كان ذلك : فإنما هي استعدادات فيها : لقبول تماماتها ، وكمالاتها : من غير قصد ، ولا روية ، ولا إرادة ، وتلك الاستعدادات : هي الشوق ، أو ما يجري مجرى الشوق من الناطقين بالإرادة .

فأما ما يتأتى للحيوانات : في مأكلها ، ومشربها ، وراحاتها : فينبغي أن يسمى بجهنًا ، أو اتفاقًا ، ولا يؤهل لاسم السعادة : كما يسمى في الإنسان أيضًا .

وإنما استحسن الحد الذي ذكرنا للخير المطلق : لأن العقل : لا يطلق السمي والحركة : إلا إلى نهاية ، وهذا أول في العقل .

ومثال ذلك : أن الصناعات ، والهمم ، والتدابير الاختيارية : كلها يقصد بها خير ما .  
وما لم يقصد به خير ما : فهو عبث ، والعقل يحظره ، ويمنع منه ، وبالواجب صار  
الخير المطلق : هو المقصود إليه من كل الناس .

ولكن بقي أن يعلم ما هو ؟ وما الغاية الأخيرة منه التي هي غاية الخيرات : التي ترقى  
الخيرات كلها إليها ؟ حتى نجعله غرضنا ، ونتوجه إليه ، ولا نلتفت إلى غيره ، ولا تنتشر  
أفكارنا في الخيرات الكثيرة التي تؤدي إليه : إما تأدية بعيدة ، وإما تأدية قريبة ،  
ولا نغفل أيضاً فيما ليس بخير : فنظنه خيراً . ثم نفق أعمارنا في طلبه ، والتعب به ،  
وكلنا سفينته بمشيئة الله تعالى وعونه !

## أقسام الخير

الخير على ما قسمه أرسطوطاليس<sup>(١)</sup> ، وحكاه عنه قرقوريوس وغيره . قال :  
الخيرات : منها ما هي شريفة ، ومنها ما هي ممدوحة ، ومنها ما هي بالقوة كذلك . وما هي  
نافعة فيها .

فالشريفة منها : هي التي شرفها من ذاتها ، وتجعل من اقتناها : شريفاً ، وهي  
الحسنة : والعقل .

والممدوحة منها : مثل الفضائل ، والأفعال الجميلة الإرادية ، والتي هي بالقوة مثل  
التيقن ، والاستعداد ، لنيل الأشياء التي تقدمت .

( ١ ) أرسطوطاليس : من أكابر فلاسفة اليونان ، ومن أعظم مفكرى العالم ، وقد كان  
مؤدباً للإسكندر ، وآيئنه : لا يحصى لها : في المنطق ، والطبيعات ، والإلهيات ، والأخلاق ، وما وراء  
الطبيعة ، وقد تأثر بآيئنه : مفكروا العرب وفلاسفتهم ، ومن أهم من نقل عنه : إسماعيل بن حنين .  
مؤسس مذهب المشائين .

والنافعة : هي جميع الأشياء : التي تطلب لذاتها ، بل ليتوصل بها إلى الخيرات .  
 وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هي غايات ، ومنها ما ليست بغايات ،  
 والغايات : منها ما هي تامة ، ومنها ما هي غير تامة . فالتى هي تامة : كالسعادة .  
 وذلك أنا إذا وصلنا إليها : لم نحتاج أن نستزيد لإيها بشيء آخر .  
 والتي هي غير تامة : فكالصحة ، واليسار . من قبيل أنا إذا وصلنا إليها : احتجنا أن  
 نستزيد فنتقتى أشياء أخرى .  
 وأما التي ليست بغاية البتة : فكالعلاج ، والتعلم ، والرياضة .  
 وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو مؤثر لأجل ذاته .  
 ومنها ما هو مؤثر لأجل غيره . ومنها ما هو مؤثر للأمرين جميعاً .  
 ومنها ما هو خارج عنهما .  
 وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو خير على الإطلاق .  
 ومنها ما هو خير عند الضرورة ، والاتفاقات : التي تتفق لبعض الناس ، وفي وقت  
 دون وقت .  
 وأيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ، ومن جميع الوجوه ، وفي جميع الأوقات .  
 ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ، ولا من جميع الوجوه .  
 وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها ما هو في الجوهر . ومنها ما هو في الكمية .  
 ومنها ما هو في الكيفية ، وفي سائر المقولات : كالفوى ، والمسلكات .  
 ومنها كالأحوال ، ومنها كالأفعال ، ومنها كالغايات . ومنها كالمواد . ومنها كالألات .  
 ووجود الخيرات في المقولات كلها : يكون على هذا المثال .  
 أما في الجهر أعنى ما ليس بمرض . فالله تبارك وتعالى : هو الخير الأول .  
 فإن جميع الأشياء : تتحرك نحره بالشوق إليه ١ ولأن مآل الخيرات الإلهية : من  
 البقاء ، والسرمدية ، والتمام منه .

— ٩٠ —

- وأما في السكينة : فالعدد المعتدل ، والمقدار المعتدل . وأما في الكيفية : فكالذات .  
 وأما في الإضافة : فكالصدقات والرياسات .  
 وأما في الآين والتمق : فكالمكان المعتدل ، والزمان الأنيق البهيج .  
 وأما في الموضع : فكالقعود ، والاضطجاع ، والاتكاء الموافق .  
 وأما في الملك : فكالأموال ، والمنافع .  
 وأما في الانفعال : فكالسباح الطيب ، وسائر المحسوسات المؤثرة .  
 وأما في الفعل : فكتفاد الأمر ، ورواج الفعل .  
 وعلى جهة أخرى : الخيرات : منها معقولات ، ومنها محسوسات .

## السَّعَادَة

- وأما السعادة ، فقد قلنا : إنها خير ما ، وهي تمام الخيرات وغاياتها ، والتمام : هو الذي إذا بلغنا إليه : لم نحتاج معه إلى شيء آخر .  
 فلذلك نقول : إن السعادة : هي أفضل الخيرات . ولكننا نحتاج في هذا التمام الذي هو الغاية القصوى : إلى سعادات أخرى ، وهي التي في البدن ، والتي خارج البدن .  
 وأرسطوطاليس<sup>(١)</sup> يقول : إنه يعسر على الإنسان أن يفعل الأفعال الشريفة بلا مادة . مثل اتساع اليد ، وكثرة الأصدقاء ، وجودة البخت .  
 قال : ولهذا ما احتاجت الحكمة إلى صناعة المال : في إظهار شرفها .  
 قال : ولهذا قلنا : إن كان شيء : عطية من الله تعالى ، وموهبة للناس : فهو السعادة ، لأنها عطية منه عز اسمه ، وموهبة في أشرف منازل الخيرات ، وفي أعلى مراتبها ، وهو خاصة بالإنسان التام ، ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتمام : كالصبيان ومن يجرى مجراهم .

وأما أقسام السعادة على مذهب هذا الحكيم : ففى خمسة أقسام :

أحدها : فى صحة البدن ، ولطف الحواس . ويكون ذلك من اعتدال المزاج : أعنى أن يكون جيد السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس .

والثانى : فى الثروة ، والأعوان ، وأشباههما ، حتى يتسع لأن يضع المال فى موضعه ، ويعمل به سائر الخيرات ، ويواسى منه أهل الخيرات خاصة ، والمستحقين عامة . ويعمل به كل ما يزيد فى فضائله ، ويستحق الثناء والمدح عليه .

والثالث : أن تحسن أحوالته فى الناس ، وينشر ذكره بين أهل الفضل : فيكون مدوحاً بينهم ، ويكثرون الثناء عليه : لما يتصرف فيه : من الإحسان والمعروف .

والرابع : أن يكون متجعاً فى الأمور . وذلك إذا استقم كل ما روى فيه ، وعزم عليه : حتى يصير إلى ما يأمله منه .

والخامس : أن يكون جيد رأى ، صحيح الفكر ، سليم الاعتقادات : فى دينه وغير دينه ، بريئاً من الخطأ والزلل ، جيد المشورة فى الآراء .

فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها : فهو السعيد الكامل : على مذهب هذا الرجل الفاضل . ومن حصل له بعضها : كان حظه من السعادة بحسب ذلك .

وأما الحكماء قبل هذا الرجل : مثل فيثاغورس<sup>(١)</sup> ، وبقرات<sup>(٢)</sup> ، وأفلاطون ، وأشباههم : فإنهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة : كلها فى النفس وحدها .

---

( ١ ) فيثاغورس : فيلسوف يونانى . إمام فى الفلسفة الرياضية ، تفرغ لدراسة الحكمة ، وعاش مع أتباعه حياة مشتركة فى الزهد ، ولأليه يهزى تقويم الحساب : المعروف بمجدول فيثاغورس : فى الضرب . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، وقيام حركة الكون على الأرقام .

( ٢ ) بقرات ، أو أبقرات : أشهر الأطباء الأقدمين . ولد باليونان عام ٤٦٠ قبل الميلاد . وله مصنفات كثيرة : ترجم بعضها إلى العربية ، منها : مقدمة المعرفة ، ومابيدة الإنسان . وتوفى عام ٣٧٧ قبل الميلاد . وهو أشهر الأطباء على الإطلاق ، وله قسم مشهور : يقسمه الأطباء : قبل محاولة المهنة حتى يومنا هذا .

ولذلك لما قسموا السعادة : جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب : وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

وأجمعوا على أن هذه الفضائل : هي كافية في السعادة ، ولا يحتاج معها إلى غيرها : من فضائل البدن ، ولا ما هو خارج البدن .

فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل : لم يضره في سعادته : أن يكون سقيماً ، ناقص الأعضاء ، مبتلى بجميع أمراض البدن .

اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضره في خاص أفعالها : مثل فساد العقل ، ورداءة الذهن ، وما أشبههما .

وأما الفقر ، والخمول ، وسقوط الحال ، وسائر الأشياء الخارجة عنها : فليست عندهم بقادحة في السعادة البتة .

وأما الروافيون<sup>(١)</sup> وجماعة من الطبيعيين : فإنهم جعلوا البدن : جزء من الإنسان ، ولم يجعلوه آلة : كما شرحناه فيما تقدم .

لذلك اضطروا إلى أن يجعلوا السعادة : التي في النفس : غير كاملة إذا لم يقترن بها سعادة البدن ، وما هو خارج البدن أيضاً .

أعني الأشياء التي تكون بالبخت والجلد .

والمحققون من الفلاسفة : يحقرون أمر البخت : وكل ما يكون به ومعه ، ولا يؤهلون تلك الأشياء لإسم السعادة ، لأن السعادة : شيء ثابت : غير زائل ، ولا متغير وهي أشرف الأمور ، وأكرمها ، وأرفعها . فلا يجعلون لأحسن الأشياء ، وهو الذي . يتغير ، ولا يثبت ، ولا يتحصل بروية ولا فكر ، ولا يتأتى بعقل وفضيلة فيها نصيباً .

( ١ ) الروافيون : هم تلاميذ زينون : الفيلسوف اليوناني : لأنه كان يملهم في رواق .

ويطلق أيضاً على شيعة من اليهود : تقول بالتقدير والتناسخ .

وزينون هذا : مؤسس المذهب الرواقى : يلسون إليه القول المأثور : لنعاش العيش : العيش مع الطبيعة . ولد في القرن الرابع قبل الميلاد .



ولهذا النظر : يختلف القدماء في السعادة العظمى . فظن قوم أنها لا تحصل للإنسان إلا بعد مفارقة البدن ، والطبيعات كلها . وهؤلاء هم القوم الذين حكينا عنهم : أن السعادة العظمى : هي في النفس وحدها . وسموا ذلك الإنسان : هو الجوهر وحده : دون البدن ، ولذلك حكموا أنها ما دامت في البدن ، ومتصلة بالطبيعة وكدرها ، ونجاسات البدن وضروراته ، وحاجات الإنسان به ، وافئذاته إلى الأشياء الكثيرة : فليست سعيدة على الإطلاق .

وأيضاً لما رأوها لا تكمل لوجود الأشياء العقلية : لأنها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى<sup>(١)</sup> .

أعني قصورها ونقصانها : ظنوا أنها إذا فارقت هذه السكورة : فارقت الجهالات ، وصفت ، وخلصت ، وقبلت الإضاءة ، والنور الإلهي . أعني العقل النام .

ويجب على رأي هؤلاء : أن الإنسان لا يسعد السعادة التامة : إلا في الآخرة بعد موته .

وأما الفرقة الأخرى : فإنها قالت : إنه من القبيح الشنيع : أن يظن أن الإنسان مادام حياً : يعمل الأعمال الصالحة ، ويعتقد الآراء الصحيحة ، ويسعى في تحصيل الفضائل كلها : لنفسه أولاً ، ثم لأبناء جنسه ثانياً ، ويخلف رب العزة تقدس ذكره : في خلقه بهذه الأعمال المرئية . فهو شقي ناقص : حتى إذا مات ، وعدم هذه الأشياء : صار سعيداً ، تام السعادة .

وأرسطوطاليس<sup>(٢)</sup> يتحقق بهذا الرأي ، وذلك أنه تكلم في السعادة الإنسانية .

والإنسان : هو المركب عنده من بدن ونفس . ولذلك حدد الإنسان بالناطق المائت ، وبالناطق المشاي برجلين ، وما أشبه ذلك . وهذه الفرقة : وهي التي رئيسها

---

( ١ ) الهيولى : مادة الفئء : التي يصنع منها : كالخشب الكرسي ، والحديد السمار . وأراد بذلك : أن السعادة التامة : هي التي لا تستتر بظلمة الاحتياج إلى شيء آخر : لا تقوم إلا به .

( ٢ ) النظر ترجمته في هامش ص ٨٨

أرسطوطاليس : رأت أن السعادة الإنسانية : تحصل للإنسان في الدنيا : إذا سعى لها ،  
وتعب بها : حتى يصير إلى أفصاها .

ولما رأى الحكيم ذلك ، وأن الناس مختلفون في هذه السعادة الإنسانية ، وأنها  
قد أشكلت عليهم إشكالا شديداً : احتاج أن يتعب في الإبانة عنها ، وإطالة الكلام فيها .

وذلك أن الفقير : يرى أن السعادة العظمى : في الثروة واليسار .

والمريض : يرى أنها في الصحة والسلامة .

والذليل : يرى أنها في الجاه والسلطان .

والخليع : يرى أنها في التمكن من الشهوات كلها : على اختلافها .

والعاشق : يرى أنها في الظفر بالمعشوق .

والفاضل : يرى أنها في إفاضة المعروف على المستحقين .

والفيلسوف : يرى أن هذه كلها إذا كانت مرتبة بحسب تقسيط العقل : أعنى عند

الحاجة ، وفي الوقت الذي يجب ، وكما يجب ، وعند من يجب : فهي سعادات كلها ،  
وما كان منها يراد لشيء آخر ؛ فذلك الشيء أحق باسم السعادة .

ولما كانت كل واحدة من هاتين الفرقتين : نظرت نظراً ما : وجب أن نقول في ذلك

ما نراه صواباً ، وجامعاً للرأيين ، فنقول :

## رأى المؤلف في السعادة

إن الإنسان ذو فضيلة روحانية : يناسب بها الأرواح الطيبة : التي تسمى ملائكة .

وذو فضيلة جسمية : يناسب بها الألعام ، لأنه مركب منهما .

فهو بالخير الجسماني : الذي يناسب به الألعام ، مقيم في هذا العالم السفلي ، مدة قصيرة

ليعمره ، وينظمه ويرتبه .

حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال : انتقل إلى العالم العلوى ، وأقام فيه دائماً  
سرمداً : في صحبة الملائكة ، والأرواح الطيبة .

وينبغي أن يفهم من قولنا العالم السفلى ، والعالم العلوى : ما ذكرناه فيما تقدم .

فإننا قد قلنا هناك : إنا لسنا نعى بالعلوى : المكان الأعلى في الحس .

ولا بالعالم السفلى : المكان الأسفل في الحس .

بل كل محسوس فهو أسفل . وإن كان محسوساً في المكان الأعلى .

وكل معقول : فهو أعلى ، وإن كان معقولا في المكان الأسفل .

وينبغي أن يعلم : أنه لا يحتاج في صحة الأرواح الطيبة ، المستغنية عن الأبدان : إلى شيء  
من السعادات البدنية التي ذكرناها : سوى سعادة النفس فقط . أعنى المعقولات الأبدية ،  
التي هي الحكمة فقط .

فإذا ما دام الإنسان إنساناً : فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً ، وليس  
يحصلان على التمام : إلا بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية .

فالسعيد إذأ من الناس : يكون في إحدى مرتبتين .

إما في مرتبة الأشياء الجسدية : متعلقاً بأحوالها السفلى ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك :  
يطالع الأمور الشريفة : باحثاً عنها ، مشتاقاً إليها ، متحركاً نحوها ، مغتبطاً بها .

وإما أن يكون في رتبة الأشياء الروحية : متعلقاً بأحوالها العليا ، سعيداً بها ، وهو  
مع ذلك : يطالع الأمور البدنية ، معتبراً بها ، ناظراً في علامات القدرة الإلهية ، ودلائل  
الحكمة الباهرة ، مقتدياً بها ، ناظماً لها ، مفيضاً للخيرات عليها ، سابقاً لها نحو الأفضل  
فالأفضل . بحسب قبولها ، وعلى نحو استطاعتها .

وأي امرئ لم يحصل في إحدى هاتين المنزلتين : فهو في رتبة الانعام بل هو أضل !

وإنما صار أضل : لأن تلك غير معرضة لهذه الخدشات ، ولا أعطيت استطاعة :

تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية .

ولنما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها .  
والإنسان معرض لها ، مندوب إليها : مزاج العلة فيها . وهو مع ذلك غير محصل  
لها ، ولا ساع نحوها .

وهو مع ذلك : مؤثر لصدما : يستعمل قواه الشريفة في الأمور الدينية . وتلك محصلة  
لكمالاتها التي تخصها . فإذا الأنعام : إذا منعت الخيرات الإنسانية : حرمت جوار الأرواح  
الطبية ، ودخول الجنة : التي وعد المتقون : فهي معذورة . والإنسان غير معذور .

مثل الأول : مثل الأعمى إذا جار عن الطريق : فتردى في بئر : فهو مرحوم  
غير ملوم .

ومثل الثاني : مثل بصير يحجور على بصيرة : حتى يتردى في البئر ، فهو بمقوت ملوم .  
وإذا قد تبين : أن السعيد لا محالة في إحدى المرتبتين اللتين ذكرناهما : فتد تبين  
أيضاً أن أحدهما : ناقص مقصر عن الآخر ، وأن الانقص منهما : ليس يخلو ، ولا يترعى  
من الآم والحسرات : لأجل خدائع الطبيعة ، والخارف الحسية : التي تدمرته فيها يلابسه ،  
وتعوقه عما يلاحظه ، وتمنعه من الترقى فيها على ما ينبغي ، وتشغله بما يتعلق به من  
الأمور الجسدية .

فصاحب هذه المرتبة : غير كامل على الإطلاق ، ولا سعيد تام . وأن صاحب المرتبة  
الأخرى : هو السعيد التام . وهو الذي توفر حظه من الحكمة : فهو مقيم بروحانيته بين  
الملا الأعلى : يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهي ، ويستزيد من فضائله  
بحسب عنايته بها ، وفلة عوائقه عنها .

ولذلك يكون أبداً خالياً من الآلام والحسرات : التي لا يخلو صاحب المرتبة الأولى  
منها . ويكون مسروراً أبداً بذاته ، مغتبطاً بحاله ، وبما يحصل له دائماً من قبض  
نور الآمل ، فليس يسر إلا بتلك الأحوال ، ولا يغتبط إلا بتلك المحاسن ، ولا يش  
إلا لإظهار تلك الحكمة بين أهلها ، ولا يرتاح إلا لمن ناسبه أو قاربه ، وأحب  
الاقتباس منه .

وهذه المرتبة : التي من وصل إليها : فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها .  
وهو الذي لا يبالي بفراق الأحباب من أهل الدنيا ، ولا يتحسر على ما يفوته من  
التنعم فيها .

وهو الذي يرى جسمه ، وماله ، وجميع خيرات الدنيا : التي عددهاها في السعادات  
التي في بدنه ، والخارجة عنه : كلها كلا عليه : إلا في ضرورات يحتاج إليها لبدنه ، الذي  
هو مربوط به : لا يستطيع الانحلال عنه : إلا عند مشيئة خالقه .

وهو الذي يشاق إلى محبة أشكاله ، وملاقة من يناسبه : من الأرواح الطيبة ،  
والملائكة المقربين .

وهو الذي لا يفعل إلا ما أَرَادَهُ الله منه ، ولا يختار إلا ما قَرِبَ إليه ، ولا يخالفه  
إلى شيء من شهواته الرديئة ، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت إلى شيء يعوقه  
عن سعاده .

وهو الذي لا يحزن على فقد محبوب ، ولا يتحسر على فوت مطلوب .

إلا أن هذه المرتبة الأخيرة : تتفاوت تفاوتاً عظيماً .

أعني أن من يصل إليها من الناس : يكون على طبقات كثيرة غير متقاربة .

وهاتان المرتبتان : هما اللتان ساق الحكيم الكلام إليهما ، واختار المرتبة  
الأخيرة منهما .

وذلك في كتابه المسمى « فضائل النفس » ، وأنا أورد ألفاظه التي نقلت إلى العربية  
بمعناها . قال :

# أول رُتب الفضائل

أول رتب الفضائل : تسمى سعادة ، وهى أن يصرف الإنسان إرادته ، ومحاولاته : إلى مصالحه فى العالم المحسوس ، والأمور المحسوسة : فى أمور النفس ، والبدن ، وما كان من الأحوال متصلا بهما ، ومشاركا لهما : من الأمور النفسانية ، ويكون تصرفه فى الأحوال المحسوسة : تصرفاً لا يخرج به عن الاعتدال : الملائم لأحواله الحسية .

وهذه حال قد يتلبس فيها الإنسان بالآهواء والشهوات ، إلا أن ذلك بقدر معتدل غير مفرط ، وهو إلى ما ينبغي : أقرب منه إلى ما لا يسيغه ، وذلك أنه يجرى أمره نحو صواب التدبير المتوسط : فى كل فضيلة ، ولا يخرج به عن تقدير الفكر ، وإن لابس الأمور المحسوسة ، وتصرف فيها .

ثم الرتبة الثانية : وهى التى يصرف الإنسان فيها إرادته ومحاولاته : إلى الأمر الأفضل : من صلاح النفس والبدن ، من غير أن يتلبس مع ذلك بشيء من الآهواء والشهوات ، ولا يكثر بشيء من النفسانيات المحسوسة ، إلا بما تدعوه إليه الضرورة . ثم تتزايد رتبة الإنسان ، فى هذا الضرب من الفضيلة .

وذلك أن الأماكن والرتب فى هذا الضرب من الفضائل كثيرة : بعضها فوق بعض ، وسبب ذلك :

أما أولاً : باختلاف طبائع الناس .

وثانياً : على حسب العادات .

وثالثاً : بحسب منازلهم ومواضعهم ، من الفضل والعلم ، والمعرفة والفهم .

ورابعاً : بحسب مذهبهم .

وخامساً : بحسب شوقهم ومعاناتهم . ويقال أيضاً بحسب جدهم .

ثم تكون النقطة في آخر هذه المرتبة ، أعنى هذا الصنف من الفضيلة : إلى الفضيلة الإلهية المحضة ، وهي التي لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا تشييع لحال ، ولا تطلع إلى بقاء ، ولا ضن بقريب ، ولا خوف ولا فزع من أمر ، ولا شغف بحال ، ولا طلب لحظ من حظوظ الإنسانية ، ولا من الحظوظ النفسانية أيضاً ، ولا ما تدعو الضرورة إليه : من حاجة البدن والقوى الطبيعية ، ولا القوى النفسانية .

اسكن يتصرف بتصرف الخير العقلي ، في أعلى رتب الفضائل ، وهو صرف الوقت إلى الأمور الإلهية ومعاناتها ، ومحاولاتها : بلا طلب عوض .

أعنى أن يكون تصرفه فيها ومعاناته ومحاولاته لها : لنفس ذاتها فقط .

وهذه المرتبة أيضاً : تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق ، وفضل المعاناة ، والمحاولة ، وقوة التحيزة <sup>(١)</sup> ، وصحة الثقة .

وبحسب منزلة من بلغ إلى هذا المبلغ من الفضيلة في هذه الأحوال التي عددناها : إلى أن يكون تشبه بالعلة الأولى ، واقتداؤه بها وبأفعالها .

## آخر مراتب الفضائل

وآخر المراتب في الفضيلة : أن تكون أفعال الإنسان كلها : أفعالا إلهية .

وهذه الأفعال هي خير محض .

والفعل إذا كان خيراً محضاً : فليس يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه .

وذلك أن الخير المحض : هو غاية متوخاة لذاتها ، أي هو الأمر المطلوب المقصود لذاته .

( ١ ) النزعة النفس ، والدفع .

والأمر الذي هو غاية في نهاية النفاسة : ليس يكون من أجل شيء آخر .

فأفعال الإنسان : إذا صارت كلها إلهية ، فهي كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية : التي هي عقله الإلهي : الذي هو ذاته بالحقيقة ، وتزول ، وتنهار ، وتموت سائر دواعي طبعه البدني : بسائر عوارض النفسين البهيميتين ، وعوارض التخيل المتولد عنهما ، وعن دواعي نفسه الحسية : فلا يبقى له حينئذ إرادة ، ولا همة خارجتان عن فعله : من أجلهما يفعل ما يفعل ، لكنه يفعل ما يفعله : بلا إرادة ، ولا همة في سوى الفعل .

أى لا يكون غرضه في فعله : غير ذات الفعل .

وهذا هو سبيل العقل الإلهي .

فهذه الحال : هي آخر رتب الفضائل : التي يتقبل فيها الإنسان أفعال المبدى الأول : خالق الكل عز وجل .

أعني أن يكون فيما يفعله ، لا يطلب به حظاً ، ولا مجازاة ، ولا عوضاً ، ولا زيادة . لكن يكون فعله بهينه : هو غرضه ، أى ليس بفعل من أجل شيء آخر : سوى ذات الفعل . ومعنى ذاته : هو أن لا يفعل ما يفعله : من أجل شيء غير فعل نفسه ، وذاته نفسها : هي الفعل الإلهي نفسه .

وهكذا يفعل البارئ تعالى لذاته : لا من أجل شيء آخر خارج عنه .

وذلك أن فعل الإنسان في هذه الحال : يكون كما قلنا خيراً بعضاً ، وحكمة محضة : فيبدأ بالفعل لنفس إظهار الفعل فقط ، لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل .

وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به : ليس هو على القصد الأول : من أجل شيء خارج عن ذاته .

أعني ليس ذلك من أجل سياسة الأشياء التي نحن بعضها : لأنه لو كان كذلك : لكانت أفعاله حينئذ إنما كانت وتسكون وتم : بمشارقة الأمور التي من خارج ، ولتديرها وتدير أحوالها واهتمامها بها .



وعلى هذا تكون الاشياء التي من خارج : اسباباً وعللاً لأفعاله ، وهذا شنيع قبيح : تعالى الله عنه علواً كبيراً .

لكن عنايته عز وجل بالاشياء : التي من خارج ، وفعله الذي يدبرها به ويرفدها <sup>(١)</sup> : إنما هو على القصد الثاني ، وليس يفعل ما يفعله من أجل الاشياء أنفسها ، لكن من أجل ذاته أيضاً ، وذلك لأجل أن ذاته : تفضل لذاتها : لا من أجل المفضل عليه ، ولا من أجل شيء آخر .

وهكذا سبيل الإنسان : إذا بلغ إلى الغاية القصوى : في الإيمان من الاقتداء بالباري عز وجل : تكون أفعاله التي يفعلها على القصد الاول : من أجل ذاته نفسها : التي هي العقل الإلهي ، ومن أجل الفعل نفسه .

وإن فعل فعلاً يرفد به غيره ، ويتفع به : فليس فعله ذلك على القصد الاول ، من أجل ذلك الغير ، لكن يفعل بذلك الغير ما يفعله به بقصد ثالث ، وفعله ذلك عن أجل ذاته بالقصد الاول ، ومن أجل الفعل نفسه : أي لنفس الفضيلة ، ولنفس الخير : لأن فعله ذلك : فضيلة وخير ، ففعله لنفس الفعل : لا لاجتلاب منفعة ، ولا لدفع مضرة ، ولا للتباهي وطلب الرياسة ، ومحبة الكرامة ، فهذا هو غرض الفلسفة ، ومنتهى السعادة .

إلا أن الإنسان ، لا يصل إلى هذه الحال : حتى تنفي إرادته كلها : التي بحسب الامور الخارجية ، وتنفي العوارض النفسانية ، وتموت خواطره التي تكون عن العوارض ، ويمتلي شعاراً إلهياً وهمة إلهية .

وإنما يمتلي من ذلك : إذا صفاه من الامر الطبيعي البتة ، ونفى منه نفياً كاملاً .

ثم حينئذ يمتلي معرفة إلهية ، وشوقاً إلهياً ، ويوقن بالامور الالهية ، بما يتقرر في نفسه ، وفي ذاته : التي هي العقل ، كما تقررت فيه القضايا الاول التي تسمى العلوم الاوائل .

(١) رفته : دمه وأمسكه .

إلا أن تصور العقل ورويته في هذه الحال بالأمور الالهية ، وتيقنه لها ، يكون بمعنى أشرف ، وألطف ، وأظهر ، وأشهد انكشافاً له وبياناً : من القضايا الأولى . التي تسمى العلوم الأوائل العقلية .

فهذه ألفاظ هذا الحكيم قد نقلتها نقلاً : وهي نقل أبي عثمان الدمشقي ، وهذا الرجل : فصيح باللغتين جميعاً ، أعني اليونانية ، والعربية ، مرضى النقل عند جميع من طالع هاتين اللغتين .

وهو مع ذلك ، شديد التحري لإيراد الألفاظ اليونانية ومعانيها : من ألفاظ العرب ومعانيها : لا يختلف في لفظ ، ولا معنى .

ومن رجع إلى هذا الكتاب : أعني المسمى بفضائل النفس : قرأ هذه الألفاظ كما نقلتها .

وليس تحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة ، إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها : علماً صحيحاً ، ويستوفى أولاً أولاً : كما رتبناها في كتابنا المسمى بترتيب السعادات<sup>٣٢</sup> :

ومن ظن من الناس أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة ، وعلى غير ذلك المنهج ، فقد ظن باطلاً ، وبعد عن الحق بعداً كثيراً .

وليتذكر في هذا الموضع : الخطأ العظيم : الذي وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة : بنعيط القوة المألومة وإهمالها ، وترك النظر الخاص بالعقل ، واكتفائهم بأعمال : ليست مدنية ، ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل . وقد سماهم قوم : العاملة ، والناجية .

ولذلك رتبنا هذا الكتاب ، عقب ذلك الكتاب : ليلحظ منهما السعادة الأخيرة : المطلوبة : بالحكمة البالغة ، وتهذب لها النفس ، وتتهيأ لقبولها ، غسلاً وتنقية من الأمور الطبيعية ، وشهوات الأبدان .

ولذلك سميته أيضاً بكتاب طهارة الاعراق .

وقد قال أرسطوطاليس في كتابه المسمى بالأخلاق : إن هذا الكتاب : لا ينتفع به الأحداث كثير منفعة ، ولا من هو في طبيعة الأحداث .

قال : واست أعنى بالحدث ههنا ، حدث السن : لأن الزمان لا تأمير له في هذا المعنى .

ولنأى أعنى السيرة التى يقصدها أهل الشهوات ، واللذات الحسية .

وأما أنا فأقول : أنى ما ذكرت هذه المرتبة الأخيرة من السعادة ، طمعاً فى وصول الأحداث إليها : بل لير على سمعهم فقط ، وليعلم أن ههنا مرتبة حكيمية ، لا يصل إليها إلا أهلها الأعلى مرتبة .

فليتمس كل من نظر فى هذا الكتاب : المرتبة الأولى منها : بالأخلاق التى وصفتها ، فإن وفق بعد ذلك ، وأعانه الشوق الشديد . والحرص التام ، وسائر ما ذكرناه ووصفناه عن الحكيم : فليترق فى درجة الحكمة ، وليتصاعد فيها بجهد ، فإن الله عز وجل يعينه ويوفقه .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة : ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة ، وتجرد بنفسه اللطيفة : التى عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية : فقد فاز ، وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل : لإعداداً روحانياً : ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التى كانت تعوقه عن سعادته ، ولا تشوق إليها : لأنه قد تطهر منها ، وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ، ولا حرص عليها . وقد استخلصها للقاء رب العالمين ، ولقبول كراماته ، وفيض نوره : الذى كان غير مستعد له ، ولا فيه قبول من عطائه .

ويأتية حينئذ الذى وعد به المتقون والأبرار . كما سبق الإيماء إليه مراراً فى قوله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ، وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : **دهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** .

## الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة

وإذ قد لخصنا أمر هاتين المنزلتين من السعادة القصوى : فقد تبين ببياناً كافياً ، أن إحداهما بالإضافة إلينا أولى ، والآخرى ثانية ، ومن الخيال أن نسلك إلى الثانية من غير أن نمر بالأولى .

فقد وجب أن نعود إلى ما بدأنا به : من ذكر الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة ، ولستوفى الكلام فيها ، وفي الأخلاق : التي بنينا الكتاب عليها ، ونغلى عن بيان الرتبة الثانية إلى وقت آخر فنقول :

إن من غنى ببعض القوى التي ذكرناها دون بعض ، أو تعتمد لإصلاحها في وقت دون وقت : لم تحصل له السعادة .

وكذلك يكون حال الرجل : في تدبير منزله إذا غنى ببعض أجزائه دون بعض ، أو في وقت دون وقت : فإنه لا يكون مدبر منزل .

وكذلك حال مدبر المدينة ، إذا خص بنظرة طائفة دون طائفة ، أو وقتاً دون وقت : لا يستحق اسم الرياسة على الإطلاق .

وأرسطوطاليس : تمثل بأن قال : أن الخطاف الواحد : إذا ظهر لا يدل على طبيعة الربيع . ولا يوم واحد معتدل الهواء يبشر بالربيع .

فعلى طالب السعادة : أن يطلب السيرة اللذيذة عنده : فيسرها دائماً ، فإن تلك السيرة : هي واحدة ولذيذة في نفسها .

فلذلك قلنا أنه ينبغي أن يتشوقها دائماً ، ويثبت عليها أبداً .

ولما كانت السير ثلاثة : لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاثة : التي يقصدها الناس ، أعنى سيرة اللذة ، وسيرة الكرامة ، وسيرة الحكمة ، وكانت سيرة الحكمة : أشرفها

وأتمها ، وكانت فضائل النفس كثيرة ، وجب أن يفضل الإنسان بأفضلها ، ويشرف بأشرفها .

فسيرة الأفاضل السعداء : سيرة لذينة بنفسها ، لأن أفعالهم أبدأ مختارة وممدوحة .

وكل إنسان يلتذ بما هو محبوب عنده .

يلتذ بعدل العادل ، أو يلتذ بحكمة الحكيم .

والأفعال الفاضلة ، والغايات التي ينتهي إليها بالفضائل : لذينة بمحبة .

فالسعادة ألد من كل شيء . وأرسطوطاليس يقول : إن السعادة الإلهية ، وإن كانت كما ذكرناها : من الشرف ، وسيرتها ألد وأشرف من كل سيرة : فإنها محتاجة إلى السعادات الأخرى : الخارجة : لأن تظهر بها ، وإلا كانت كاملة غير ظاهرة .

وإذا كانت كذلك : كان صاحبها كالفاضل النائم : الذي لا يظهر فعله ، وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق كما وصفنا حالهما فيما تقدم .

فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة ، المتمكن من إظهار فعله بها ، وهو الذي يلتذ بها ، وهو الذي يسر سروراً حقيقياً : غير بموه ، ولا مزخرف بالباطل .

وهو الذي يخرج من حد المحبة إلى العشق والهيان ، وحينئذ يأنف أن يصير سلطاناً العالى : يحب سلطان بطنه وفرجه ، فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه <sup>(١)</sup>

وأعنى بالسرور المزخرف بالباطيل : اللذات التي يشاركنا فيها الحيوانات : التي ليست بباطلة . فإن تلك اللذات : حسية تنصرم وشيكا ، وتملأ الحواس سرياً .

فإذا دامت عليها : صارت كريمة ، وربما عادت مؤلة .

وكما أن للحس لذة عرضية على حدة ، فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة : لأن لذة العقل : لذة ذاتية ، ولذة الحس عرضية .

---

(١) يريد بذلك : ألا يخدم عقله - الذي هو أشرف جزء فيه - فرجه : الذي هو أخس جزء فيه .

فمن لا يعرف اللذة بالحقيقة : كيف يلتذ بها : ومن لا يعرف الرياسة الذاتية : كيف يصير إليها . فإننا قد قدمنا وصفها ، وشوقنا إليها : بإعادة الكلام فيها مراراً . وقلنا : من لا يعرف الخير المطلق ، والفضيلة التامة ، ولا يعرف الحكمة العملية . يعنى إيشار الأفضل ، والعمل به ، والثبات عليه : لا ينشط له ولا يرتاح إليه . ومن كان كذلك : فكيف يلتذ ويتنعم بما شرعناه ، ودللنا عليه . وقد كان للحكام المتقدمين مثل يضربونه ، ويكتبونه في الهياكل . وهى مساجدهم ومصلاتهم .

وهو هذا الملك الموكل بالدنيا . يقول : إن ههنا خيراً وههنا شراً ، وههنا ما ليس بخير ولا شر .

فمن عرف هذه الثلاثة حق معرفتها : تخلص منى ، ونجا سالماً ، ومن لم يعرفها قتلتته شر قتلة ، وذلك أنى لا أقتله قتلاً وحيداً ، ولكنى أقتله أولاً أولاً : فى زمان طويل . فهذا المثل من نظر فيه وتأمله : عرف منه جميع ما قدمنا ذكره .

وينبغى أن يعلم : أن السعيد الذى ذكرنا حاله ، ما دام حياً تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ، ومطالع سعوده ونحوه : يرد عليه من النكبات والنوائب ، وأنواع المحن والمصائب : ما يرد على غيره . إلا أنه يذعر منها ، ولا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة فى احتمالها لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها : بعادة الملح والجزع والاحزان ، ولا قابل أثر الهموم والاحزان بالأحوال العارضة . وإن أصابه من هذه الآلام شئ : فهو يقدر على ضبط نفسه ، كي لا تنقله عن السعادة إلى ضدها ، بل لا تخرجه عن حد السعادة البتة .

ولو ابتلى ببلايا أيوب عليه السلام وأضعافها : ما أخرجه عن حد السعادة .

وذلك لما يجد فى نفسه : من المحافظة على شروط الشجاعة ، والصبر : على ما يجزع منه أصحاب خور الطباع : فيكون سروره أولاً بذاته ، وبالأحاديث الجميلة التى تنشر عنه .

ويرى أن القاتل الذي يدعى الشطارة ، والمصارع الذي يهوى الغلبة . كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة من تقطيع أعضاء نفسه ، وترك الشهوات التي يتمكن منها : طلباً لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت ، فيرى نفسه أخرى وأولى منهما : بالصبر إذا كان غرضه أشرف ، وصيته في الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ، ولأنه يسعد في نفسه ، ثم يصير قدوة للغيره .

وأرسطوطاليس يقول : إن بعض الأشياء تعرض من سوء البخت : بما يكون يسيراً سهل المحتمل ، فإذا عرض للإنسان واحتمله : لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه ، وعظم همته .

ومن لم يكن سعيداً ، ولا سبقت له رياسة بهذه الصناعة الشريفة : من تهذيب الاخلاق ، فإنه سيعمل انفعالا قوياً : فيعرض له عند حلول المصائب إحدى الحالتين . إما الاضطراب الفاحش ، والالم الشديد : والخروج بها إلى الحد الذي يرقى له ويرحم !

وإما أن يتشبه بالسعداء ، ويسمع مواعظهم : فيظهر الصبر والسكون : إلا أنه جزع الباطن ، متألم الضمير .

وكما أن الأعضاء المغلوجة : إذا حركت إلى اليمين : تحركت إلى الشمال ، كذلك تكون حركات نفوس الاسرار : تتحرك إلى خلاف ما يحملونها عليه : من الجليل . أعني إذا تشبهوا بالأجواد ، وأهل العدالة : كانت هذه حالهم .

## رأى أرسطوطاليس في بقاء النفس

ومما يستدل به من كلام أرسطوطاليس<sup>(١)</sup> : على أنه كان يقول : ببقاء النفس ، وبالمعاد : كلامه المتداول في كتاب الأخلاق ، وهو هذا :

قال : قد حكمنا أن السعادة شيء ثابت ، غير متغير .

وقد علمنا أيضاً أن الإنسان قد تلحقه تغيرات كثيرة . واتفاقات شتى ، فإنه قد يمكن لمن هو أرغد الناس عيشاً أن يصاب بمصائب عظيمة . كما رمز في برنامج<sup>(٢)</sup> .

ومن يتفق له هذه المصائب ومات عليها : فليس يسميه أحد من الناس : سعيداً ، وليس ينبغى على هذا القياس : أن يسمى إنسان من الناس سعيداً : ما دام حياً . بل ينتظر به آخر عمره : ثم يحكم عليه .

فالإنسان إذن : إنما يصير سعيداً إذا مات .

إلا أن هذا قول في غاية الشناعة : إذا كنا نقول : إن السعادة هي خير ما . ثم قال في هذا الموضوع أيضاً : موضع شك .

فإنه قد يظن بالميت أن يلحقه خير وشر : إذ قد يلحق الحى أيضاً ، وهو لا يحس به : مثل السكرامة ، أو الهوان ، واستقامة أمر الأولاد ، وأولاد الأولاد .

ففي هذه الأشياء خير ، لأنه قد يمكن فيمن عاش عمره كله إلى أن يبلغ الشيخوخة سعيداً وتوفى على هذا السبيل : أن يلحقه مثل هذه التغيرات : في أولاده : حتى يكون بعضهم خياراً : حسن السيرة ، وبعضهم بضد ذلك .

( ١ ) أنظر ترجمته في هامش س ٨٨

( ٢ ) البرنامج : مذهب الشعراء : الذين قاوموا الغنائية . الدومنتيقية ، واعتنوا كل الاعتناء بالصناعة الفنية ، والتألق بالدعاية الشعرية . ولعل لأرسطوطاليس كتاباً سماه بالبرنامج . وبرنامج : قد تكون رمزاً للشقاء .



ومن البين : أنه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والأولاد : تباين واختلاف بكل جهة .  
ولكن من المنكر أن يكون الميت بتغير غيره : يصير مرة سعيداً : ومرة أخرى شقيماً .  
ومن المنكر : أن لا تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين : في وقت من الاوقات .  
ولكن ينبغي أن لعود إلى ما كان الشك واقعاً فيه .

فهذا الشك الذي أورده أرسطوطاليس على نفسه في هذا الموضع ، هو شك من يعتقد  
أن للإنسان بعد موته أحوالا ، وأنه يتصل به لا محالة ، من أمور أولاده ، وأولاد  
أولاده ، أحوال مختلفة : بحسب خلاق سير الأولاد .

فكيف نقول ليت شعري في الإنسان ؟ إذا مات سعيداً ، ثم لحقه من شقي بعض  
أولاده ، أو سوء سيرة من يحيا من نسله : ما يكون ضد سيرته وهو حي ، فإنه إن غير  
سعادته : كان هذا شنيعاً ، وإن لم يلحقه أيضاً شيء من ذلك : كان أيضاً شنيعاً .

ثم أرسطوطاليس ، يحل هذا الشك بأن يقول : ما هذا معناه : أن سيرة الإنسان ،  
ينبغي أن تكون سيرة محدودة ، لأنه يختار في كل ما يعرض له أفضل الأعمال : من الصبر  
مرة ، ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة .

ومن التصرف في الاموال إذا اتسع فيها ، وحسن التجمع إذا عدما : ليكون سعيداً  
في جميع أحواله : غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه .

فالسعيد إذا ورد عليه نحس عظيم : جعل سيرته أكثر سعادة : لأنه يداريه مداراة  
جميلة ، وتصبر على الشدائد صبراً حسناً .

ومتى لم يفعل ذلك : كدر سعادته ونقصها ، وجلب له أحزاناً وغموماً : تعمقه  
عن أفعال كثيرة .

والجميل إذا ظهر من السعداء في هذه الأحوال والأفعال : كان أشد إشرافاً وحسناً .  
وذلك إذا احتمل ما كبر وعظم : من المصائب : احتمالاً سهلاً ؛ بعد أن لا يكون ذلك :  
لا لعدم حسه ، ولا لتقصان فهمه بالأمور ، بل لشهامته وكبر نفسه .

قال : إذا كانت الأفعال هي ملاك السيرة كما قلنا ، فليس يكون أحد من السعداء شقياً . لأنه ليس يفعل في وقت من الأوقات أفعالا مردولة .

فإذا كان هكذا ، فالسعيد أبداً يكون مغبوطاً : وإن حلت به المصائب التي حلت بهرنامس ، ولا يكون أيضاً شقياً ، ولا سريع التنقل من ذلك : لأنه ليس ينتقل عن السعادة بسهولة ، ولا تنقله عنها الأوقات اليسيرة . بل لا تنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة . وليس يكون سعيداً إذا نالته هذه الأمور زماناً يسيراً . بل إذا ظفر بأمور جميلة : في زمان طويل .

ثم قال بعد قليل : وأما حال الإنسان بعد موته : فالقول بأن الآفات التي تعرض لأولاد الميت وأصدقائه بأجمعهم : ليست تتعلق به أصلاً : مضاد لما يعتقد جميع الناس . وإذا كانت الأمور العارضة لهؤلاء : كثيرة متيقنة ، وكان بعضها يتعدى إلى الميت أكثر ، وبعضها أقل : صارت قسمتنا إياها إلى الأشياء الجزئية بلانهاية .

وأما إذا قيل قولاً كلياً ، وعلى طريق الرسم : نخليق أن نكتفي بما نقوله فيها ، وهو أنه : كما أن الآفات التي تعرض للميت في حياته : بعضها يشغل عليه احتماله ، ويثلم في سيرته ، وبعضها يخف عليه احتماله .

كذلك يكون حاله فيما تعرض لأولاده وأصدقائه . وكل واحد من العوارض التي تعرض للأحياء : مخالف لما يعرض لهم إذا ماتوا : أكثر من مخالفة كل ما يضرب به المثل ، ويشبه إن كان يصل إليهم من هذه الأشياء شيء : خيراً كان أو شراً أن يكون يسيراً نزرأ : بمقدار مالا يجعل غير السعيد سعيداً ، ولا ينتزع السعادة من السعداء .

هذا حل أرسطوطاليس للشك الذي أورده .



## لذة السَّعَادَةِ

ولما قلنا : أن السعادة : ألد الأشياء ، وأفضلها ، وأجودها ، وأوضحها : وجب أن نبين وجه اللذة فيها بأتم بيان . كما قلناه فيما مضى !

إن اللذة تنقسم إلى قسمين :

أحدهما لذة انفعالية ، والآخرى لذة فعلية ، أى فاعلة .

فأما اللذة الانفعالية : فهي شبيهة بلذة الإناث ، واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور .

ولذلك صارت اللذة الانفعالية : هى التى تشاركنا فيها الحيوانات التى ليست بناطقة ،

وذلك أنها مقترنة بالشهوات ، ومحبة الانتقام : وهى انفعالات النفس البهيمية .

وأما اللذة الأخرى : فهي الفاعلة : وهى التى يختص بها الحيوان الناطق ، ولأنها غير

هيولانية <sup>(١)</sup> ، ولا منفعة انفعالا ، لأنها صارت لذة تامة ، وتلك ناقصة ، وهذه ذاتية ،

وتلك عرضية .

وأعنى بالذاتية والعرضية : أن اللذات الحسية المقترنة بالشهوات : تزول سريعا ،

وتنقضى وشيكا ، بل تنقلب لذاتها : فتصير غير لذات . بل تصير آلاما كثيرة ،

أو مكروهة بشعة مستقبحة ، وهذه أضداد اللذة ومقابلاتها .

وأما اللذة الذاتية : فإنها لا تصير فى وقت آخر غير لذة ، ولا تنتقل عن حالتها :

بل هى ثابتة أبدا .

وإذا كانت كذلك : فقد صح حكمنا ، ووضح أن السعيد : تكون لذته ذاتية ،

لا عرضية ، وعقلية لا حسية ، وفعلية لا انفعالية ، وإلهية لا بهيمية .

( ١ ) الهيولى : المادة الأولى ، والنسبة إليه : هيولى ، وهيولانى ( يونانية الأصل ) وأراد

للفأف بغير هيولانية : أى ليست بالمادة الأولى : للنبتة فى الحيوان .

ولذلك قالت الحكماء : إن اللذة إذا كانت صحيحة : ساقط البدن من النقص إلى التمام ، ومن السقم إلى الصحة .

وكذلك تسوق النفس : من الجهل إلى العلم ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة .

إلا أن ههنا سرأ : ينبغي أن يقف عليه المتعلم .

وهو أن ميله إلى اللذة الحسية : ميل قوى جداً ، وشوقه إليها شوق مزعج ، ولا تزيد العادة في قوة الطبع الذي لنا كبير زيادة : لفرط ما جبلنا عليه في البدء ، من القوة والشوق .

ولذلك متى كانت هذه اللذة حسية قبيحة جداً . ثم مال الطبع إليها بإفراط ، وانفعل عنها بقوة ، واستحسن الإنسان فيها كل قبيح ، وهون على نفسه منها كل صعب ، ولا يرى موضع الغلط ، ولا مكان القبيح : حتى تبصره الحكمة .

وأما اللذة العقلية الجميلة : فأمرها بالضد .

وذلك أن الطبع يكرهها : فإن انصرف الإنسان إليها ، بمعرفته وتمييزه : احتاج فيها إلى صبر ، ورياضة : حتى إذا تبصر فيها ، وتدريب لها : انكشف له حسناتها وبهاؤها ، وصارت عنده بمكان في الحسن .

ومن هنا تبين أن الإنسان في ابتداء تكوينه : محتاج إلى سياسة الوالدين ، ثم إلى الشريعة الإلهية ، والدين القيم : حتى تهديه وتقومه إلى الحكم البالغة : ليتولى تدبير نفسه إلى آخر عمره .

وقد تبين مع ذلك تعلق السعادة بالجوود .

وذلك أننا قد بينا أنها لذة فاعلة ، ولذة الفاعل أبداً تكون في الإعطاء ، ولذة المنفعل أبداً تكون في الأخذ . ولا تظهر لذة السعيد إلا بإبراز فضائله ، وإظهار حكيمته ، ووضعها كفاءته في مواضعها ، وكذلك البناء الحاذق ، والصانع اللطيف ، والموسيقى المحسن .

وبالجملة كل صانع حاذق فاضل في صناعته : ينسر بإظهار فضائله ، وإذاعتها بين أهلها ومستحقها .

وهذا هو معنى الجود ، إلا أن الجود بأعلى الأشياء وأكرمها : أفضل وأشرف من الجود بأدونها وأخصها ، وقد عرض لهذا الجود مع شرفه وعلو مرتبته : ضد ما عرض لذلك الجود الآخر : مع نزارته وقلته .

وذلك أن صاحب الأموال ، والمقتنيات الخارجة : كلاهما ينتقص ماله بالإنفاق ، وينتلم بالبذل . وتنفى ذخائره .

وأما صاحب السعادة التامة : فإن أمواله لا تنقص بالإنفاق : بل تزيد ، ولا تنفى ذخائره بالتبذير : بل تنمو . وتلك معرضة للكافات الكثيرة : من الأعداء ، واللصوص ، وسائر المتسلطين ، وهذه محروسة من كل آفة ، لا سبيل للأشرار والأعداء إليها : بوجه ولا سبب .

فقد ظهرت لذة السعيد كيف تكون ؟ ومن أين تبتدى ؟ وإلى أين تنتهى ؟ وكيف يكون السرور الحقيقي ، واللذة الذاتية ؟

وتبين أيضاً أنها أبدية وتامة وإلهية ، وأن ضدها : هو الشقاء لذاته بالضد ، وعلى العكس ، أعنى أن لذاته كلها عرضية ، ومنقلة عن طبائعها إلى أضعادها ، حتى تصير مؤلمة ، أو مكروهة ، وأنها غير إلهية : بل شيطانية ، وغير مدوحة ، بل هي مذمومة .

وذلك بأن ينظر في السعادة : هل هي مدوحة ؟ فإن أرسطوطاليس يقول : إن الأشياء التي هي في غاية الفضل . لا يوجد لها مدح : لأنها أفضل وأمدح ، وأجل من أن تمدح . قال : وذلك أما قد ننسب المتأهلين ، والخيار من الناس : إلى السعادة ، وليس يوجد أحد من الناس يمدح السعادة نفسها : كما يمدح العدل .

لكنه يجلها ويكرمها : إلى أنها أمر إلهي بالأشياء التي هي أفضل من المدح ، وهو الله تعالى .

ولإلى الخير : فإن المدح هو الفضيلة والعمل بها .

ثم انتهى كلامه هذا إلى أن قال : فآله تعالى : أكرم وأشرف : من أن يمدح ، بل إنما يمجّدونه ، ونحن نمجّد الله تعالى ونقدسه : تمجيداً كثيراً .

وأما السعادة : فلأنها أمر إلهي ، وإنما تفعل الأشياء كلها لأجلها : فهي كذلك أيضاً ممجدة .

فعلى هذا الأمر ينبغي أن لا نمدح السعادة : لأنها أجل من كل مدح ، بل نمجدها في نفسها : وتمدح الأمور كلها بها ، وبقدر قسطها منها .

---

# المقالة الرابعة

ظهور الفضائل ممن لبس بسعيد ولا فاضل





قد قلنا فيما سلف : إن السعادة تظهر في الأفعال : من العدالة ، والشجاعة ، والعفة ،  
وسائر ما تحت هذه الأنواع التي أحصيناها ، وحددناها .

وهذه الأفعال قد تظهر من ليس بسعيد ولا فاضل

وذلك أنه قد يعمل بعض الناس عمل العدول : وليس بعاذل ، ويعمل عمل الشجعان :  
وليس بشجاع ، ويعمل عمل الأعفاء : وليس بعفيف

مثال ذلك : أن من ترك الشهوات : من المساكين ، والمشارب ، وسائر اللذات : التي  
ينهمك فيها غيره : إما لأنه ينتظر منها أكثر مما يحضره ، وإما لأنه لا يعرفها ،  
ولم يباشرها : كالأعراب الذين يبعدون عن البلاد ، وكالرعاة في البوادي وقبال الجبال .

وإما لأنه يمتلي بما يحده ويحضره . وإما لوجود شهوته ، ونقصان تركيبه . وإما لأنه  
استشعر خوفاً من تناولها ، ومكروها يلحقه بسببها . وإما لأنه ممنوع منها . فإن هؤلاء  
كلهم يعملون عمل الأعفاء : وليسوا بأعفاء على الحقيقة . وإنما يسمى عفيفاً على الحقيقة :  
من وفي العفة حدها المذكور فيما تقدم ، واختارها لنفسها : لا لقرض آخر غيرها ،  
وآثرها لأنها فضيلة . ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ، ومن الوجه الذي  
ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي ، وعلى الحال الذي ينبغي .

وكذلك حال الذي يعمل أعمال الشجعان : وليس بشجاع . وذلك أن من باشر  
الحروب ، وأقدم على ركوب الأهوال : لبعض ما يوصل إليه المنال ، أو لبعض الرغبات  
التي لا تعد كثرة . فإن مثل هذا يعمل عمل الشجعان : ولكن عمله بطبيعة الشره : لا بطبيعة  
الفضيلة التي تدعى شجاعة .

وكل من كان أكثر إقداماً ، وأصبر على الأهوال لهذه الأحوال : يجب أن يكون  
أكثر شرهاً ونهماً . لا أكثر شجاعة ، وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة ، ويصبر على  
المسكاره العظيمة : طمعاً في المنال وما يصل إليه بالمنال .

وقد رأينا أهل الشقاوة : يعملون عمل الاعفاء ، وعمل الشجعان ، وهم أبعد الناس عن كل فضيلة .

وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها ، ويصبرون على عقوبات السلطان ، وضرب السياط ، وقطع الأعضاء والجراحات : التي لا يؤمن منها . وينتهون فيها لأقصى الصبر : على الصلب ، وسمل العيون<sup>(١)</sup> ، وقطع الأيدي والأرجل ، وضروب التمثيل : طلباً لاسم ، وذكر بين قوم في مثل حالهم : من سوء الاختيار ، ونقصان الفضائل<sup>(٢)</sup> .

وقد يعمل عمل الشجعان : من يخاف لائمة عشيرته ، أو عقوبة سلطان ، أو خوف سقوط جاهه ، أو ما أشبه ذلك .

وقد يعمل عمل الشجعان : من اتفق له مراراً كثيرة : أن يغلب أقرانه ، فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية ، وجهلاً بمواقع الاتفاقات .

وقد يعمل عمل الشجعان : العشاق ، وذلك أنهم يركبون الأهوال في طلب المعشوق : لرغبتهم في الفجور ، أو لحرصهم على متعة العين منه ، لا لطلب الفضيلة . ولا لاختيار الموت الجليل : على الحياة الرديئة : كما يفعل الشجاع بالحقيقة .

وأما شجاعة الأسد والفيل ، وأشباههما من الحيوانات : فإنها تشبه الشجاعة ، وليست بشجاعة حقيقية .

وذلك أنها قد وثقت بقوتها ، وأنها تفوق غيرها : فهي تقدم لا بطبيعة الشجاعة : بل لتسام القدرة ، وثقة النفس والغلبة ، وما كان منها سبباً ، فهو مع هذه الحال مزاج العلة في السلاح الذي عدمه ، وهو كصاحب السلاح منا : إذا قدم على الأعداء .

وليست هذه شجاعة مع عدم الاختبار الذي يستعمله الشجاع .

---

( ١ ) سمل العين : فقأها بمسمار ، أو حديدة . وكانت في الأصول التي بين أيدينا : وثمل العيون ، بالثاء : وهو خطأ واضح .

( ٢ ) وهذا مثل ما حدث في مصر للاخوان المسلمين على أيدي السفاحين .

وذلك أن الشجاع خوفه من الأسر<sup>(١)</sup> : أشد من خوفه من الموت ، ولذلك يحتار الموت الجميل : على الحياة القبيحة .

على أن لذة الشجاع : ليست تكون في مبادئ أموره ، فإن مبادئ الأمور تكون مؤذية له . لكنها تكون في عواقب الأمور . وتكون أيضاً باقية مدة عمره ، وبعد عمره : لا سيما إذا حامي عن دينه ، وعن اعتقاداته الصحيحة في وحدانية الله عز وجل ، والشرعية التي هي سياسة الله وسنته العادلة : التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة .

فإن مثل هذا : فكر في قصر مدة عمره ، وعلم أنه لا محالة سيموت بعد أيام ، ثم كان عباً للجميل . ثابتاً على الرأي الصحيح : فهو لا محالة يحامي عن دينه ، ويمنع العدو من استباحة حريمه ، والتغلب على مدينته ، ويأنف من الفرار ، ويعلم أن الجبان : إذا اختار الفرار : فإنما يستبق شيئاً هو لا محالة : فان زائل ، وإن تأخر أياماً معدودة ، ثم هو في هذه الحياة اليسيرة : بمقوت مكدر الحياة : بالذل وضروب الصغار .

وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه .

أعني بمقاومة شهواته ، واستسلامه لذات الشجاعة بعينها .

ومن سمع كلام الإمام صلوات الله عليه الذي صدره عن حقيقة الشجاعة ، إذ قال لأصحابه (أيها الناس : إن لم تقتلوا تموتوا . والذي نفس ابن أبي طالب بيده : لآلف ضربة بالسيف على الرأس : أهون من ميتة على الفراش) تبين له أن جميع ما أحصيناه للإنسان : ليس بمعدود فيها : وإن كان يشبهها بالصورة .

ذلك أنه ليس كل من يقدم على الأهوال فهو شجاع ، ولا كل من لا يخاف من الفضائح فهو شجاع .

وذلك أن من لا يفرع من ذهاب شرفه ، أو فضيحة حرمه ، أو عند حدوث الرجفات ، والولازل ، والصواعق ، أو الزمانة في الأمراض ، أو عدم الإخوان والاصدقاء ، أو عند اضطراب البحر ، وهول الأمواج والهواء الهائج : فهو بأن يوصف بالجنون مرة ، وبالفتنة مرة : أولى بأن يوصف بالشجاعة .

( ١ ) في الأصول التي بأيدينا : خوفه من الأمر . وهو خطأ واضح .

وكذلك من خاطر نفسه في وقت الأمن والطمأنينة : بأن يثب من سطح عال ، أو يصعد مرتقى صعباً ، أو يحمل نفسه على خوض ماء غزير ، وهو لا يحسن السباحة ، أو يساور جملاً هائجاً ، أو ثوراً صعباً ، أو فرساً لم يرض : من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، بل مرأاة بالشجاعة ، وإظهار مرتبة الشجيمان : فهو بان يسمى مطرماً<sup>(١)</sup> ، مائئاً : أولى بان يسمى شجاعاً .

وأما من حقق نفسه<sup>(٢)</sup> خوفاً من الفقر أو الذل ، أو أهلكها بالسم ، وما أشبهه من باب الضيم : فهو بان يوصف بالجن : أولى منه بان يوصف بالشجاعة .

وذلك أن الإقدام : وقع منه بطبيعة الجن : لا بطبيعة الشجاعة . فإن الشجاع : يصبر على ما يرد عليه من الشدائد : صبراً جميلاً . وبعمل أعمالاً تليق بتلك الحال كما شرحناه فيما تقدم .

ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ويشح بنفسه ، وحقيق على السلطان خاصة ، والقيم بأمر الدين والملك : أن يناقش فيه ، ويحل قدره ، ويعلى خطره ، ويميزه عن سائر من يتشبه به عن ذكرناه .

فقد تبين من جميع ما قلناه : أن الشجاع : هو الذي يستهين بالشدائد في الأمور الجميلة ، ويصبر على الأمور الهائلة ، ويستخف بما يستعظمه عوام الناس ، سقى بالموت : لا اختيار الأمر الأفضل ، ولا يحزن على ما لا يدرك فيه ، ولا يضطرب عند ما يندح من المصائب ، ويكون غضبه إذا غضب : بمقدار ما يجب ، وعلى من يجب ، وفي الوقت الذي يجب .

وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط . فإن الحكماء قالوا : من لا ينتقم : يلحق قلبه ذبول ، فإذا انتقم : عاد إلى حالته من النشاط .

وهذا الانتقام : إذا كان بحسب الشجاعة : كان محموداً ، وإذا لم يكن كذلك كان مذموماً .

( ١ ) الطرمة : الذي يقول ، ولا يفعل ، ويفخر بما ليس فيه .

( ٢ ) أحق : أى حقد حقد لا يزول . والمعنى : أنه حقد على نفسه غافة الذل والفقر : فلجأ إلى الانتصار ، وهو منتهى الحقد على النفس .

فقد نقل إلينا في الأخبار المأثورة : عن أقدم على سلطان قوى : ورام أن ينتقم منه ، فأهلك نفسه من غير أن يضر سلطانه : روايات كثيرة .

وكذلك حال من أقدم على قرن قوى ، أو خصم ألد : لا يستطيع مقاومته : فإن الانتقام منه : يعود وبالأعلى ، وزيادة في الذل والعجز .

فإذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة : إلا للحكيم الذي يستعمل كل شيء في موضعه الخاص به ، وبقدر إفساط العقل له .

فكل شجاع : عفيف حكيم . وكل حكيم : شجاع عفيف . وهذه الحال بعينها : تظهر فيمن عمل عمل الاستحياء : وليس : بسخى .

وذلك أن من بذل أمواله في شهواته : طلباً للسمعة والرياء ، أو تقرباً إلى السلطان ، أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمة وأولاده . أو بذلها لمن لا يستحق : من أهل الشر ، أو الملمين ، أو المساكين ، أو بذلها لطمع في أكثر منها<sup>(١)</sup> : على سبيل التجارة والمرا بحة ، فكل هؤلاء يعمل عمل الاستحياء : وليس بسخى .

أما بعضهم ، فيبذل ماله بطبيعة الشره .

وأما بعضهم : فبطبيعة الطرمذة<sup>(٢)</sup> والرياء . وبعضهم على طريق الازدياد من المال والرجح فيه . وأما بعضهم فملى سبيل التبذير ، وقلة المعرفة بقدر المال .

وهذا أكثر ما يعرض للوارث ، ولمن لا يتعب في اكتساب المال : فلا يعرف صعوبة الأمر فيه .

وذلك أن المال : صعب الاكتساب ، سهل الإنفاق والتفرقة . قد شبهه الحكماء بمن يرفع حملاً ثقيلاً : إلى قلة<sup>(٣)</sup> جبل ، ثم يرسله ، فإن الأمر في تربيته وإصعاده صعب . ولكن إرساله من هناك أمر سهل .

(١) قال تعالى « ولا تمنن تستكثر » (٢) انظر هامش صفحة ١٢٠ (٣) قلة كل شيء : أعلاه .

# الحاجة إلى المال

## والنسيابة بالطرق الشريفة العادلة

الحاجة إلى المال : ضرورة في العيش ، وهو نافع في إظهار الحكمة والفضيلة .  
ومن اكتسبه من وجهه : صعب عليه .

وذلك أن المكاسب الجميلة : قليلة ، ووجوهها يسيرة عند الرجل العادل الحر .  
وأما غير العادل الحر : فليس يبالي كيف اكتسبه ؟ ومن أين وصل إليه ؟

ولأجل ذلك يوجد كثير من الأحرار والفضلاء : ناقصي الحظ منه . ويوجدون  
أيضاً ذامين للبخت شاكين منه .

وأما أصدقاءهم : فلأجل أنهم يكتسبون المال من وجوه الخيانات ، ولا يباليون كيف  
وصل إليهم : فإنهم يوجدون أبداً وأفرى الحظ منه ، واسعى النفقات : شاكرين لبخوتهم .  
والعامة يغبطونهم ويحسدونهم . إلا أن العاقل إذا رأى نفسه : وهو يرى من المذمات :  
نقي العرض من السوءات : لم يتدنس بالتبجح من المكاسب ، ولم يتطرق إليه بخيانة  
ولا سرقة ، ولا ظلم لمن هو دونه ، أو مثله . وتجنب فيه وجوه العار والفضائح :  
كالقيادة ، والخذاع ، وترويج السلع القبيحة على الملوك ، واستنزاهم عن أموالهم : بالخدع  
والمكر : ومساعدتهم على الفواحش ، وتحسين القبايح فيما يوافق هواهم . وما يجري مجرى  
ذلك : من السعاية ، والنهمة ، والغيبة . وضروب الفساد : التي يرتكبها طلاب المال  
من غير وجهه بضروب المغابنات ، ووجوه الظلم : يسر بنفسه ، ويمتنع من المال  
الراحة والمحمدة : فلا يلوم البخت ، ولا يبنفخ الدول ، ولا يحسد أصحاب الأموال  
المكتسبة من غير وجوهها الجميلة .

فهذه أحوال المكتسبين للأموال ومنفقيها .  
وكذلك حال من عمل عمل العدول : وليس يعدل .  
وذلك أنه إذا عدل في بعض الأمور : مراعاة ليصل به إلى كرامة ، أو مال ،  
أو غير ذلك من الشهوات . أو لغرض آخر مما عددناه فيما تقدم : فليس يسمى عادلاً .  
ولمّا يعمل عمل العدول للغرض الذي يقصده .  
وينبغي أن ينسب فعله إلى غرضه . فإنه بحسب هذا يفعل ذلك كما قلنا وشرحنا .

## العدل

فأما العادل بالحقيقة : فهو الذي يعدل : قواه ، وأفعاله ، وأحواله كلها : حتى لا يزيد  
بعضها على بعض . ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات ، والكرامات ، ويقصد  
في جميع ذلك : فضيلة العدالة نفسها ، لا غرضاً آخر سواها . ولمّا يتم له ذلك : إذا  
كانت له هيئة نفسانية أدبية ، تصدر عنها أفعاله كلها بحسبها .  
ولمّا كانت العدالة : وسطاً بين أطراف ، وهيئة يقتدر بها على رد الزائد والناقص  
إليها : صارت أتم الفضائل ، وأشبهها بالوحدة .

وأعني بذلك : أن الوحدة هي التي لها الشرف الأعلى ، والرتبة القصوى .  
وكل كثرة لا يضبطها معنى يوحدتها : فلا قوام لها ، ولا ثبات . والزيادة  
والنقصان والكثرة والقلّة : هي التي تفسد الأشياء إذا لم يكن بينها مناسبة : تحفظ عليها  
الاعتدال بوجه ما .

فالاعتدال : هو الذي يرد إليها ظل الوحدة ومعناها . وهو الذي يلبسها شرف الوحدة ،  
ويريل عنها رذيلة الكثرة ، والنفاوت ، والاضطراب : الذي لا يجد ، ولا يضبط بالمساواة :  
التي هي خليفة الوحدة في جميع الكثرات ، واشتقاق هذا الاسم بذلك على معناه .

وذلك أن العدل في الأحوال ، والاعتدال في الأفعال ، والعدالة في الأفعال : مشتقة من معنى المساواة . والمساواة : هي أشرف النسب المذكورة في صناعة الارتماطيق<sup>(١)</sup> . ولذلك لا تنقسم ، ولا يوجد لها أنواع ، وإنما هي وحدة في معناها ، أو ظل للوحدة . فإذا لم نجد المساواة التي هي المثل بالحقيقة في الكثرة : عدلنا إلى النسب المذكورة : التي تنحل إليها ، وتعود إلى حقيقتها .

وذلك أنا حينئذ نضطر إلى أن نقول : نسبة هذا إلى هذا : كنسبة هذا إلى هذا . ولذلك لا توجد النسبة إلا بين أربعة ، أو ثلاثة : يتكرر فيها الوسط : فتصير أيضاً أربعة . والنسبة الأولى : تسمى منفصلة ، والثانية : تسمى متصلة .

ومثال الأولى : دأ ، ب ، ج ، د ، فنقول نسبة دأ ، إلى دب ، كنسبة دج ، إلى دد ، . ومثال الثانية : أن تأخذ الباء مشتركا فنقول : نسبة دأ ، إلى دب ، كنسبة دب ، إلى دج ، وهذه النسبة توجد بين ثلاثة أشياء . وهي النسبة العددية ، والنسبة المساحية ، والنسبة التأليفية .

وجميع ذلك : مبين مشروح في المختصر الذي عملناه في صناعة العدد . وأما سائر النسب : فراجعة إليها .

ولذلك عظمها الأوائل ، واستخرجوا بها العلوم الجمة الشريفة .

ولما كانت نسبة المساواة عزيزة : لأنها نظيرة الوحدة : عدلنا إلى حفظ هذه النسب الأخرى في الأمور الكثيرة التي تلابسها لأنها عائدة إليها : وغير خارجة عنها . فنقول :

---

( ١ ) لم أجد لهذه الكلمة معنى فيما بأيدينا من كتب اللغة ، ولعلها كلمة أجمية : ولعل أريد بها [المساواة في العدل : الذي لا يقبل الإقسام .



## مواضع العدل

إن العدالة موجودة في ثلاثة مواضع : أحدها : قسمة الأموال والكرامات .

والثاني : قسمة المعاملات الإرادية : كالبيع ، والشراء ، والمعاوضات .

والثالث : قسمة الأشياء التي وقع فيها ظلم وتعد .

فأما العدالة في الأمور التي تكون في القسم الأول : فتكون بالنسبة المنفصلة : التي بين الأربعة . أعني أن تكون نسبة الأول إلى الثاني : كنسبة الثالث إلى الرابع .

ومثال ذلك : أن يقال : نسبة هذا الإنسان إلى هذه الكرامة ، أو إلى هذا المال : كنسبة كل من كان في مثل مرتبته : إلى مثل قسطه ، فإذا يجب أن يوفر عليه ويسلم .

وأما في الأمور التي تكون في القسم الثاني : أعني المعاملات ، والمعاوضات : فيكون بالنسبة المنفصلة مرة ، وبالنسبة المتصلة أخرى .

مثاله أن تقول : نسبة هذا البراز إلى هذا الإسكاف <sup>(١)</sup> : كنسبة هذا الثوب إلى هذا الخف .

ثم ليس يمنع مانع أن تقول : نسبة البراز إلى الإسكاف : كنسبة الإسكاف إلى النجار . أو تقول : نسبة الثوب إلى الخف : كنسبة الخف إلى السكرى .

ويتبين لك من هذين المثالين : أن النسبة الأولى : تكون بالعمق فقط ، والنسبة الثانية : تكون بالعرض والعمق جميعاً .

أعني أن الأولى : تقع بين السككين والجزئيين . وهو بالعمق أشبه ، والثانية : تقع بالعرض في الجزئيين ، وقد تقع بين السككين والجزئيين أيضاً .

---

( ١ ) البر : الثياب ، والسلاح . والبراز : ضائهما . والإسكاف : الخراز ، وصانع الأحذية ومصالحها .

وأما العدالة التي تقع في المظالم ، والأمور القسمية : فهي بالنسبة المساحية أشبه .  
وذلك أن الإنسان متى كان على نسبة من إنسان آخر : فأبطل هذه النسبة بحيف ،  
أو ضرر يلحقه به : فإن العدالة توجب أن يلحق به ضرر مثله : ليعود التناسب  
إلى ما كان عليه .

فالعادل : من شأنه أن يساوي بين الأشياء الغير المتساوية <sup>(١)</sup> .  
مثال ذلك : أن الخط إذا قسم بقسمين غير متساويين : نقص من الزائد ، وزاد على  
الناقص : حتى يحصل له التساوى ، ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ، ومعنى الزيادة  
والنقصان .

وكذلك الخفة والثقيل ، وجميع ما أشبه ذلك .  
ولسكن ينبغي أن يكون طالما بطبيعة الوسط : حتى يمكنه أن يرد الطرفين إليه .  
مثال ذلك : الريح والخسران . فإنهما في باب المعاملات طرفان : أحدهما زيادة ،  
والآخر نقصان ، فإذا أخذ أقل مما يجب : صار إلى جانب النقصان ، وإن أخذ أكثر  
مما يجب : كان خارجاً إلى جانب الزيادة .

## لزوم الشريعة في المعاملات

والشريعة : هي التي ترسم في كل واحد من هذه الأشياء : التوسط والاعتدال .  
لأن الناس : هم مدنيون بالطبع ، ولا يتم لهم عيش : إلا بالتعاون ، فيجب أن بعضهم  
يخدم بعضاً ، ويأخذ بعضهم من بعض ، ويعطى بعضهم بعضاً : فهم يطلبون المكافأة المناسبة .

---

( ١ ) الغير المتساوية . الصواب أن يقول : غير المتساوية : لأن غير : لا تدخل عليها أداة  
التعريف : لشدة ابهامها .

فإذا أخذ الإسكاف من النجار عمله ، وأعطاه عمله : فهي المعاوضة : إذا كان العملان متساويين ، ولكن ليس يمنع مانع : أن يكون عمل الواحد خيراً من عمل الآخر ، فيكون الدينار هو المقوم والمسوى بينهما .

فالدينار هو عدل ومتوسط : إلا أنه ساكت . والإنسان الناطق : هو الذى يستعمله ويقوم به جميع الامور : التى تكون بالمعاملات : حتى تجرى على استقامة ونظام ، ومناسبة صحيحة عادلة .

ولذلك يستعان بالحاكم الذى هو عدل ناطق : إذا لم يستقم الامر بين الخصمين بالدينار : الذى هو عدل ساكت .

وأرسطوطاليس يقول : إن الدينار ناموس هادل .

ومعنى الناموس فى لغته : السياسة والتدبير ، وما أشبه ذلك . فهو يقول فى كتابه المعروف بـ"نيقوماخيا" : إن الناموس الأكبر : هو عند الله تبارك وتعالى ، والحاكم : ناموس ثان من قبله ، والدينار : ناموس ثالث .

فناموس الله تعالى : قدوة التواميس كلها .

يعنى الشريعة ، والحاكم الثانى : مقتد به ، والدينار مقتد ثالث .

ولأنما قومت الأشياء المختلفة : بالاثمان المختلفة : لتصح المشاركات والمعاملات ، ويتبين وجه الأخذ والإعطاء .

فالدينار هو الذى يسوى بين المختلفات ، ويزيد فى شئ وينقص فى آخر ، حتى يحصل بينهما الاعتدال : فتستوى المعاملة بين الفلاح والتجار مثلاً .

وهذا هو العدل المدنى .

وبالعدل المدنى : عمرت المدن ، وبالجزر المدنى : خربت المدن .

وليس يمنع مانع : من أن يكون عمل يسير : يساوى عملاً كثيراً .

مثال ذلك : أن المهندس ينظر نظراً قليلاً ، ويعمل عملاً يسيراً . ويساوى نظره هذا عملاً كثيراً من أقوام يكدون بين يديه ، ويعملون بما يرسمه .  
وكذلك صاحب الجيش : يكون تدبيره ونظره يسيراً ، ولكنه يساوى أعمالاً كثيرة : بما يحارب بين يديه ، ويعمل الأعمال الثقيلة العظيمة .  
فالجائر : يبطل التساوى . وهو عند أرسطوطاليس على ثلاث منازل .  
والجائر الأعظم : هو الذى لا يقبل الشريعة ، ولا يدخل تحتها .  
والجائر الثانى : وهو الذى لا يقبل قول الحاكم العادل : فى معاملاته وأموره كلها .  
والجائر الثالث : هو الذى لا يكتسب ، ويغتصب الأموال : فيعطى نفسه أكثر مما يجب لها ، وغيره أقل مما يجب له .  
قال : فالمستمسك بالشريعة يعمل بطبيعة المساواة : فيكتسب الخير والسعادة : من وجوه العدالة . لأن الشريعة تأمر بالاشياء المحموده ، لأنها من عند الله عز وجل . فلا تأمر إلا بالخير ، وإلا بالاشياء التى تفعل السعادة .  
وهى أيضاً تنهى عن الرذائل البدنية . وتأمر بالشجاعة ، وحفظ الترتيب ، والثبات فى مصاف الجهاد ، وتأمر بالعفة : وتنهى عن الفسوق ، وعن الافتراء ، والشتم ، والهجر . وبالجملة تأمر بجميع الفضائل ، وتنهى عن جميع الرذائل .  
فالعادل : يستعمل العدالة فى ذاته ، وفى شركائه المدنيين .  
والجائر : يستعمل الجور فى ذاته ، وفى أصدقائه ، ثم فى جميع شركائه المدنيين .  
قال : وليست العدالة جزء من الفضيلة : بل هى الفضيلة كلها ، ولا الجور : الذى هو ضدها جزء من الرذيلة . لكنه الرذيلة كلها ، فبعض أنواع الجور : ظاهر يفعل بالإرادة مثل ما يكون فى البيع ، والشراء ، والكفالات ، والقروض ، والحوارى<sup>(١)</sup> وبعضها خفى : يفعل أيضاً بالإرادة ، مثل السرقة ، والفجور ، والقيادة ، وخداع المالك ، وشهادة الزور .  
وبعضها غشسمى<sup>(٢)</sup> على سبيل التغلب . مثل التعذيب بالدهق<sup>(٣)</sup> والقيود ، والأغلال .

( ١ ) الحواري : جمع عارية . وهى الشيء المعار .

( ٢ ) الغشسمى : الظلم . ( ٣ ) الدهق : خشيستان ، يصر بهما الساق للتعذيب .

# الإمام العادل

فالإمام العادل : الحاكم بالسوية : يبطل هذه الأنواع ، ويخلف صاحب الشريعة :  
في حفظ المساواة .

فهو لا يعطى ذاته من الخيرات : أكثر مما يعطى غيره .

ولذلك قيل في الخبر : إن الخلافة تطهر الإنسان .

قال : فأما العامة فإنها تؤهل لمرتبة الإمامة : التي هي الخلافة العامة بما ذكرناه :  
من كان شريفاً في حسيبه ونسبه . وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال .

وأما العقلاء : فإنهم يؤهلون لذلك : من كان حكيماً فاضلاً : فإن الحكمة والفضيلة :  
هي التي تعطى الرياسات ، والسيادات الحقيقية . وهي التي رتبنا الثاني والأول في  
مرتبتيهما ، وفضلتهما .

## أسباب المضرات

وأسباب المضرات كلها : تنقسم إلى أربعة أنواع .

أحدها : الشهرة ، والرداءة التابعة لها .

والثاني : الشرارة ، والجور التابع لها .

والثالث : الخطأ ، ويتبعه الحزن .

والرابع : الشقاء .

أما الشهرة : فإنها تحمل الإنسان على الإضرار بغيره ، إلا أنه لا يكون مؤثراً له ، ولا ملتزماً به . ولكنه يفضله ليصل به إلى شهوته ، وربما كان متألماً به كارهاً له ، إلا أن قوة الشهوة ، تحمله على ارتكاب ما يرتكبه .

وأما الشرير : فإنه يعتمد الإضرار بغيره : على سبيل الإيثار له ، والالتذاذ به . كن يسمى إلى السلطان ، ويحمله على إزالة نعمة لا يصل إليه منها شيء ، ولكن يلتذ بالمسكروه الذي يصل إلى غيره .

وأما الخطأ : فإن صاحبه لا يقصد الإضرار بغيره ، ولا يؤثره ، ولا يلتذ به . بل يعتمد فعلاً ما : فيعرض منه فعل آخر .

وصاحب الفعل : يحزن ويكتئب ، لما اتفق إليه من الخطأ .

وأما الشقاء : فصاحبه لا يكون هذا مبدأ فعله ، ولا له فيه صنع بالقصد . بل يوقعه فيه سبب آخر من عارج .

وذلك كن تصدم به دابته صديقاً له فتقتله .

فهذا يسمى شقياً ، وهو مرحوم معذور : لا يجب عليه عتب ولا عقوبة .

وأما السكران ، والغضباني ، والغيران : إذا فعلوا فعلاً قبيحاً : فإنهم يستحقون العتب ، والتفويه : لأن مبتدأ أفعالهم منهم .

وذلك أن السكران باختياره : أزال عقله ، والغضباني والغيران : اختارا الانقياد بهاتين القوتين إذا ما جتا بهما .

ونعود إلى ما كنا فيه من ذكر العدالة فنقول :

# تقسيم العدالة

إن أرسطوطاليس : قسم العدالة إلى أقسام ثلاثة . أحدها : ما يقوم به الناس لرب العالمين .

وهو أن يجرى الإنسان فيما بينه وبين الخالق عز وجل : على ما ينبغي ، وبحسب ما يجب عليه من حقه ، وبقدر طاقته .

وذلك أن العدل إذا كان هو إعطاء ما يجب ، من يجب ، كما يجب .

فنالحال : أن لا يكون لله تعالى الذي وهب لنا هذه الخيرات العظيمة : واجب ينبغي أن يقوم به الناس .

والثاني : ما يقوم به بعض الناس لبعض : من أداء الحقوق ، وتعظيم الرؤساء ، وتأدية الأمانات ، والنصفة في المعاملات .

والثالث : ما يقومون به من حقوق أسلافهم : مثل أداء الديون عنهم ، وإنفاذ وصاياهم ، وما أشبه ذلك . فهذا ما قاله أرسطوطاليس .

وأما تحقيق ما قاله بما يجب لله عز وجل : وإن كان ظاهراً : فإننا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع .

وهو أن العدالة لما كانت تظهر في الأخذ والإعطاء ، وفي الكرامة التي ذكرناها .

وجب أن يكون لما يصل إلينا من عطيات الخالق عز وجل ، ونعمه التي لا تحصى : حق يقابل عليه .

وذلك أن من أعطى خيراً ما ، وإن كان قليلاً . ثم لم ير أن يقابله بضرب من المقابلة : فهو جائر . فكيف به إذا أعطى جراً كثيراً ، وأخذ أخذاً دائماً : ثم لم يمد في مقابلته شيء البتة .

ثم على قدر النعمة التي تصل إلى الإنسان : يجب أن يكون اجتهاده في المقابلة عليها .

مثال ذلك : أن الملك الفاضل : إذا أمن السرب<sup>(١)</sup> ، وبسط العدل ، وأوسع العهدة ، وحى الحريم ، وذب عن الخوذة ، ومنع من التظالم ، ووفر الناس على ما يختارونه ، من مصالحهم ومما يشتم : فقد أحسن إلى كل واحد من رعيته : إحساناً يخصه في نفسه ، وإن كان قد عمهم بالخير ، واستحق من كل واحد منهم أن يقابله بضرب من المقابلة : متى قعد عنه : كان جائراً إذ كان يأخذ لعمته ، ولا يعطيه شيئاً .

لكن منابلة الملك الفاضل من رعيته : إنما تكون بإخلاص الدعاء ، ونشر المحاسن ، وجميل الشكر ، وبذل الطاعة ، وترك المخالفة ، في السر والعلانية ، والمحبة الصادقة ، والافتقار بسيرته نحو الاستطاعة ، والافتقار به في تدبير منزله وأهله وولده وعشيرته .

فإن نسبة الملك إلى مدينته ورعيته : كنسبة صاحب المنزل إلى منزله وأهله .

فلم يقابل ذلك الإحسان بهذه الطاعة والمحبة : فقد جار وظلم ، وهذا الظلم والجور : إذا كان في مقابلة النعم الكثيرة : فهو أخش وأفبح .

وذلك أن الظلم وإن كان في نفسه قبيحاً : فإن مراتبه كثيرة .

لأن مقابلة كل نعمة : إنما تكون بحسب منزلتها وموقعها ، وبقدر فائدتها وعائدتها ، وعلى مقدار عددها .

فإن كانت النعم كثيرة العدد ، وعظيمة الوقع . فكيف يكون حال من لا يلزم لها حقاً ، ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ، ولا شكر ، ولا محبة صادقة ، ولا مسعاة صالحة .

( ١ ) السرب : الطريق والوجهة .



فإذا كان هذا معروفاً غير منكور ، واجباً غير يحدود : في ملوكنا ورؤسائنا :  
فبالأحرى أن يكون لملك الملوك الذى يصل إلينا في كل طرفه عين : ضروب إحسانه  
الفائض ، على أجسادنا ونفوسنا : التى لا يقع عليها إحصاء ولا عدد ، من الحقوق الواجب  
علينا القيام بها ، والنهوض بتأديتها .

أترانا نجهل النعمة الأولى علينا بالوجود ، ثم تتابعها متواترة بعد ذلك بالخلق  
الجسدانى : الذى أفنى فيه عاصب كتابى التشرىح ، ومنافع الأعضاء : ألف ورقة : ثم لم يبلغ  
بعض ما عليه كنه الأمر .

أما ترانا نجهل ما وهب لنا من نفوسنا ، وما ركب فيها من القوى والملكات : التى  
لا نهاية لها ، وما أمدّها به من فيض النعم ، ونوره وبهائه ، وبركانه ، وما عرضنا به للملك  
الأبدى ، والنعيم السرمدى !

( لا ) : لعمرى ما يجهل هذه النعمة إلا النعم<sup>(١)</sup> .

فأما الإنسان فيعرف من ذلك ما يضطره إليه مشاهدة أحواله في جميع أوقاته .  
وإذا كان الخالق تعالى : غنياً عن معاونتنا ومساعدتنا : فمن المحال والقيح ، والجور  
الفاحش : أن نلتزم له نحن حقاً ، ولا نقابله على هذه الآلاء والنعيم : بما يرزى عنا سمة  
الجور ، والخروج عن شريطة العدل !

## ما يجب على الإنسان تخالفه

إن أرسطوطاليس : لم ينص في هذا الموضع على العبادة التى يجب أن نلتزمها لخالقنا  
عز وجل . غير أنه قال ما معناه :

وقد اختلف الناس فيما ينبغي أن يقوم به المخلوقون لخالقهم .

( ١ ) النعم : أى الأنعام .

فبعضهم رأى أنه : صلوات وصيام ، وخدمة هيا كل ، ومصليات ، وقرابين .  
وبعضهم رأى أن يقتصر على الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بإحسانه ، وتمجيده  
بحسب استطاعته .

وبعضهم رأى أن يتقرب إليه : بأن يحسن إلى نفسه : بتزكيتها ، وحسن سياستها ،  
والإحسان إلى المستحقين من أهل نوعه : بالمواساة ، ثم بالحسنة والموعظة .  
وبعضهم رأى اللهج بالفكر في الإلهيات ، والتصرف نحو المحاولات : التي يتزايد بها  
الإنسان من معرفة ربه عز وجل : حتى تتكامل معرفته به ، وبحقيقة وحدانيته ، وصرف  
الوكد إليه<sup>(١)</sup> .

وبعضهم رأى أن الواجب للرب جل ذكره على الناس : ليس سبيله واحداً ، ولا هو  
شيء بعينه : يلتزمه الجميع التزاماً واحداً ، وعلى مثال واحد : لكنه يختلف بحسب اختلاف  
طبقات الناس ، ومراتبهم من العلم .  
فهذا ما قاله أرسطوطاليس بالفاظه المنقولة إلى العربية .

وأما الحدث من الفلاسفة : فإنهم قالوا : إن عبادة الله عز وجل على ثلاثة أنواع :  
أحدها : فيما يجب له على الأبدان : كالصلاة والصيام ، والسعى إلى المواقف الشريفة :  
لمناجاة الله عز وجل .

والثاني : فيما يجب له على النفوس : كالاقتادات الصحيحة ، وكالعلم بتوحيد الله  
عز اسمه ، وما يستحقه من الثناء والتمجيد ، وكالفكر فيما أفاضه على العالم من وجوده  
وحكمته ، ثم الاتساع في هذه المعارف .

والثالث : فيما يجب له عند مشاركات الناس : في المدن ، وهي في المعاملات ،  
والمزارعات ، والمناكح ، وفي تأدية الأمانات ، مع نصيحة البعض للبعض : بضروب  
المعاونات ، وعند جهاد الأعداء ، والذب عن الحرم ، وحماية الحوزة .  
قالوا : فهذه هي العبادات ، وهي الطرق المؤدية إلى الله عز وجل .

---

(١) الوكد : وكد : أى قصد وأصاب .

— ١٣٥ —

وهذه الأنواع وإن كانت معدودة ومحصورة : فإنها منقسمة إلى أنواع كثيرة ، وأقسام غير محصاة .

وللإنسان مقامات ، ومنازل ، عند الله عز وجل .

فالمقام الأول : للوقنين . وهو رتبة الحكماء ، وأجلة العلماء .

والمقام الثاني : مقام المحسنين . وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون ، وهو ما ذكرناه في كتابنا هذا : من الفضائل والعمل بها .

والمقام الثالث : مقام الأبرار . وهو رتبة المصلحين . وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة : في إصلاح العباد والبلاد .

والمقام الرابع : مقام الفائزين . وهو رتبة المخلصين في المحبة ، وإليها تنتهي رتبة الاتحاد ، وليس بعدها منزلة ، ولا مقام لمخلوق .

ويسعد الإنسان بهذه المنازل : إذا حصلت له أربع خلال .

أولها : الحرص والنشاط .

والثاني : العلوم الحقيقية ، والمعارف اليقينية .

والثالث : الحياء من الجهل ، ونقصان القريحة : اللذين يحدثان بالإهمال .

والرابع : لزوم هذه الفضائل والترقى فيها دائماً ، بحسب الاستطاعة ، فهذه أسباب الاتصال .

## أسباب الانقطاع عن الله

- وأما أسباب الانقطاعات عن الله عز وجل والمساقط : وهى التى تعرف باللبائن .
- فأولها : السقوط : الذى يستحق به الإعراض ، ويتبعه الاستهانة .
- والثانى : السقوط : الذى يستحق به الحجاب ، ويتبعه الاستخفاف .
- والثالث : السقوط : الذى يستحق به الطرد . ويتبعه المقت .
- والرابع : السقوط : الذى يستحق به الخساسة ، ويتبعه البغض .
- وإنما يشقى العبد : إذا حصل على أربع خلال .
- أولها : الكسل ، والبطالة ، ويتبعهما ضياع الزمان وفناء العمر : بغير فائدة إنسانية .
- والثانى : الغباوة والجهل : المتولدان عن ترك النظر ، ورياضة النفس : بالتحاليم التى أحصيناها فى كتاب مراتب السعادات .
- والثالث : الوقاحة : التى ينتجها إهمال النفس إذا تقيمت الشهوات ، وترك زمامها لركوب الخطايا والسيئات .
- والرابع : الانهماك الذى يحدث من الاستمرار فى القباح ، وترك الإنابة .
- وهذه الأنواع الأربعة : مسماة فى الشريعة بأربعة أسماء . فالأول : هو الزينج ، والثانى : هو الرين ، والثالث : هو الغشاوة ، والرابع : هو الخنم ، ولكل واحدة من هذه الشقاوات : علاج خاص سنذكره عند مداواة أسقام النفس : حتى تعود إلى الصحة بإذن الله عز وجل .
- وهذه الأشياء التى عددناها الآن : لا خلاف بين الحكماء فيها ، وبين أصحاب الشرائع ، وإنما تختلف بالعبارات والإشارات إليها : بحسب اللغات .

وأفلاطون يقول : إن العدالة إذا حصلت للإنسان : أشرق بها كل واحد واحد : من أجزاء النفس ، وذلك لحصول فضائلها أجمع فيها ، حينئذ تنهض النفس : فتؤدى فعلها الخاص بها : على أفضل ما يكون ، وهو غاية قرب الإنسان السعيد من الإله تقدس اسمه . قال : والعدالة توسط ليس على جهة التوسط الذى فى الفضائل التى تقدم ذكرها . لكن لأنها فى الوسط ، والجور فى الطرفين .

وإنما صار الجور فى الطرفين : لأنه زيادة ونقصان .

وذلك أن من شأن الجور : طلب الزيادة والنقصان معاً .

أما الزيادة : فمن النافع على الإطلاق . وأما النقصان فمن الضار .

فلذلك يكون الجائر مستعملاً للزيادة والنقصان ، أما لنفسه : فيستعمل الزيادة فى النافع ، وأما لغيره : فيستعمل النقصان منه <sup>(١)</sup> . وأما فى الضرر فبالضد ، وعلى العكس . وذلك أنه أما لنفسه : فيستعمل النقصان منه ، وأما لغيره : فيستعمل الزيادة والفضائل التى قلنا : إنها أوساط بين الرذائل ، وهى غايات ونهايات .

وذلك أن الوسط ههنا : نهاية لها من كل جهة ، فبوفى غاية البعد منها . ولذلك متى بعد عن الوسط زيادة بعد : قرب من رذيلة ، كما قلنا فيما تقدم .

فقد تبين من جميع ما قدمنا : أن الفضائل كلها : اعتدالات ، وأن العدالة اسم يشملها ويعمها كلها . وأن الشريعة لما كانت تقدر الأفعال الإرادية ، التى تقع بالروية ، وبالوضع الإلهى : صار المتمسك بها فى معاملاته عدلاً ، والمخالف لها جائراً .

فلنبدأ قلنا : إن العدالة لقب للمتمسك بالشريعة ، إلا أننا قد قلنا مع ذلك : إنها هيئة نفسانية تصدر عنها هذه الفضيلة ، فتصور هذه الهيئة النفسانية : فإنك سترى رؤية واضحة : أن صاحبها يتقاد ولا يحالة للشريعة طوعاً ، ولا يضادها بنوع من أنواع التضاد ، وذلك أنه إذا حافظ على المناسبات التى ذكرناها : لأنها مساواة : وآثرها بعد إجمالة رأى فيها على سبيل الاختيار لها ، والرغبة فيها : وجب عليه موافقة الشريعة ، وترك مخالفتها .

---

( ١ ) قال تعالى « ويل للعالمين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون » أى ينقصون .

وأقل ما تكون المساواة بين اثنين ، ولكنها تكون في معاملة مشتركة بينهما : وهو الشيء الثالث ، وربما كانا شيئين كما قلنا ، فتصير المناسبات كما بينا : بين أربعة أشياء .

وينبغي أن يعلم أن هذه الهيئة النفسانية : هي غير الفعل ، وغير المعرفة ، وغير القوة . أما الفعل : فلأننا قد بينا أنه قد يقع على غير هيئة نفسانية : كمن يعمل أعمال العدالة : وليس بمعادل . وكن يعمل أعمال الشجاعة : وليس بشجاع .

وأما القوة والمعرفة : فلأن كل واحدة منهما هي بعينها للضدين معاً . فإن العلم بالضدين واحد ، وكذلك القوة على الضدين قوة واحدة . وأما الهيئة القابلة لأحد الضدين : فهي غير الهيئة القابلة للضد الآخر .

ومثال ذلك : هيئة الشجاعة : فإنها غير هيئة الجبن ، وكذلك هيئة العفة : غير هيئة الشره ، وهيئة العدالة غير هيئة الجور .

ثم إن العدالة ، والخيرية : يشتركان في باب المعاملات ، والاعخذ والإعطاء . إلا أن العدالة : تقع في اكتساب المال على الشروط التي قدمنا القول فيها . والخيرية ، تقع في انفاق المال على الشروط التي ذكرناها أيضاً .

ومن شأن من يكتسب : أن يأخذ . فهو بالمنفعل أشبه . ومن شأن المنفق : أن يعطي . فهو بالفاعل أشبه .

فلهذه العلة : تكون محبة الناس للخير : أشد من محبتهم للمعادل . إلا أن نظام العالم بسبب العدالة : أكثر منه بالخيرية .

وخاصة الفضيلة : هي في فعل الخير ، لا في ترك الشر .

وخاصة محبة الناس وحدهم : في بذل المعروف : لا في جمع المال .

فالخير : لا يكرم المال ، ولا يجمعه لذاته : بل ليصرفه في وجوهه التي يكتسب بها المحبات والمحامد .

ومن خاصة الخير : أن لا يكون كثير المال : لأنه منفاق ، ولا يكون أيضاً فقيراً : لأنه كسوب من حيث ينبغي ، وهو غير متكاسل عن الكسب البتة . لأنه بالمال يصل إلى فضيلة الخيرية . ولذلك لا يضيع المال ، ولا يستعمل فيه التبذير ، ولا يشح أيضاً : فلا يستعمل التقدير .

فكل خير عادل . وليس كل عادل خيراً .

## مسألة عويصة : أولى

وفي هذا الموضع مسألة عويصة : سأل عنها الحكماء أنفسهم ، وأجابوا عنها بجواب مقنع . ويمكن أن يجاب فيها بجواب آخر : أشد إقناعاً . ويجب أن نذكر الجميع وهو أن لشاك أن يشك . فيقول : إذا كانت العدالة فعلاً اختيارياً يتعاطاه العادل ، ويقصد به تحصيل الفضيلة لنفسه ، والمحمدة من الناس . فيجب أن يكون الجور : فعلاً اختيارياً : يتعاطاه الجائر ، ويقصد به تحصيل الرذيلة لنفسه : ومذمة الناس . ومن القبيح الشنيع : أن يظن بالإنسان العاقل : أنه يقصد الإضرار بنفسه بعد الروية ، وعلى سبيل الاختيار . ثم أجابوا عن ذلك ، وحلوا هذا الشك : بأن قالوا : إن من ارتكب فعلاً يؤديه إلى ضرر أو عذاب : فإنه يكون ظالماً لنفسه ، وضاراً لها : من حيث يقدر أنه ينفعها . وذلك لسوء اختياره ، وترك مشاورة العقل فيه .

مثال ذلك : الحاسد ، فإنه ربما جنى على نفسه : لا على سبيل إثارة الأضرار بها . بل لأنه يظن أنه ينفعها في العاجل : بالخلاص من الأذى الذي يلحقه من الحسد . هذا جواب القوم .

وأما الجواب الآخر : فهو أن الإنسان : لما كان ذا قوى كثيرة : يسمى مجموعها إنساناً واحداً : لم ينكر أن تصدر عنه أفعال مختلفة ، بحسب تلك القوى . وإنما المنكر :

أن يكون الشيء الواحد البسيط ذو القوة الواحدة : تقع منه بتلك القوة أفعال مختلفة : لا بحسب الآلات المختلفة ، ولا بقدر القابلات منه : بل بتلك القوة الواحدة فقط . فهذا لعمرى : منكر شنيع ! ولكن الإنسان قد تبين من حاله أن له قوى كثيرة : فيعمل بكل قوة عملاً مخالفاً للعمل بالآخرى .

أعنى أن صاحب الغضب إذا استشاط : يختار أفعالا مخالفة لأفعاله : إذا كان ساكناً وديماً .

وكذلك صاحب الشهوة الهائجة ، وصاحب النشوة الطروب : فإن من شأن هؤلاء أن يستخدموا العقل الشريف : في تلك الأحوال ، ولا يستشيرونه . ولذلك تجد العاقل إذا تغيرت أحواله تلك : فصار من الغضب إلى الرضا ، ومن السكر إلى الإفاقة : تعجب من نفسه ، وقال : ليت شعري كيف اخترت تلك الأفعال القبيحة ؟ ويلحقه الندم . وإنما ذلك : لأن القوة التي تهيج به : تدعوه إلى ارتكاب فعل : يظنه في تلك الحال صالحاً له ، جميلاً به : لئتم له حركة القوة الهائجة به ، فإذا سكن عنها ، وراجع عقله : رأى قبح ذلك الفعل وفساده .

وقوى الإنسان التي تدعوه إلى ضروب الشهوات ، ومحبة السكرات كثيرة جداً ، فهو بحسب قواه الكثيرة : تكون أفعاله كثيرة .

فإذا تعود الإنسان أن تكون سيرته فاضلة ، ولم يقدم على شيء من أفعاله إلا بعد مطالعة العقل الصريح ، وبعد مراعاة الشريعة القويمة : كانت أفعاله كلها منتظمة غير مختلفة ، ولا خارجة عن سنن العدل ، أعنى المساواة التي قدمنا القول فيها .

ولهذا السبب قلنا : إن السعيد هو من اتفق له في صباه : أن يأخذ بالشريعة ، ويستسلم لها ، ويتعهد جميع ما تأمره به : حتى إذا بلغ المبلغ الذي يمكنه به أن يعرف الأسباب والعلل : طالع الحكمة : فوجدوها موافقة لما تقدمت عاداته به ، فاستحكم رأيه ، وقويت يصيرته ، وفقدت عزيمته !



## مسألة عويصة : ثمانية

وهذه مسألة عويصة : أشد من الأولى ، وهو أن التفضل : لله محمود جداً ، وليس يقع تحت العدالة ، لأن العدالة كما ذكرنا : مساواة . والتفضل : زيادة . وقد حكمت أن العدالة تجمع الفضائل كلها ، ولا مزيد عليها ، بل يجب أن تكون الزيادة عليها مذمومة ، كما أن النقصان عنها مذموم ، ليكون الشرف الوسط الذي تقدم وصفه في سائر الأخلاق : حاصلًا للعدالة .

فالجواب عنها : أن التفضل احتياط يقع من صاحبه في العدالة : ليأمن به وقوع النقص في شيء من شرائطها ، وليس الوسط في كلا الطرفين : من الأخلاق ، على شريطة واحدة ، وذلك أن الزيادة في باب السخاء : إذا لم تخرج إلى باب التبذير : أحسن من النقصان فيه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، فتصير كاحتياط فيه ، والأخذ بالحزم فيه .

وأما العفة : فإن النقصان من الوسط فيها : أحسن من الزيادة عليه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، وأبلغ في الاحتياط عليه ، وأخذ الحزم فيه ، ومع ذلك فليس يستعمل التفضل إلا حيث تستعمل العدالة .

وأعني بذلك : أن من أعطى ماله من لا يستحق شيئاً منه ، وترك مواساة من يستحقه : لا يسمى متفضلاً ، بل مضيقاً .

ولأنما يكون متفضلاً : إذا أعطى من يستحق كل ما يستحق ، ثم زاده تفضلاً ، وهذه الزيادة ليست من الزيادة التي ذكرناها في باب السخاء ، لأن تلك الزيادة : ذهب إلى الطرف الذي يسمى تبذيراً وهو مذموم ، ويعرف ذلك من حده ، وهو بذل ما لا ينبغي ، كما لا ينبغي ، في الوقت الذي لا ينبغي .

فإذا التفضل : غير خارج عن شرط العدالة ، بل هو احتياط فيها ، ولذلك قيل : إن المتفضل أشرف من العادل .

فقد بان أن التفضل : ليس غير العدالة . بل هو العدالة مع الاحتياط فيها . وكأنه مبالغة ، لا يخرجها عن معناها . لأن هذه الهيئة النفسانية : ليست غير تلك الهيئة بل هي . فأما الأطراف التي هي رذائل ، أعنى الزيادة والنقصان : التي سبق القول فيهما ، فهي كلها هيئات مذمومة : غير الهيئات المحمودة .

وحذوذ هذه الأشياء : هي التي تحصل لك معانيها ، ومشاركة بعضها لبعض ، ومباينة بعضها لبعض .

وأيضاً فإن الشريعة تأمر بالعدالة أمراً كلياً ، وليست تنحط إلى الجزئيات .

وأعنى بذلك : أن العدالة التي هي المساواة : تكون مرة في باب السك ، ومرة في باب الكيف ، وفي سائر المقولات . وبيان ذلك : أن نسبة الماء إلى الهواء مثلاً : ليست تكون بالسكية ، بل بالسكيفية ، ولو كانت بالسكية : لوجب أن يكونا متساويين في المساحة ولو كانا كذلك لتغالبا ، وأحال أحدهما الآخر إلى ذاته .

وكذلك النار ، والهواء : ولو أحالت هذه العناصر بعضها بعضاً : لفتى العالم في أقرب مدة .

واسكن الباري تقدس اسمه : عدل بين هذه بالقوة فتقاومت ، فليس يغلب أحد الآخر بالسكية ، وإنما يحيل الجزء منها الجزء في الأطراف . أعنى حيث تلتقي نهاياتها .

وأما كلياتها : فلا تقدر على كلياتها : لأن قواها متساوية ، متعادلة على غاية التسوية والتعادل .

وبهذا النوع من العدل قيل : بالعدل قامت السموات والأرض ، ولو رجح أحدهما على الآخر بزيادة يسير قوة : لأحال الزائد الناقص ، وقوى عليه . فبطل العالم ، فسبحان القاسم بالقسط لا إله إلا هو !

## الشرعية تأمر بالعدالة

ولما كانت الشريعة تأمر بالعدالة الكاملة : لم تأمر بالتفضل الكلى ، بل نذبت إليه ندباً : يستعمل في الجزئيات : التي لا يمكن أن تعين عليها ، لأنها بلا نهاية ، وجزمت القول في العدالة الكلية : لأنها محصورة ، يمكن أن تعين عليها . .  
وقد تبين أيضاً مما قدمنا : أن التفضيل إنما يكون في العدالة التي تخص الإنسان في نفسه .

أعني تسوية المعاملة أولاً : فيما بينه وبين غيره ، ثم الاستظهار فيه ، والاحتياط عليه : بما يكون تفضلاً ، ولو كان حاكماً بين قوم ، ولا نصيب له في تلك الحكومة : لم يحز له التفضل ، ولم يسمع إلا العدل المحض ، والتسوية الصحيحة : بلا زيادة ولا نقصان ، وتبين أيضاً أن الهيئة التي تصدر عنها الأفعال العادلة : متى نسبت إلى صاحبها : سميت فضيلة ، وإذا نسبت إلى من يعامل بها : سميت عدالة ، وإذا اعتبرت بذاتها : سميت ملكة نفسانية .

فاستعمال المرء العاقل ، العدل على نفسه : أول ما يلزمه ويجب عليه .

وقد ذكرنا فيما تقدم : كيف يفعل ذلك ؟ وبيننا كيف يعدل قواه الكثيرة إذا حاج به بعضها ، وأشرنا إلى أجناس هذه القوى الكثيرة ، وأن بعضها يكون بالشهوات المختلفة ، وبعضها يطلب الكرامات الكثيرة ، وأنها إذا تغالبت ، وتهاجمت : حدث في الإنسان باضطرابها أنواع الشر ، وجذبته كل واحدة منها إلى ما يوافقها . وهكذا سبيل كل مركب من كثرة : إذا لم يكن لها رئيس واحد : ينظمها ويوحد ما .

وأرسطوطاليس : يشبه من كان كذلك : بمن يجذب من جهات كثيرة : فينقطع بينها ،  
وينشق بحسب تلك الجهات وقواها .

وليس ينظم هذه السكثرة التي ركب الإنسان منها : إلا الرئيس الواحد : الموهوب له  
من الفطرة . أعنى العقل الذى به يتميز من البهائم ، وهو خليفة الله عز وجل عنده . فإن  
هذه القوى كلها إذا ساسها العقل : انتظمت . وزال عنها سوء النظام الذى يحدث من  
السكثرة . وجميع ما ذكرنا من إصلاح الأخلاق : مبنى عليه . فإذا تم للإنسان ذلك .  
أعنى أن يعدل على نفسه ، وأحرز هذه الفضيلة : فقد لزمه أن يعدل على أصدقائه ، وأهله ،  
وعشيرته ، ثم يستعمله فى الأبعاد ، وسائر الحيوان . وإذا قد صح ذلك وظهر ظهوراً  
حسبياً : فقد ظهر بظهوره : أن شر الناس من جار على نفسه . ثم على أصدقائه وعشيرته ،  
ثم على كافة الناس والحيوان ، لأن العلم بأحد الضدين : هو العلم بالضد الآخر . فخير الناس :  
العادل ، وشرهم الجائر . كما تبين ذلك .

وقد ادعى قوم أن نظام أمر الموجودات كلها ، وصلاح أحوالها : معلق بالمحبة ،  
وقالوا : إن الإنسان إنما اضطر إلى اقتناء هذه الفضيلة . أعنى الهيئة التى تصدر عنها العدالة  
عند تعاظمى المعاملات : لما فاته شرف المحبة ، ولو كان المتعاملون أحماء : لتنافسوا ،  
ولم يقع بينهم خلاف ، وذلك أن الصديق يحب صديقه ، ويريد له ما يريد لنفسه ، ولا تتم  
الثقة والتعاقد ، والتوازر : إلا بين المتحابين .

وإذا تعاضدوا ، وجمعهم المحبة : وصلوا إلى جميع المحبوبات ، ولم تتعذر عليهم  
المطالب ، وإن كانت صعبة شديدة .

وحينئذ ينشئون الآراء الصائبة ، وتعاون العقول على استخراج الغوامض من التدابير  
القويمة ، ويقومون على نيل الخيرات كلها بالتعاقد .

وهؤلاء القوم : إنما نظروا إلى فضيلة التأحد<sup>(١)</sup> : التى تحصل بين السكثرة . ولم يعمروا  
أنها أشرف غايات أهل المدينة .

( ١ ) المقصود بالتأحد هنا : بأن يكون الجميع كالشخص الواحد . وهى فضيلة : لا تعدلها فضيلة .

وذلك أنهم إذا تحابوا : تواصلوا ، وأراد كل واحد منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه . فتصير القوى الكثيرة واحدة ، ولم يتعذر على أحد منهم رأى صحيح ، ولا عمل صواب ، ويكون مثلهم في جميع ما يحاولونه مثل من يريد تحريك ثقل عظيم بنفسه ، فلا يطيق ذلك .

فإن استعمال بقوة غيره : حركة .

ومدير المدينة : إنما يقصد بجميع تدابيرها : إيقاع المودات بين أهلها ، وإذا تم له هذا خاصة : فقد تمت له جميع الخيرات : التي تتعذر عليه وحده ، وعلى أفراد أهل مدينته . وحينئذ يغلب أفرانه ، ويعمر بلدانه ، ويعيش هو ورعيته : مغبوطين . ولكن هذا التآحد : المطلوب بهذه المحبة ، المرغوب فيها : لا يتم إلا بالآراء الصحيحة : التي يرجى الاتفاق من العقول السليمة عليها ، والاعتقادات القوية : التي لا تحصل إلا بالديانات : التي يقصد بها وجه الله عز وجل .

وأصناف المحبات كثيرة ، وإن كانت ترتقى كلها إلى وجه واحد . وسنقول فيها بمعونة الله فيما يتلو هذه المقالة إن شاء الله .



# المقالة الخامسة

---

## التعاون والاتحاد





قد سبق القول في حاجة بعض الناس إلى بعض ، وتبين أن كل واحد منهم : يجد  
تمامه عند صاحبه ، وأن الضرورة داعية إلى استغاثة بعضهم ببعض .  
لأن الناس : مطلوبون على التقصّات ، وهضطرون إلى تماماتها . ولا سبيل  
لأفرادهم : والواحد . فالواحد منهم إلى تمصيل تمامه بنفسه ، كما شرحناه فيما مضى .  
فالحاجة صادقة ، والضرورة داعية إلى حال تجمع وتآلف بين أشنات الأشخاص :  
ليصيروا بالاتفاق والاتلاف كالشخص الواحد : الذي تجمع أعضاؤه كلها على الفعل  
الواحد النافع له .

## المحبة

وللمحبة أنواع وأسباب : تكون بعدد أنواعها .  
فأحد أنواعها : ما يتعقد سريعاً وينحل سريعاً .  
والثاني : ما يتعقد سريعاً ، وينحل بطيئاً .  
والثالث : ما يتعقد بطيئاً ، وينحل سريعاً .  
والرابع : ما يتعقد بطيئاً ، وينحل بطيئاً .  
وإنما انقسمت إلى هذه الأنواع فقط : لأن مقاصد الناس في مطالبهم ، وسيرهم :  
ثلاثة ، ويشرك بينها رابع : وهي اللذة ، والخير ، والمنافع ، والمتركب منها .  
ولإذا كانت هذه ، غايات الناس في مقاصدهم : فلا محالة أنها أسباب المحبة : من عاون  
عليها ، وصار يندباً للوصول إليها : فقد أفلح .

فأما المحبة التي يكون سببها اللذة : فهي التي تنعقد سريعاً ، وتنحل سريعاً .  
 وذلك أن اللذة : سريعة التغير ، كما شرحنا أمرها فيما تقدم .  
 وأما المحبة التي سببها الخير : فهي التي تنعقد سريعاً ، وتنحل ببطيئاً .  
 وأما المحبة التي سببها المنافع : فهي التي تنعقد ببطيئاً ، وتنحل سريعاً .  
 وأما التي تتركب من هذه إذا كان فيها الخير : فإنها تنحل ببطيئاً ، وتنعقد ببطيئاً .  
 وهذه المحبات كلها : تحدث بين الناس خاصة : لأنها تكون بإرادة ، وروية ،  
 وتكون فيها مجازاة ومكافأة .

فأما التي تكون بين الحيوانات غير الناطقة : فالأخرى بها أن تسمى إلفاً ، وتقع  
 بين الاشكال منها خاصة .  
 وأما التي لا نفوس لها : من الاحجار وأمثالها : فليس يوجد فيها إلا الميل الطبيعي  
 إلى مراكزها التي تخصها .

وقد يوجد أيضاً بينها منافرة ومشاكلة : بحسب أمرجتها الحادثة فيها من عناصرها  
 الأولى ، وهذه الامزجة كثيرة ، وإذا وقع منها شيء يتناسب نسبة تأليفية ، أو عددية ،  
 أو مساحية : حدثت بينها ضروب من المشاكلة . وإذا كان أضداد هذه النسب : حدثت  
 بينها منافرة ، وتحدث لها أشياء تسمى خواص ، وهي أفعال بديمة ، وهي التي تسمى  
 أسرار الطبائع ، ولا سيما في النسب التأليفية . فإنها أشرف النسب بعد نسبة المساواة ،  
 ولها أضداد ، أعني هذه النسب . وهي مبدئة مشروحة : في صناعة الارتماطيق .  
 ثم في صناعة التأليف .

وأما الامزجة التي بحسب هذه النسب : فهي خفية عنا ، وعسرة المرام . وقد ادعى  
 قوم الوصول إليها ، وليست تكون هذه الأفعال والخواص : التي تحدث بين الامزجة ،  
 من النسب المذكورة موجودة من العناصر أنفسها ، والسكرام فيها خارج عن غرضنا .  
 وإنما ذكرناها هنا لأنها تشبه المشاكلات ، والمنافرات : التي بين الحيوان في الظاهر ،  
 والنسبة التي تحدث بين الناس بالإرادة ، وهي التي تتكلم فيها ، وتقع فيها مكافأة ومجازاة .

# الصدقة

الصدقة : نوع من المحبة ، إلا أنها أخص منها : وهى المودة بعينها . وليس يمكن أن تنجح بين جماعة كثيرين : كما تقع المحبة .

وأما العشق : فهو إفراط فى المحبة ، وهو أخص من المودة ، وذلك أنه لا يمكن أن يقع إلا بين اثنين فقط ، ولا يقع فى النافع ، ولا فى المركب من النافع وغيره ، وإنما يقع لمحبة اللذة بإفراط : ولحب الخير بإفراط ، وأحدهما مذموم والآخر محمود .

فالصدقة بين الأحداث : ومن كان فى مثل طباعهم : إنما تحدث لأجل اللذة ، فهم يتصادقون سريعاً ، ويتقاطعون سريعاً ، وربما اتفق ذلك بينهم فى الزمان القليل : مراراً كثيرة ، وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها : حالا بعد حال ، فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها : انقطعت الصداقة بالوقت وفى الحال .

والصدقة من المشايخ ، ومن كان فى مثل طباعهم : إنما تقع لمكان المنفعة ، فهم يتصادقون بسببها . فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم ، وهى فى الأكثر طويلة المدة : كانت الصداقة باقية . حين تنقطع علاقة المنفعة بينهم ، وينقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة : تنقطع موداتهم . والصدقة بين الأخيار : تكون لأجل الخير ، وسببها هو الخير .

ولما كان الخير شيئاً غير متغير الذات : صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة .  
وأيضاً لما كان الإنسان مركباً من طبائع متضادة : صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر ، فاللذة التى توافق إحداها : تخالف لذة الأخرى التى تضادها . فلا تخلص له لذة غير مشوبة بأذى .

ولما كان فيه أيضاً جوهر آخر بسيط إلى : غير مغالط لشيء من الطبائع الأخرى : صارت له لذة غير مشابهة لشيء من تلك الذات . وذلك أنها بسيطة أيضاً .

والمحبة التي سببها هذه اللذة : هي التي تفرط حتى تصير عشقاً تاماً خالصاً : شبيهاً بالوله . وهي المحبة الإلهية : الموصوفة التي يدعيها بعض المتألمين ، وهي التي يقول فيها أرسطوطاليس حكاية عن إرقليطس : أن الأشياء المختلفة : لا تتشاكل ، ولا يكون منها تأليف جيد ، وأما الأشياء المتشاكله : وهي التي يسر بعضها ببعض ، ويشتاق بعضها إلى بعض ، فأقول عنها أن الجواهر البسيطة إذا تشاكلت ، واشتاق بعضها إلى بعض : تألفت . وإذا تألفت : صارت شيئاً واحداً لا غيرية بينها ، إذ الغيرية إنما تحدث من جهة الهيولى (١) .

وأما الأشياء ذوات الهيولى ، وهي الأجرام : فإنها وإن اشتاقت بنوع من الشوق إلى التألف : فإنها لا تتحدد ، ولا يمكن ذلك فيها . وذلك أنها تلتقي بنهاياتها وسطوحها : دون ذواتها ، وهذا الالتقاء سريع الانفصال ، إذ كان التآحد فيه بمنعاً . وإنما تتأحد بنحو استطاعتها . أعنى ملاقة سطوحها . فإذا الجوهر الإلهي الذي في الإنسان : إذا صفا من كدورته ، التي حصلت فيه من ملاسة الطبيعة ، ولم تجلبه أنواع الشهوات . وأصناف محبات الكرامات : اشتاق إلى شبيهه ، ورأى بعين عقله الخير الأول المحض : الذي لا تشوبه مادة : فأسرع إليه ، وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه : فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ، ويصير إلى معنى الاتحاد الذي وصفناه : استعمل الطبيعة البدنية ، أم لم يستعملها . إلا أنه بعد مفارقتها الطبيعة بالسكية : أحق بهذه المرتبة العالية ، لأنه ليس يصفو الصفاء التام : إلا بعد مفارقتها الحياة الدنيوية .

ومن فضائل هذه المحبة الإلهية : أنها لا تقبل النقصان ، ولا تقدر فيها السعاية ، ولا يعترض عليها الملك ، ولا تكون إلا بين الأخيار فقط .

وأما المحبات : التي تكون بسبب المنفعة واللذة : فقد تكون بين الأشرار ، وبين الأخيار والأشرار . إلا أنها تنقضى ، وتنحل : مع تقضى المنافع واللذات : لأنها عرضية ،

---

( ١ ) الهيولى : المادة الأولى ، والسببة إليه : هيولى ، وهيولانى ( يونانية الأصل ) وأراد المؤلف بغير هيولانية : أى ليست بالمادة الأولى : الذئبة في الحيوان .

وكثيراً ما تحدث بالاجتماعات في المواضيع الغريبة ، إلا أنها تؤول بزوال المواضيع :  
كالسيفينة وما جرى مجراها .

والسبب في هذه المحبة : الألس . وذلك أن الإنسان : آلس بالطبع ، وليس  
يوحش ، ولا نفور ، ومنه اشتق اسم الإنسان في اللغة العربية ، وقد تبين ذلك في صناعة  
النحو . وليس كما قال الشاعر ( سميت إنساناً لأنك نامى ) فإن هذا الشاعر : ظن أن  
الإنسان : مشتق من النسيان ، وهو غلط منه .

وينبغي أن يعلم أن هذا الألس الطبيعي في الإنسان : هو الذى ينبغى أن نحرص عليه ،  
ونكتسبه مع أبناء جنسنا ، حتى لا يفوتنا بجهلنا واستطاعتنا ، فإنه مهبط المحبات كلها !

## الشريعة تدعو إلى الألس والمحبة :

وإنما وضع للناس بالشرعية وبالعادة الجميلة : اتخاذ الدعوات ، والاجتماع في  
المآدب : ليحصل لهم هذا الألس .

والشرعية إنما أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم : كل يوم خمس مرات ،  
وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الأحاد : ليحصل لهم هذا الألس الطبيعي : الذى هو فهم  
بالقوة حتى يخرج إلى الفعل ، ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة : التى تجمعهم . وهذا  
الاجتماع في كل يوم : ليس يتعذر على أهل كل محلة وسكة .

والدليل على أن غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه : أنه أوجب على أهل المدينة  
بأسرهم : أن يجتمعوا في كل أسبوع يوماً بعينه ، في مسجد يسعهم : ليجتمع أيضاً شمل  
أهل المحال ، والسكك في كل أسبوع ، كما اجتمع شمل أهل الدور والمنازل في كل يوم .

ثم أوجب أيضاً أن يجتمع أهل المدينة مع أهل القرى ، والرساتيق<sup>(١)</sup> المتقاربين : في كل سنة مرتين في مصلى : بارزين مصهرين<sup>(٢)</sup> : ليسهم المسكان ويتجدد الأئس بين كافةهم ، وتشملهم المحبة الناطمة لهم .

ثم أوجب بعد ذلك : أن يجتمعوا في العمر كله مرة واحدة . في الموضع المقدس بمكة ، ولم يعين من العمر وقت مخصوص : ليتسع لهم الزمان ، وليجتمع أهل المدن المتباعدة : كما اجتمع أهل المدينة الواحدة ، ويصير حالهم في الأئس والمحبة ، وشمول الخير والسعادة : كحال المجتمعين في كل سنة ، وفي كل أسبوع ، وفي كل يوم : فيجتمعوا بذلك إلى الأئس الطيبى ، وإلى الخيرات المشتركة ، وتتجدد بينهم محبة الشريعة ، وليكبروا الله على ما هدام ، ويتبطلوا بالدين القديم القيم : الذى ألهمهم على تقوى الله وطاعته !

## الخليفة : حرس الدين

والقائم بحفظ هذه السنة وغيرها من وظائف الشرع ، حتى لا تزول عن أوضاعها : هو الإمام . وصناعته هى صناعة الملك .

والأوائل لا يسمون بالملك : إلا من حرس الدين ، وقام بحفظ مراتبه وأوامره وزواجره .

وأما من أعرض عن ذلك : فيسونه متغلباً ، ولا يؤهلونه لاسم الملك ، وذلك أن الدين : هو وضع إلهى يسوق الناس باختيارهم إلى السعادة القصوى ، والملك هو حارس هذا الوضع الإلهى ، حافظ على الناس ما أخذوا به .

( ١ ) الرساتيق : جمع رستاق ، وهو القرية الصغيرة .

( ٢ ) مصهرين : أى في المصهر . وفى سنة في صلاة الميدين .

وقد قال حكيم الفرس وملوكهم أزدشير : إن الدين والملك : أخوان توأمان : لا يتم أحدهما إلا بالآخر .

فالدين أس ، والملك حارس . وكل مالا أس له فهدوم ، وكل مالا حارس له فضائع . ولذلك حكمنا على الحارس الذي نصب للدين : أن يتيقظ في موضعه ، ويحكم صناعته ، ولا يباشر أمره بالهوي ، ولا يشتغل بلذة تخصه ، ولا يطلب الكرامة والغلبة إلا من وجهها . فإنه متى أغفل شيئاً من حدوده : دخل عليه من هنالك الخلل والوهن .

وحينئذ تتبدل أوضاع الدين ، ويمجد الناس رخصة في شهواتهم ، ويكثر من يساعدهم على ذلك : فتتقلب هيئة السعادة إلى ضدها : ويحدث بينهم الاختلاف والتباغض ، فأدام ذلك إلى الشقاق والفرقة . وبطل الغرض الشريف ، وانتقض النظام الذي طلبه صاحب الشرع : بالأوضاع الإلهية ، فاحتيج حينئذ إلى تجديد الأمر ، واستئناف التدبير ، وطلب الإمام الحق ، والملك العدل .

ولعود إلى ذكر أجناس المحبات وأسبابها فنقول :

## أجناس المحبات وأسبابها

إن هذه الأسباب كلها ما خلا المحبة الإلهية : إذا كانت مشتركة بين المتحابين ، وكانت واحدة بعينها : جاز في الشئين أن يعتقدوا معاً ، وينحلوا معاً . وجاز أيضاً أن يبقى أحدهما وينحل الآخر .

مثال ذلك : أن الذات المشتركة بين الرجل والمرأة : هي سبب المحبة بينهما : فقد يجوز أن تجتمع المحبات لأن السبب واحد : وهي اللذة .

وقد يجوز أن تنقطع إحداهما ، وتبقى الأخرى : وذلك أن اللذة تتغير ولا تكاد تثبت : كما تقدم وصفها . فقد يجوز أن يتغير سبب إحدى المحبتين ، ويثبت الآخر .

وأيضاً فإن بين الرجل وبين زوجته : خيرات مشتركة ، ومنافع مختلطة ، وهما يتعاونان عليهما : أعنى الخيرات الخارجة عنها . وهى الأسباب التى تعمربها المنازل . فالمرأة تفتظر من زوجها تلك الخيرات : لأنه هو الذى يكتسبها ويحضرها .

وأما الرجل فإنه ينتظر من زوجته : ضبط تلك الخيرات ، لأنها هى التى تحفظها وتديرها : لشمر ولا تضيع . فتى قصر أحدهما اختلفت المحبة ، وحدثت الشكايات ، ولا تزال كذلك إلى أن تنقطع ، أو تبقى مع الشكايات والملامة .

وكذلك حال المنفعة المشتركة بين الناس : إذا كانت واحدة بعينها .

وأما المحبات المختلفة التى أسبابها مختلفة : فهى أولى بسرعة التحلل .

ومثال ذلك : أن تكون محبة أحد المتحابين : لأجل المنفعة ، ومحبة الآخر : لأجل اللذة ، كما يمرض ذلك للمعاشرين ، على أن أحدهما مفن ، والآخر مستمتع . فإن المنفى منهما يجب المستمتع ، لأجل المنفعة . والمستمتع منهما يجب المنفى : لأجل اللذة .

وكما يمرض أيضاً بين العاشق والمعشوق : اللذين أحدهما يلتذ بالنظر ، والآخر ينتظر المنفعة . وهذا الصنف من المحبة : يمرض فيه أبداً التشكى والتظلم . وذلك أن طالب اللذة : يتعجل مطلوبه . وطالب المنفعة : يتأخر عنه . ولا يكاد يعتدل الأمر بينهما .

لذلك ترى العاشق : يشكو معشوقه ، ويتظلم منه . وهو بالحقيقة ظالم ، ينبغى أن يشكى : لأنه يتعجل لذته بالنظر ، ولا يرى المكافأة بما يستحق صاحبه .

والمحبة اللوامة : كثيرة الأنواع ، إلا أن الأصل فيها ما ذكرت .

ويوشك أن تكون المحبة بين الرئيس والمرؤوس ، والغنى والفقير : تعرض لها الملامة والتوبيخ : لأجل اختلاف الأسباب . ولأن كل واحد ينتظر من المكافأة عند الآخر ما لا يجده عنده : فيقع فساد فى النيات بينهما . ثم استبطاء . ثم ملامات .



ويرى ذلك : طلب العدالة ، ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر ، وبذل كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما . والماليك خاصة : لا يرضيهم من مواليم إلا الزيادة الكثيرة في الاستحقاق . وكذلك الموالى : يستبطلون العبيد : في الخدمة ، والشفقة ، والنصيحة . وفي جميع ذلك يقع اللوم وفساد الضمير .

فهذه المحبة اللوامة : لا يكاد يخلو الإنسان منها إلا على شريطة العدل ، وطلب الوسط : من الاستحقاق والرضا به ، وهو صعب .

## محبة الأخيار

وأما محبة الأخيار بعضهم بعضاً : فإنها تكون لا للذة خارجية ، ولا لمنفعة : بل للنسابة الجوهرية بينهما . وهى قصد الخير ، والتباس الفضيلة . فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه النسابة : لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ، ونصح بعضهم بعضاً : وتلاقوا بالعدالة والتساوى في إرادة الخير ، وهذا التساوى في النصيحة وإرادة الخير : هو الذى يوحد كثرتهم .

ولهذا حد الصديق : بأنه آخر : هو أنت ، إلا أنه غيرك بالشخص ، ولهذا صار عزيز الوجود ، ولم يوثق بصداقة الأحداث والعمام ، ومن ليس بحكيم . لأن هؤلاء يحبون ويصادقون : لأجل اللذة والمنفعة ، ولا يعرفون الخير بالحقيقة ، وأغراضهم غير صحيحة .  
وأما السلاطين : فإنهم يظهرون الصداقة : على أنهم متفضلون ومحسنون إلى من يصادقهم ، فلا يدخلون تحت الحد الذى ذكرناه ، وفي صداقتهم : زيادة ونقصان ، والمساواة عزيزة الوجود عندهم .

وكذلك محبة الوالد للولد ، والولد للوالد : فإن أنواع هذه المحبة مختلفة ، وأسبابها أيضاً مختلفة ، كما قلنا ، إلا أن محبة الوالد للولد ، والولد للوالد ، وإن كان بينهما اختلاف ما من وجه : فإن بينهما اتفاقاً ذاتياً . وأعني بالذات ههنا : أن الوالد يرى في ولده أنه هو هو ، وأنه نسخ صورته التي تخصه من الإنسانية في شخص ولده : نسخاً طبيعياً ، ونقل ذاته إلى ذاته نقلاً حقيقياً ، وحق له أن يرى ذلك : لأن التدبير الإلهي بالسياسة الطبيعية التي هي سياسته عز وجل : هو الذي عاون الإنسان على إنشاء الولد ، وجعله السبب الثاني في إيجاده ، ونقل صورته الإنسانية إليه .

ولذلك يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه ، ويسعى في تأديبه وتكيله : بكل ما فاته في نفسه طول عمره .

ولا يشق عليه أن يقال له : ولدك أفضل منك . لأنه يرى أنه هو هو .

وكما أن الإنسان إذا تزايد في نفسه حالاً خالاً ، وترقى في الفضيلة درجة فدرجة : لا يشق عليه أن يقال له : إنك الآن أفضل مما كنت ، بل يسره ذلك ، كذلك تكون حاله إذا قيل له في ولده مثل ذلك .

ثم تفضل أيضاً محبة الوالد على محبة الولد : بأنه الفاعل له ، وبأنه يعرفه منذ أول تكوينه ، ويستشير به وهو جنين ، ثم تزداد محبته له مع التربية والنشأة ، ويتأكد سروره به ، وتأميله له .

ويحدث له اليقين بأنه باق به صورة ، وإن فنى بجسمه مادة . وهذه المعاني الجليلة عند أهل العلم : تتراعى للعوام كأنها من وراء ستر .

وأما محبة الولد للوالد : فإنها تنقص عن هذه المرتبة : بأن الولد مفعول ، وبأنه لا يعرف ذاته ، ولا فاعل ذاته : إلا بعد زمان طويل ، وبعد أن يستثبت أباه حساً ، ويتفجع به دهرأ . ثم يعقل بعد ذلك أمره بالصحة ، وعلى مقدار عقله واستبصاره في الأمور : يكون تعظيمه لوالديه ، ومحبة لهما ، ولهذا العلة وصى الله عز وجل الولد بوالده ، ولم يوص الوالد بولده .

وأما محبة الإخوة بعضهم لبعض : فلأن سبب تكوينهم ونشوءهم واحد بعينه .

## نسبة الملك إلى رعيته

ويجب أن تكون نسبة الملك إلى رعيته : نسبة أبوية ، ونسبة رعيته إليه : نسبة بنوية . ونسبة الرعية بعضهم إلى بعض : نسبة أخوية ، حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة .

وذلك أن مراعاة الملك لرعيته : هي مراعاة الأب لأولاده ، ومعاملته لإياهم تلك المعاملة .

وقد كنا أشرنا إلى ذلك ، وسنزيده بياناً إذا صرنا إلى ذكر سياسة الملك في موضع آخر .

وعنايته برعيته : يجب أن تكون مثل عناية الأب بأولاده : شفقة وتحنناً وتعهداً وتمتعلاً : خلافة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، بل لمشرع الشريعة تعالى ذكره : في الرأفة والرحمة ، وطلب المصالح لهم ، ودفع المكاره عنهم ، وحفظ النظام فيهم ، وبالجملة في كل ما يجلب الخير ويمنع الشر .

فإنه عند ذلك تحبه رعيته محبة الأولاد الأب للشفيق ، وتحدث بينهما تلك النسبة ، وإنما تختلف هذه المحبات بالتفاضل الذي يكون بعظم المنافع .

فيجب أن يكرم الأب : كرامة أبوية ويكرم السلطان : كرامة سلطانية . ويكرم الناس بعضهم بعضاً : كرامة أخوية . ولكل مرتبة من هذه استئثار خاص بها ، واستحقاق واجب لها .

فإذا لم يحفظ بالعدالة : زاد ونقص ، وعرض لها الفساد ، وانتقلت الرياسات ، وانعكست الأمور . فيعترض لرياسة الملك أن تنتقل إلى رياسة التغاب ، ويتبع ذلك أن تنتقل محبة الرعية إلى البعض له ، ويعرض لرياسات من دونه مثل ذلك .

فتصير محبة الاختيار إلى تباغض الأشرار ، وتعود الألفة نفاراً ، والتوادد نفاقاً .  
ويطلب كل واحد لنفسه ما يظنه خيراً له وإن أضرب بغيره ، وتبطل الصداقات ، والخير  
المشترك بين الناس . ويؤول الأمر إلى المهرج الذي هو ضد النظام : الذي رتبته الله لخلقه ،  
ورسمه بالشريعة ، وأوجبه بالحكمة البالغة .

## المحبة التي لا تظر أعليها الآفات

وأما المحبة التي لا تشوبها الانفعالات ، ولا تظر أعليها الآفات : وهي محبة العبد  
لخالقه عز وجل . فإنها إنما تخلص العالم الرباني وحده خاصة ، ولا سبيل لغيره إليها  
إلا بالدعوى الكاذبة .

وكيف يمد الإنسان السبيل إلى محبة من لا يعرفه ، ولا يعرف ضروب أفعاله  
الدائرة عليه ، ووجوب إحسانه المتصلة به : في بدنه ونفسه . اللهم إلا أن يتصور  
في نفسه صنماً ، ويظنه الخالق عز وجل : فحببه ويعبده . فإن أكثر الناس كما قال تعالى  
( وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ) .

ولعمري أن العامة تدعى المعرفة والمحبة ، وهم يتصورون شخصاً وشيخاً : فنسكون  
عبادتهم له دون الله ، وهذا هو الضلال البعيد .

ومدعوا هذه المحبة : كثيرون جداً ، والمحققون منهم قليلون جداً . بل هم أقل  
من القليل ، وهذه المحبة لا محالة : تنصل بها الطاعة والتعظيم ، وتبطلها ويقرب منها :  
محبة الوالدين ، وإكرامهما وطاعتهما . وليس يرتقى إلى مرتبتهما شيء من المحبات الأخر :  
إلا محبة الحكماء عند تلامذتهم : فإنها متوسطة بين المحبة الأولى ، والمحبة الثانية .

وذلك أن المحبة الأولى : لا يبلغها شيء من المحبات . كما أن أسبابها لا يبلغها شيء  
من الأسباب ، والنعم التي تأتي من قبلها : لا يشبهها شيء من النعم .

وأما المحبة الثانية : فهي تتلوهما : لأن سببها هو الثاني في وجودنا الحسى . أعنى أبداننا وتكويننا .

وأما محبة الحكماء : فهي أشرف وأكرم ، من محبة الوالدين . لأجل أن تربيتهم هى لنفوسنا ، وهم الأسباب في وجودنا الحقيق ، وبهم وصولنا إلى السعادة التامة : التى نلناها بها اللقاء الأبدى ، والنعم السرمدى : فى جوار رب العالمين .

فبحسب فضل إلهامهم علينا ، وبقدر فضل النفوس على الأبدان : يجب حقوقهم ، وتلزم طاعتهم ومحبتهم . وليس يبلغ أحد جزاء ولا مكافأة الأول . ولا ما يستأهله الثانى : أعنى الوالدين ، وإن هو اجتهد وبالغ : فلا يؤدى حقوقهما أبداً ، وإن خدم بأقصى طاقته وغاية وسعه .

وأما محبة طالب الحكمة للحكيم ، والتلميذ الصالح للعلم الخير : فإنها من جنس المحبة الأولى ، وفى طريقها .

وذلك لأجل الخير العظيم : الذى يشرف عليه ، ويصل إليه ، وللرجاء الكريم الذى لا يتحقق إلا بعنايته ، ولا يتم إلا بمطاعته . ولأنه والد روحانى ، ورب بشرى ، وإحسانه إحسان إلهى . ذلك أنه يربيه بالفضيلة التامة ، ويغذوه بالحكمة البالغة ، ويسوقه إلى الحياة الأبدية والنعم السرمدى ! وإذا كان هو السبب فى كل وجودنا العقلى ، وهو المربى لنفوسنا الروحانية : فبحسب فضل النفس على البدن : يجب أن يفضل المنعم بهذا على المنعم بذلك ، وبقدر فضلها على البدن : يكون فضل التربية على التريفة ، فيحق أن يحب التلميذ معلم الحكمة : محبة خالصة شبيهة بالمحبة الأولى . ولذلك قلنا : إن هذه المحبة من جنس تلك المحبة الأولى ، والطاعة له من جنس تلك الطاعة ، وكذلك تعظيمه له ، وإجلاله إياه ، ثم لما كان سبب هاتين النعمتين : ومعرضنا لهما ، وسائقنا إليهما وإلى جميع النعم : هو السبب الأول الذى هو سبب الخيرات كلها : قربت منا ، أو بعدت عنا ، عرفناها أو لم نعرفها . وجب أن تكون محبتنا له فى أعلى مراتب المحبات ، وكذلك طاعتنا له ، وتمجيدنا إياه .

ويجب على من بلغ هذه المنزلة من الاخلاق : أن يعرف مراتب المحبات ، وما يستحقه كل واحد من صاحبه : حتى لا يبذل كرامة الوالد للرئيس الاجنبى ، ولا كرامة الصديق للسلطان ، ولا كرامة الولد للعشير ، ولا كرامة الاب لابن ، فإن لكل واحد من هؤلاء وأشباههم : صنفاً من الكرامة ، وحقاً من الجزاء : ليس للآخر ، ومتى خلط فيه : اضطرب وفسد ، وحدثت الملامات . وإذا وفى كل واحد منهم حقه وقسطه : من المحبة والخدمة ، والنصيحة : كان عادلاً ، وأوجبت له محبته وعدالته فيها : محبته لصاحبه ومعامله .

وكذلك يجب أن يجرى الامر فى مؤانسة الاصحاب ، والخططاء والمعاشرين : من توفية حقوقهم ، وإعطائهم ما هو خاص بهم .

ومن غش المحبة والصدقة : كان أسوأ حالاً ممن غش الدرهم والدينار .

فإن الحكيم ذكر أن المحبة المغشوشة : تنحل سريعاً ، وتفسد وشيكاً ، كما أن الدرهم والدينار : إذا كانا مغشوشين : ففسداً سريعاً ، وهذا واجب فى جميع أنواع المحبات .

ولذلك ينماطى العاقل أبداً نمطاً واحداً ، ويلزم مذهباً واحداً : فى إرادة الخير ، ويفعل جميع ما يفعله من أجل ذاته ، ويرى خيره عند غيره : كما يراه عند نفسه .

وأما صديقه فقد قلنا : إنه هو هو إلا أنه غير بالشخص ، أما سائر مخالطيه ومعارفه : فإنه يسلك بهم مسلك أصدقائه ، كأنه يجتهد فى أن يبلغ بهم وفيهم : منازل الاصدقاء بالحقيقة ، وإن كان لا يمكن ذلك فى جميعهم .

فهذه سيرة الخير : فى نفسه ، وفى رؤسائه ، وأهله وعشيرته ، وأصدقائه ، وسلطانة .

## الشرير

وأما الشرير : فإنه يهرب من هذه السيرة ، وينفر منها : لرداءة الهيئة التى حصلت له ، ولحبة البطالة والتكاسل عن معرفة الخير : والتميز بينه وبين الشر ، وبين ما هو مظنون عنده خيراً : وليس بخير .

ومن كان على هذه الحالة من الشر ، وزدادة الهيبة : كانت أفعاله كلها رديئة .

ومن كانت ذاته رديئة : هرب من ذاته : لأجل أن الرذالة مهروب منها ، واضطر إلى محبة قوم يناسبونه ، ليفنى عمره معهم ، ويشغل بهم عن ذاته ، وما يجده فيها من الاضطراب والقلق .

ذلك أن هؤلاء الأشرار : إذا خلوا بأنفسهم : تذكروا أفعالهم الرديئة ، وهاجت بهم القوى المتضادة : التي تدعوم إلى ارتكاب الشرور المتضادة ، فيألمون من ذواتهم ، وتتشاغب نفوسهم كل الشغب ، وتجذبهم القوى التي فيهم : وهي التي لم يرضوها بالأدب الحقيقي : إلى جهات مختلفة من اللذات الرديئة ، وطلب الكرامات التي لا يستحقونها ، والشهوات الرديئة التي تهلكهم سرهما .

فإذا جذبهم هذه القوى إلى جهات مختلفة : أحداث فيهم آلاما كثيرة ، لأنه لا يمكن أن يفرح ويحزن معاً ، ولا يرضى ويستخط في حال واحدة ، ولا يستطيع أن يؤلف بين الأضداد ، حتى تجتمع له ، فهو من شقائه يهرب من ذاته : لأنها رديئة فاسدة متألمة : كثيرة الشغب عليه ، ويلتمس لعشرته ومخالطة من هو مثله أو أسوأ حالا منه : فيجد للوقت راحة به ، وسكوناً إليه : لأجل المشاكلة ، ثم يعود بعد قليل وبالا عليه ، وزيادة في خياله وفساده : فيألم به ، ويهرب منه . فليس له محب ، ولا ذاته ، ولا له نصيح ، ولا نفسه . وليس يتحصل إلا على الندامة ، ولا يرجع إلا إلى الشقوة !

## الخير الفاضل

وأما الرجل الخير الفاضل : فإن سيرته جيدة محبوبة . فهو يحب ذاته وأفعاله ، ويسر بنفسه ، ويسر به أيضاً غيره ، ويختار كل لسان مواصلته ومصادقته ، فهو صديق نفسه ، والناس أصدقاؤه ، وليس يضاده إلا الشرير فقط ، ويعرض لمن هذه سيرته : أن يحسن

إلى غيره : بقصد وبغير قصد . وذلك أن أفعاله لذيدة محبوبة ، واللذيد المحبوب : مختار ، فيكثر المقبلون عليه ، والمحتفلون به ، والآخذون عنه ، وهذا هو الإحسان الذاتى : الذى يبقى ، ولا ينقطع ، ويتزايد على الأيام ولا ينقص .

وأما الإحسان العرضى : الذى ليس بمخلوق ، ولا هو سيرة لصاحبه : فإنه ينقطع ويلحق فيه اللوم ، والمحبة التى تعرض منه : تلحق بالمحبات اللوامة ، ولذلك يوصى صاحبه بتربيته : فيقال له : تربية الصنعة أصعب من ابتدائها .

والمحبة التى تحدث بين المحسن والمحسن إليه : يكون فيها زيادة ونقصان ، أعنى أن محبة المحسن للمحسن إليه : أشد من محبة المحسن إليه للمحسن .

واستدل أرسطوطاليس على ذلك : بأن المقرض ، وصانع المعروف : يهتم كل واحد منهما بمن أقرضه ، واصطنع المعروف عنده ، ويتعاهدانها ، ويحسان سلامتهما . أما المقرض فربما أحب سلامة المقرض : لمكان الأخذ ، لا لمكان المحبة ، أعنى أنه يدعو له بالسلامة والبقاء ، وسبوغ النعمة : ليصل إلى حقه .

وأما المقرض : فليس يعنى كبير عناية بالمقرض ، ولا يدعو له بهذه الدعوات . وأما مصطنع المعروف : فإنه بالحق الواجب : يود الذى اصطنع إليه معروفه ، وإن لم ينتظر منه منفعة .

ذلك أن كل صانع فعل جيد محمود : يحب مصنوعه ، فإذا كان مصنوعه مستقيماً جيداً : وجب أن يكون محبوباً فى الغاية ، فتدبرين أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن إليه . وأما المحسن إليه : فشهوته للإحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن .

وأيضاً فإن المحبة المكتسبة بالإحسان ، المرباة على طول الزمان : تجري مجرى القنيات التى يتعب بتحصيلها : فإن ما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب : تكون المحبة له أشد والهن به أكثر .



ومن وصل إلى المسال بغير تعب : لم يكثر به . ولم يشح عليه ، وبذله في غير موضعه ، كما يفعل الوراث ، ومن يجرى مجرام .

وأما من وصل إليه بتعب ، وسافر في طلبه ، وشق بجمعه : فإنه لا محالة يكون شديد الضن به ، والمحبة له .

ولهذه اللة صارت الآم : أكثر محبة للولد من الأب ، ويعرض لها من الحنين والوله : أضعاف ما يعرض للأب ، وبهذا النوع من المحبة : يحب الشاعر شعره ، ويعجب به : أكثر من إعجاب غيره ، وكل فاعل فعل يتعب به : فهو يحب فعله ، وأيضاً فإن المتفعل لا يتعب كتعب الفاعل . والآخذ متفعل ، والمعطى فاعل ، فن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف : يجب من أحسن إليه حباً شديداً .

ومن الناس : من يصطنع المعروف لأجل الخير نفسه ، ومنهم من يصطنعه لأجل الذكر الجميل ، ومنهم من يصطنعه رياء فقط .

ومن البين أن أعلاه مرتبة : من صنعه لذاته . أعنى لذات الخير .

وصاحب هذه الرتبة : لا يعرف الذكر الجميل ، والثناء الباقي ، وعجبة من لم يصطنع المعروف عنده ، وإن لم يقصد ذلك الفعل ولا بالنية .

ولما حكنا فيما تقدم : حكماً مقبولا لا يردده أحد : وهو أن كل إنسان يحب نفسه ، وكانت هذه المحبة لا محالة : تنقسم بالاقسام الثلاثة التي ذكرناها : أعنى اللذة ، والمنافع والخير : وجب من ذلك أن لا يوجد من لا يميز بين هذه الأقسام : حتى يعرف الأفضل فالأفضل منها ، فلا يدري كيف يحسن إلى نفسه : التي هي محبوبته ، فيقع في ضروب من الخطأ : لجهله بالخير الحقيقي .

ولذلك صار بعض الناس يختار لنفسه سيرة اللذة ، وبعضهم سيرة الكرامة والمنافع : لأنهم لا يعرفون ما هو أفضل منها .

وأما من عرف سيرة الخير وعلو مرتبته : فهو لا محالة يختار لنفسه أفضل السير ، وأكرم الخيرات : فلا يؤثر اللذات البهيمية ، ولا اللذات الخارجة عن نفسه ، فإنها عرضية كلها ، ومستحيلة ومنحلة : لكنه يختار لها أتم الخيرات ، وأعلاها ، وأعظمها ، وهو الخير الذى لها بالذات ، أعنى الذى ليس بخارج عنها ، وهو الذى ينسب إلى جزئه الإلهى .

ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه : فقد أحسن إليها ، وأنزلها في الشرف الأعلى ، وأهلها لقبول الفيض الإلهى ، واللذة الحقيقية : التى لا تفارقه أبداً ، وإذا كان بهذه الحال : فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات الأخرى ، وينفع غيره ببذل الأموال ، والسماحة بجميع ما يتشاح الناس عليه . ويخص أصدقاءه من ذلك ، بكل ما يضييق عنه ذرع أصحاب السير الباقية ، فيصير معظماً عند كل واحد : ولا سيما عند صديقه .

وقد بينا فيما تقدم : أن الإنسان مدنى بالطبع ، وشرحنا معنى المدنى . فإذا بالواجب يكون تمام سعادته الإنسانية عند أصدقائه ، ومن كان تمامه عند غيره : فمن المحال أن يصل مع الوحدة والتفرد إلى سعادته النامة .

## الأصدقاء

فالسعيد إذاً : من اكتسب الأصدقاء ، واجتهد في بذل الخيرات لهم : ليكتسب بهم ما لا يقدر أن يكتسبه لذاته ، فيلتذ بهم أيام حياته ، ويلتذون أيضاً به .

وقد شرحنا حال هذه اللذة ، وأنها باقية إلهية : غير منحلة ، ولا متغيرة ، وهؤلاء في جملة الناس قليلون جداً .

وأما أصحاب اللذات البهيمية والنافع فيها : فكثيرون جداً . وقد يكتفى من هؤلاء بالقليل : كالأبازير<sup>(١)</sup> في الطعام ، وكالملاح خاصة .

( ١ ) الأبازير : جمع بز . وهى التوابل التى توضع مع الطعام : لتطيب لمكته .

وأما الصديق الأول الذى ذكرنا وصفه : فلا يمكن أن يكون كثيراً لعزته ، ولأنه محبوب بإفراط ، وإفراط المحبة : لا يصح ولا يتم إلا لواحد .

وأما حسن العشرة ، وكرم اللقاء ، والسعى لكل أحد لسيرة الصديق الحقيقى : فبذول لأجل طلب الفضيلة ، ولأننا قد قلنا فيما تقدم : إن الرجل الخير الفاضل : يسلك فى عشرة معارفه : مسلك الصديق ، وإن لم تتم الصداقة الحقيقية فيهم .

وأرسطوطاليس يقول : إن كل واحد : محتاج إلى الصديق : عند حسن الحال ، وعند سوء الحال .

فمن سوء الحال : يحتاج إلى معونة الأصدقاء ، وعند حسن الحال : يحتاج إلى المؤانسة ، وإلى من يحسن إليه .

ولعمري أن الملك العظيم : يحتاج إلى من يصطنعه ، ويضع إحسانه عنده . كما أن الفقير من الناس : يحتاج إلى صديق يصطنعه ، ويضع عنده المعروف .

قال : ومن أجل فضيلة الصداقة : يشارك الناس بعضهم بعضاً ، ويتعاضدون عشرة جميلة : ويجتمعون فى الرياضات ، والصيد ، والدعوات .

وأما سقراطيس فإنه قال بهذه الألفاظ : (إنى لا أكثر التمجيد من يعلم أولاده أخبار الملوك ، ووقائع بعضهم ببعض ، وذكر الحروب والضغائن ، ومن انتقم أو وثب على صاحبه ، ولا يخطر بالهم أمر المودة ، وأحاديث الألفة ، وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس : بالمحبة والائس ، وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة : وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها ، فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير . فالصغير من ظن ذلك ، وإن قدر أنه موجود ، ويسير الخطب يدرك بالهويناء : فما أصعبه ، وما أعسر وجود صداقة : يوثق بها عند البلوى ) .

ثم قال : (لكنى أعتقد وأقول : إن قدر المودة وخطرها عندى : أعظم من جميع ذهب كنوز قارون ، ومن ذخائر الملوك ، ومن جميع ما يتنافس فيه أهل الأرض من

الجواهر ، وما تحويه الدنيا : برأ وبحراً ، وما يتقلبون فيه من سائر الالتمعة والاثاث ، ولا يعدل جميع ذلك ما اخترته لنفسى : من فضيلة المودة . وذلك أن جميع ما أحصيته لا ينفع صاحبه : إذا حلت به لوعة مصيبة في صديقه .

وأفهم من الصديق ههنا أنه آخر : هو أنت ، سواء كان أخاً من نسب ، أو غريباً ، أو ولداً ، أو والداً ، ولا يقوم له جميع ما في الأرض مقام صديق : يثق به في مهم يساعده عليه سعادة عاجلة أو آجلة تتم له ، فطوبى لمن أوتي هذه النعمة العظيمة ، وهو خلو من السلطان ، وأعظم طوبى لمن أوتي في سلطان . ذلك أن من باشر أمور الرعية ، وأراد أن يعرف أحوالهم ، وينظر في أمورهم حق النظر : أن يكفيه أذنان ، ولا عيتان ، ولا قلب واحد ، فإن وجد إخواناً ذوي ثقة : وجد بهم عيوناً ، وآذاناً ، وقلوباً : كأنها بأجدها له : فقربت عليه أطرافه ، واطلع من أدنى أمره على أقصاه ، ورأى الغائب بصورة الشاهد ، فأنى توجد هذه الفضيلة إلا عند الصديق ؟ وكيف يطمع فيها عند غير الرفيق الشفيق !

## كيف يُختار الصديق

وإذ قد عرفنا هذه النعمة الجليلة الخطيرة : فيجب علينا أن ننظر كيف نقتنها ؟ ومن أين نطلبها ؟ وإذا حصلت لنا : كيف نحفظ بها ؟ لئلا يصيبنا فيها ما أصاب الرجل الذي ضرب به المثل : حين طلب شاة سمينة : فوجدها واردة ، فاغتر بها ، وظن الورم سمناً : فأخذه الشاعر فقال :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشمع فيمن شحمه ورم

لا سيما وقد علمنا أن الإنسان من بين الحيوان : يتصنع ، حتى يظهر للناس منه مالا حقيقة له : فيبذل ماله وهو بخيل . ليقال : هو جواد ، ويقدم في بعض المواطن على بعض المخاوف : ليقال هو شجاع .

وأما سائر الحيوان : فإن أخلاقها ظاهرة للناس : من أول الأمر ، لا يتصنع فيها . وكذلك يكون حال من لا يعرف الحشائش والنبات : فإنها تشبه في عينه : حتى ربما تناول منها شيئاً وهو يظنه حلواً : فإذا طعمه وجد مرراً ، وربما ظنه غذاء : فيكون سماً .

فينبغي لنا أن نحذر ركوب الخطر في تحصيل هذه النعمة الجلية : حتى لا نقع في مودة الموهين الخداعين : الذين يتصورون لنا بصورة الفضلاء الاخيار ، فإذا حصلونا في شباكهم : افترسوننا كما تفترس السباع أكيلتها .

والطرق إلى السلامة من هذا الخطر : بحسب ما أخذناه عن سقراطيس : إذا أردنا أن نستفيد صديقاً : أن نسأل عنه : كيف كان في صباه مع والديه ، ومع إخوته وعشيرته ؟ فإن كان صالحاً معهم : فارج الصلاح منه ، وإلا فابعد عنه وإياك وإياه .  
قال : ( ثم اعرف بعد ذلك ، سيرته مع أصدقائه قبلك ، فأضفها إلى سيرته مع إخوته وآبائه ) .

ثم تتبع أمره في شكر من يجب عليه شكره ، أو كفره النعمة .

ولست أعنى بالشكر : المكافأة التي ربما عجز عنها بالفعل . ولكن ربما عطل نيته في الشكر : فلا يكافئ بما يستطيع ، وبما يقدر عليه ، ويغتم الجليل الذي يسدى إليه ، ويراه حقاً له ، أو يتكامل عن شكره باللسان .

وليس أحد يتعذر عليه نشر النعمة التي تتولاه ، والثناء على صاحبها ، والاعتداد له بها ، وليس شيء أشد احتياجاً للنعم : من الكفر ، وحسبك ما أعدده الله لكافر نعمته : من النعم : مع تعاليه عن الاستضرار بالكفر .

ولا شيء أجلب للنعمة ، ولا أشد تثبيناً لها : من الشكر ، وحسبك ما وعد الله به الشاكرين : مع استغناؤه عن الشكر . فتعرف هذا الخلق من تريد مؤاخاته ، واحذر أن تبغى بالكفر للنعم ، ولا تكن بالمستحققر لآيادي الإخوان ، وإحسان السلطان .

ثم انظر إلى ميله إلى الراحة ، وتباطئه عن الحركة : التي فيها أدنى لصب ، فإن هذا خلق ردىء ، ويتبعه الميل إلى اللذات ، فيكون سبباً للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق .

ثم انظر نظراً شافياً في محبته للذهب والفضة ، واستهائته بجمعهما ، وحرصه عليهما ، فإن كثيراً من المتعاشرين يظهرهم بالمحبة ، ويتهادون ويتناصحون ، فإذا وقعت بينهم معاملة في هذين الحجرين : هر بعضهم على بعض هريز السكالب ، وخرجوا إلى ضروب العداوة .

ثم انظر في محبته للرئاسة والتعزيط ، فإن من أحب الغلبة والثروس ، وأن يفرط : لا ينصفك في المودة ، ولا يرضى منك بمثل ما يعطيك ، ويحمله الخيلاء والتهيه : على الاستهانة بأصدقائه ، وطلب الترفع عليهم ، ولا تتم مع ذلك مودة ولا غبطة ، ولا بد من أن تؤول الحال بينهم إلى العداوة ، والاحتقاد ، والأضغان الكثيرة .

ثم انظر : هل هو من يستهزئ بالغناء واللحن ، وضروب اللهو ، واللعب وسماع الجون والمضاحيك ؟ فإن كان كذلك : فما أشغله عن مساعدات إخوانه ومواساتهم ، وما أشد هربه عن مكافأة بإحسان ، واحتمال النصب ، ودخول تحت جميل .

فإن وجدته ، بريئاً من هذه الخلال : فلتحتفظ عليه ، والترغب فيه ، ولتكتف بواحد ، إن وجد ، فإن السكالب عزيز .

وأيضاً فإن من كثرت أصدقائه : لم يف بمقوقم ، واضطر إلى الإغضاء عن بعض ما يجب عليه ، والتقصير في بعضه ، وربما ترادفت عليه أحوال متضادة ، أعنى أن تدعوه مساعدة صديق : إلى أن يسر بسروره ، ومساعدة آخر : أن يفتن بغمه ، وأن يسمى بسعى واحد ، ويقعد بقرود آخر ، مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة .

ولا ينبغي أن يحملك ما حضنتك عليه من طلب الفضائل من تصادفه : على تتبع صفار  
عيوبه : فتصير بذلك إلى أن لا يسلم لك أحد . فتبقى خلواً من الصديق .

بل يجب أن تغض عن المعاييب اليسيرة : التي لا يسلم من مثلها البشر ، وتنظر ما تجده في  
نفسك من عيب : فتحتمل مثله من غيرك .

واحذر عداوة من صادقته ، أو خالته ، أو خالطته : غالطة الصديق ، واسمع  
قول الشاعر :

عدوك من صديقك مستفاد      فلا تستكثرن من الصحاب  
فإن الداء أكثر ما نراه      يكون من الطعام أو الشراب

## آداب الصداقة

لذلك يجب عليك متى حصل لك صديق : أن تسكر مراعاته ، وتبالغ في تفقده ،  
ولا تستهين باليسير من حقه عند مهم يعرض له ، أو حادث يحدث به .

فأما في أوقات الرخاء : فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلق ، والخلق الرحب ، وأن تظهر له  
في عينك وحركاتك ، وفي هياشتك وارتياحك : عند مشاهدته إياك : ما يرداد به في كل  
يوم ، وكل حال : ثقة بمودتك ، وسكوناً إليك ، ويرى السرور في جميع أعضائك ، التي  
يظهر السرور فيها إذا لقيك .

فإن التحفي الشديد عند طلعة الصديق : لا ينبغي ، وسرور الشكل بالشكل أمر  
غير مشكل .

ثم ينبغي أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ، ويحبه : من صديق ، أو ولد ،  
أو تابع ، أو حاشية ، وثني عليهم من غير إسراف ، يخرج بك إلى الملقى : الذي

يمتلك عليه ، ويظهر له منك تكلف فيه ، وإنما يتم لك ذلك : إذا توخيت الصدق في كل ما تلقى به عليه ، والزم هذه الطريقة : حتى لا يقع منك توان فيها : بوجه من الوجوه ، وفي حال من الأحوال ، فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ، ويكسب الثقة التامة ، ويهديك محبة الغرباء ، ومن لا معرفة لك به .

وكما أن الحمام إذا ألف بيوتنا ، وآنس لمجالسنا وطاف بها : يجلب لنا أشكاله وأمثاله ، فكذلك حال الإنسان : إذا عرفنا ، واختلط بنا : اختلاط الراغب فينا ، الآنس بنا . بل يزيد على الحيوان الغير الناطق<sup>(١)</sup> بحسن الوصف ، وجميل الثناء ، ونشر المحاسن .

واعلم أن مشاركة الصديق في السراء : إذا كنت فيها ، وإن كانت واجبة عليك : حتى لا تستأثرها ، ولا تختص بشيء منها ، فإن مشاركته في الضراء : أوجب ، وموقعها عنده أعظم .

والنظر عند ذلك : إن أصابته نكبة ، أو لحقته مصيبة ، أو عثر به الدهر : كيف تكون مواساتك له : بنفسك ومالك ، وكيف يظهر له تفقدك ومراعاتك . ولا تفتنظرن به أن يسألك : تصريحاً أو تعريضاً ، بل اطلع على قلبه ، واسبق إلى ما في نفسه ، وشاركه في مضض ما لحقه : لينخف عنه .

وإن بلغت مرتبة من السلطان والغنى : فاعمس إخوانك فيها من غير امتنان ، ولا تطاول ، وإن رأيت من بعضهم نبواً عليك ، أو نقصاناً بما عهدته : فداخله زيادة مداخلته ، واختلط به واجتذبه إليك . فإنك إن أنفت من ذلك ، أو تداخلك شيء من السكير ، والصلف عليهم : انتقض جبل المودة ، وانتكشت قوته ، ومع ذلك فليست تأمن أن يزولوا عنك : فاستحى منهم ، وتضطر إلى قطيعتهم : حتى لا تنظر إليهم .

---

( ١ ) الغير الناطق : خطأ ، وصوابه غير الناطق ، لأن غير : لا تدخل عليها أداة التعريف : لمزيد إبهامها .



ثم حافظ على هذه الشروط : بالمداومة عليها : لتبقى المودة على حال واحدة . وليس هذا الشرط خاصاً بالمودة : بل هو مطرد في كل ما يخصك ، أعني أن مركوبك وملبوسك ، ومنزلك : متى لم تراعها مراعاة متصلة : فسدت وانتقضت .

فإذا كانت صورة حائطك وسطوحك كذلك ، وفق غفلات أو توانيبت : لم تأمن تقوضه وتهدمه : فكيف ترى أن تجفون من ترجوه لسكل خير ، وتنتظر مشاركته في السراء والضراء ، ومع ذلك فإن ضرر تلك يختص بك بمنفعة واحدة .

وأما صديقك : فوجوه الضرر التي تدخل عليك بجفائنه ، وانتقاض مودته : كثيرة عظيمة ، ذلك أنه ينقلب عدواً ، وتتحول منافقه مضاراً : فلا تأمن غوائله وعداوته : مع عدمك الرغائب والمنافع به ، وبنه قطع رجاؤك فيما لا تجد له خلفاً ، ولا تستفيد عنه عوضاً ، ولا يسد مسده شيء .

وإذا راعيت شروطه ، وحافظت عليها بالمداومة : أمنت جميع ذلك .

ثم احذر المراء معه خاصة : وإن كان واجباً أن تحذره مع كل أحد : فإن ممارسة الصديق : تقتلع المودة من أصلها : لأنها سبب الاختلاف ، والاختلاف سبب التباين : الذي هربنا منه إلى ضده ، وقبحنا أثره ، واخترنا عليه الالفة التي طلبناها ، وأمنينا عليها ، وقلنا : إن الله عز وجل : دعا إليها بالشريمة القويمة .

وإني لأعرف من يؤثر المراء ويزعم أنه يقدر خاطره ، ويشحن ذهنه ، ويشير شكوكه ، فهو يعتمد في المحافل التي تجمع رؤساء أهل النظر ، ومتعاطي العلوم : بمساراة صديقه ، ويخرج في كلامه معه إلى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم : ليزيد في خجل صديقه ، وليظهر انقطاع تلبجه .

وليس يفعل ذلك عند خلوته به ، ومذاكرته له ، وإنما يفعله حين يظن به أنه أدق نظراً . أو أحضر حجة ، وأغزر علماً ، وأحد قريحة .

فما كنت أشبه إلا بأهل البنى ، وجبايرة أصحاب الأموال ، والمشبهين بهم من أهل البدع ، فإن هؤلاء يستحقرون بعضهم بعضاً ، ولا يزال يصغر بصاحبه ويزدري على مروءته ،

ويطلب عيوبه ، ويتبع عثراته ، ويبالغ كل واحد فيما يقدر عليه من إساءة صاحبه :  
حق يؤدي بهم الحال إلى العداوة النامة : التي يكون معها السعاية ، وإزالة النعم ، وتجاوز  
ذلك إلى سفك الدم ، وأنواع الشرور .

فكيف يثبت مع المرء : محبة ويرجى به ألفه ؟

ثم احذر في صديقك إن كنت متحققاً بعلم ، أو متعلّياً بأدب : أن تبخل عليه بذلك  
الفن ، أو يرى فيك أنك نخب الاستبداد دونه ، والاستئثار عليه ، فإن أهل العلم : لا يرى  
بعضهم في بعض ما يراه أهل الدنيا بينهم .

ذلك أن متاع الدنيا قليل ، فإذا تراحم عليه قوم : فلم بعضهم حال بعض ، ونقص  
حظ كل واحد من حظ الآخر .

وأما العلم : فإنه بالبعد ، وليس أحد ينقص منه ما يأخذه غيره ، بل يزكو على النفقة ،  
ويربو مع الصداقة ، ويزيد على الإنفاق وكثرة الخرج ، فإذا بخل صاحب علم بعلمه :  
فإنما ذلك لأحوال فيه كلها قبيحة .

وهي أنه إما أن يكون قليل البضاعة منه : فهو يخاف أن يفنى ما عنده ، أو يرد عليه  
ما لا يعرفه : فيزول تشرفه عند الجهال .

ولما أن يكون مكتسباً به : فهو يخشى أن يضيق مكسبه به ، وينقص حظه منه .

ولما أن يكون حسوداً ، والحسود بعيد من كل فضيلة : لا يوده أحد .

وإني لأعرف من لا يرضى بأن يبخل بعلم نفسه : حتى يبخل بعلم غيره ، ويكثر عتبه  
وسخطه : على من لا يفيد غيره : من التلامذة المستحقين لفائدة العلم .

وكثيراً ما يتوصل إلى أخذ الكتب من أصحابها . ثم منهم منها . وهذا خلق لا تبق معه  
مودة ، بل يجلب إلى صاحبه عداوات لا يحسبها ، ويقطع أطباع أصدقائه من صداقته .

ثم احذر أن تنبسط بأصحابك ، ومن يخلو بك من أتباعك ، وتحمل أحداً منهم على  
ذكر شيء في نفسه ، ولا ترخص في عيب شيء يتصل به : فضلاً عن عيبه . ولا يطمعن

أحد في ذلك من أولى أنسابك والمتصلين بك : لا جدأ ولا هزلا . وكيف تحتمل ذلك فيه ، وأنت عينه وقلبه وخليفته على الناس كلهم ؟ بل أنت هو . فإنه إن بلغه شيء مما حذرتك منه : لم يشك أن ذلك كان عن رأيك وهوأك : فينقلب عدوآ ، وينفر عنك نفور الضد .

فإن عرفت منه أنت عيبآ : فوافقه عليه موافقة لطيفة : ليس فيها غلظة . فإن الطبيب الرفيق : ربما بلغ بالدواء اللطيف : ما لا يبلغه غيره بالشق والقطع والسكي ، بل ربما توصل بالعداء إلى الشفاء ، واكتفى به عن المعالجة بالدواء .

ولست أحب أن تغضى عما تعرفه في صديقتك ، وأن تترك موافقته عليه : بهذا الضرب من الموافقة ، فإن ذلك خيانة منك ، ومساهمة فيما يمود ضرره عليه .

وليس من حق الصديق أن يمرف ويبدل بميوب الاضداد : حتى يعيبوه ويشلبوه . ثم احذر النيمة وسماعها .

وذلك أن الاشرار : يدخلون بين الاخيار في صورة النصحاء : فيوهمونهم النصيحة ، وينقلون لآلهم في عرض الاحاديث اللذيذة : اخبار أصدقائهم : عرفة بمؤهة . حتى إذا تجاسروا عليهم بالحديث المختلق : يصرحون لهم بما يفسد موداتهم ، ويشوه وجوه أصدقائهم : إلى أن ييغض بعضهم بعضآ .

وللقدماء في هذا المعنى كتب ، ولفة : يحذرون فيها من النيمة ، ويشبهون صورة النمام : بمن يحك بأظافيره أصول البنيان القوية : حتى يؤثر فيها . ثم لا يزال يزيد ويمعن : حتى يدخل فيها المعول فيقلعه من أصله .

ويضربون له الامثال الكثيرة : المشبهة بحديث الثور مع الاسد في كتاب كيلة ودمنه .

ونحن نكتفي بهذا القدر من الإيماء : لئلا نخرج عن رسم كتابنا ، وعما بنينا عليه مذهبنا : من الإيجاز في الشرح .

ولست أترك مع الإيجاز والاختصار : تعظيم هذا الباب ، وتسكيره عليك : لتعلم أن القدماء إنما ألفوا فيه الكتب ، وضربوا له الأمثال ، وأكثروا فيه من الوصايا : لما وراثة من النفع العظيم عند السامعين من الأخيار . ولما خافوه من الضرر الكثير على من يستهين به من الأغمار <sup>(١)</sup> .

وليعلم المثل المضروب في السباع القوية : إذا دخل عليها الثعلب الرواغ ، على ضعفه : أهلكها ، ودمرها ، وفي الملوك الحصفاء : يدخل بينهم أهل النيمة في صورة الناصحين : حتى يفسدوا نيتهم على وزراءهم : المبالغين في نصيحتهم ، المجتهدين في تثبيت ملكهم ، إلى أن يغضبوا عليهم ، ويصرفوا به عيونهم عنهم ، ويصيروا من محبتهم وإيثارهم على آبائهم وأولادهم : إلى أن لا يملأوا عيونهم منهم ، وإلى أن يبطشوا بهم : قتلاً وتعذيباً ، وهم غير مذنبين ، ولا مجترمين ، ولا مستحقين إلا السكرامة والإحسان ، فإذا بلغ بهم من الإفساد والإضرار ما بلغوه من هؤلاء ، فبالأحرى أن يبلغوه منا إذا لم يجدوه في أصدقاتنا الذين اخترناهم على الأيام ، وأدخرفناهم للشدائد ، وأحللناهم عمل أرواحنا ، وزدناهم تفضلاً وإكراماً .

ويتبين لك من جميع ما قدمناه : أن الصداقة ، وأصناف المحبات : التي تتم بها سعادة الإنسان من حيث هو مدني بالطبع : إنما تختلف ، ودخل فيها ضروب الفساد ، وزال عنها معنى التآحد ، وعرض لها الانتشار ، حتى احتجنا إلى حفظها والتعب الكثير بنظامها : من أجل النقائص الكثيرة التي فيها ، وحاجتنا إلى إتمامها مع الحوادث التي تعرض لنا من السكون والفساد .

فإن الفضائل الخلقية : إنما وضعت لأجل المعاملات والمعاملات ، التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها .

ذلك أن العدل : إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات ، ولينزول به معنى الجور الذي هو رذيلة عند المتعاملين .

---

( ١ ) الأغمار : جمع غمر . وهو الرجل الذي لم يحرب الأمور .

وإنما وضعت العفة فضيلة . لأجل الذات الرديئة ، التي تحمى الخيانات العظيمة على النفس والبدن .

وكذلك الشجاعة : وضعت فضيلة ، من أجل الأمور الهائلة التي يجب أن يقدم الإنسان عليها في الأوقات ، ولا يهرب منها ، وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية التي وصفناها ، وحضضنا على اقتنائها .

وأيضاً فإن جميع هذه الفضائل : تحتاج إلى أسباب خارجة من الأموال واكتسابها من وجودها ليسكنه أن يفعل بها فعل الأحرار ، والعاذل : يحتاج إلى مثل ذلك ، ليجازي من عاشره بحميل ، ويكافئ من عامله بإحسان ، وجميعها لا تقوم إلا بالابدان والانفس ، وما هو خارج عنها على حسب تقسيمنا السعادات فيما مضى .

وكذا كانت الحاجات كثيرة : احتيج إلى المواد الخارجة عنها أكثر ، فهذه حالة السعادات الإنسانية ، التي لا تتم لنا إلا بالأفعال البدنية ، والأحوال المدنية ، وبالأعوان الصالحين ، والأصدقاء المخلصين ، وهي كما تراها كثيرة ، والتعب بها عظيم . ومن قصر فيها : قصرت به السعادة الخاصة به .

ولذلك صار السكسل ، ومحبة الراحة : من أعظم الرذائل ، لأنهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل ، ويسلخان الإنسان من الإنسانية .

ولذلك ذمنا المتوسمين بالزهد : إذا تفردوا عن الناس ، وسكنوا الجبال والمغارات<sup>(١)</sup> ، واختاروا التوحش : الذي هو ضد التمدن ، لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التي عددناها كلها .

وكيف يعف ويمدل ويسنخو ويشجع : من فارق الناس وتفرد عنهم ، وعدم الفضائل الخلقية . وهل هو إلا بمنزلة الجساد والميت .

وأما محبة الحكمة ، والالتصاف إلى التصور العقلي ، واستعمال الآراء الإلهية : فإنها خاصة بالجزء الإلهي من الناس ، وليس يعرض لها شيء من الآفات التي تعرض للحيوانات الأخرى الخلقية ، وضروب الفساد .

( ١ ) المغازات : جمع مفازة ، وهي الصحراء المهلكة : التي لا ماء بها .

ولذلك قلنا : إنما لا تقبل النعمة ، ولا نوعاً من أنواع الشرور . لأنها الخير المحض ، وسببها الخير الأول : الذى لا تشوبه مادة ، ولا تلحقه الشرور التى فى المادة .

وما دام الإنسان : يستعمل الأخلاق والفضائل الإنسانية . فإنها تعوقه عن هذا الخير الأول ، وهذه السعادة الإلهية ، ولكن ليس يتم له إلا بتلك ، ومن أصل تلك الفضائل بنفسه ، ثم اشتغل عنها بالفضيلة الإلهية : فقد اشتغل بذاته حقاً ، ونجا من مجاهدات الطبيعة وآلامها ، ومن مجاهدات النفس وقوامها ، وصار مع الأرواح الطيبة ، واختلط بالملائكة المقربين ، فإذا انتقل من وجوده الأول إلى وجوده الثانى : حصل فى النعيم الأبدى ، والسرور السرمدى .

## رأى أرسطوطاليس فى السعادة الثامنة

وقد أطلق أرسطوطاليس<sup>(١)</sup> جميع هذه الألفاظ . وقال : إن السعادة الثامنة الخالصة هى لله عز وجل ، ثم للملائكة والمتألهين .

ثم قال : ولا ينبغي أن يضاف إلى الملائكة تلك الفضائل : التى عددناها فى سعادة الإنسان ، فإنهم لا يتعاملون ، ولا يكون عند أحد منهم ودعة : فيحتاج إلى ردها ، ولا لأحد منهم تجارة : فيحتاج إلى العدالة ، ولا يزرعه شيء : فيحتاج إلى العجدة ، ولا له نفقات : فيحتاج إلى الذهب والفضة ، ولا له شهوات : فيحتاج إلى ضبط النفس ، وإلى فضيلة العفة ، ولا هو مركب من الاستقصاءات الأربعة : التى تحمل فى أضدادها ، فيحتاج إلى الغذاء .

(١) أنظر ترجمته فى هامش ص ٨٨ .

فإذا هؤلاء الأبرار المطهرون من بين خلق الله عز وجل : غير محتاجين إلى الفضائل الإنسانية ، والله تعالى وتقدس وجل ، أعلى من ملائكته : فيجب أن ننزهه عن جميع ما ذكرناه : من فضائل الإنسان ، وإنما نذكره بالخير البسيط : الذي يشبهه ، وننسب إليه الأمور العقلية التي تليق به .

فبالحق الواجب الذي لا مزية فيه : لا يحبه إلا السعيد ، الخير من الناس : الذي يعرف السعادة والخير بالحقيقة ، فذلك يتقرب إليه بهما جهده ، ويطلب مرضاته بقدر طاقته ، ويتقبل أوامره بنحو استطاعته .

ومن أحب الله تعالى هذه المحبة ، وتقرب إليه هذا التقرب ، وأطاعه هذه الطاعة : أحبه الله وقربه وأرضاه . واستحق خلته التي أطلقها الشريعة على بعض البشر : حيث قيل لإبراهيم خليل الله .

وأما أرسطوطاليس : فإنه أطلق بعد ذلك بالعلّة شيئاً غير مطلق في لغتنا ، وذلك أنه قال : من أحب الله وتعاهده : كما يتعاهد الأصدقاء بعضهم بعضاً : أحسن إليه .

ولذلك يظن بالحكيم اللذات العجيبة ، وضروب الفرح الغريبة ، ويرى من تحقق بالحكمة : أنها ملذّة غاية الالتذاد ، فلا يلتفت إلى غيرها ، ولا يعرج على سواها .

وإذا كان الأمر على ما وصفناه : فالحكيم السعيد ، التام الحكمة : هو الله تعالى . فليس يحبه إلا السعيد الحكيم بالحقيقة : لأن الشبيه إنما يسر بشبيهه فقط . ولذلك صارت هذه السعادة : أرفع وأعلى من تلك السعادة التي ذكرناها . وهي غير منسوبة إلى الإنسان ، لأنها مذهب من الحياة الطبيعية : مبرأة من القوى النفسانية ، مباينة لجميعها غاية المباينة ، وإنما هي موهبة إلهية ، يهبها الباري جلّت عظمتة . لمن اصطفاه من عباده ، ثم التمسها منه ، وسعى لها سعيها ، ورغب فيها ، ولزمها مدة حياته ، واحتمل المشقة والتعب ، فإن من لم يصبر على إدامة التعب : اشتاق للذهب .

## الراحة البدنية : ليست من أسباب السعادة

ذلك : أن اللعب ، يشبه الراحة ، والراحة ليست من تمام السعادة ، ولا من أسبابها . وإنما يميل إلى الراحة البدنية ، من كان طبيعى الشكل ، بهيمى النجار<sup>(١)</sup> ، كالعبيد ، والصينيين والبهائم ، وليس ينسب الحيوان غير الناطق ، ولا الصينيان والعبيد : إلى السعادة . ولا من كان مناسباً لهم .

وأما العاقل الفاضل : فإنه يطلب بهيمته أعلى المراتب .

وأرسطوطاليس يقول : ( لا ينبغي أن تكون هم الإنسان لىسية ، وإن كان إنساناً ، ولا يرضى بهم الحيوان الميت : وإن كان هو أيضاً ميتاً ، بل يقصد بجميع قواه : أن يحيا حياة إلهية : فإن الإنسان وإن كان صغير الجثة : فهو عظيم بالحكمة ، شريف بالعقل . والعقل يفوق جميع الخلائق ، لأنه الجوهر الرئيسى : المستولى على هذا الشكل : بأمر مبدعه تعالى جده .

وقد قلنا فيما تقدم : إن الإنسان مادام فى هذا العالم : فهو محتاج إلى حسن الحال الخارجة عنه . ولكن ينبغي أن يتصرف إلى طلب ذلك بقوة كلها ، ولا يطلب الاستكثار منه ، فقد يصل إلى الفضيلة : من ليس بكثير المال ، ولا ظاهر اليسار . فإن الفقير من المال والأموال : قد يفعل الأفعال الكريمة .

ولذلك قالت الحكماء : إن السعداء هم الذين رزقوا القصد من الخيرات الخارجة عنهم ، وفعلوا الأفعال التى تقتضها الفضيلة وإن كانت فيهم قليلة .

( ١ ) النجار : الأصل والحسب .



هذا كلام الحكيم في هذه المرتبة التي وعدناك الكلام فيها ، وهو يقول بعد ذلك :  
ليس في معرفة الفضائل كفاية : بل الكفاية في العمل بها .

ومن الناس من ينصاع إلى الفضائل ، وينقاد إلى الموعظة ، ويرغب في الخيرات .  
وهؤلاء قليلون : وهم الذين يمتنعون من جميع الرذائل والشور . وذلك للفرصة الجيدة ،  
والطبع الجيد الفائق .

ومنهم من ينقاد إلى الخيرات : حتى يمتنع من الرذائل والشور : بالوعيد والفرع ،  
والإنذارات من العذاب : فيهرب من الجحيم والمساوية ، وما أعد فيها من الآلام .

ولذلك حكمتنا : أن بعض الناس أخيار بالطبع ، وبعضهم أخيار بالشرع وبالتعلم .  
فالشرعية : تجري هؤلاء مجرى الماء . الإنسان الذي به يسبخ غصته . ومن لا ينقاد لها :  
فهو كالشرق بالماء فلا يشرب الماء ، ولا يجده يسبخ غصته ، وهو الهالك الذي  
لا حيلة فيه ، ولا طمع في إصلاحه وبرئه .

ولهذه العلة قلنا : إن من كان بالطبع خيراً فاضلاً : فذلك لمحبة الله إياه ، وليس أمره  
إليتنا ، ولا نحن كنا سببه ، بل الله عز وجل .

ومثل هذا هو الذي يقول فيه أرسطوطاليس : إن عناية الله به أكبر .

فتحصل مما قدمناه : أن أصناف السعداء من الناس : أربعة ، وهم موجودون  
بالتصنف والחס .

وذلك أنا نجد من الناس : من هو خير فاضل ، من مبدل تكوينه : نرى فيه النجابة  
طفلاً ، وتفترس فيه الفلاحة ناشئاً : بأن يكون : حبيباً كريم الخيم<sup>(١)</sup> : يؤثر بحالسة  
الاخيار ، ومؤانسة الفضلاء ، وينفر من أضدادهم . وليس يكون كذلك إلا بعناية تلحقه  
من أول مولده كما قلناه .

( ١ ) الخيم : السجية والطبيعة .

ونجد أيضاً : من لا يكون بهذه الصفة : من مبدأ تسكوينه ، بل يكون كسائر الصبيان .  
إلا أنه يسمى ، ويجهل ، ويطلب الحق : إذا رأى اختلاف الناس فيه ، ولا يزال كذلك ،  
حتى يبلغ مرتبة الحكماء ، أعنى أن يصير عليه صحيحاً ، وعمله صواباً .

وليس يبلغ هذه الدرجة : إلا بالفلسف ، واطراح العصبية ، وسائر  
ما حذرنا منه .

ونجد أيضاً من يوجد بهذه السيرة : أخذاً على الإكراه . إما بالتأديب الشرعى ،  
ولما بالتعليم الحكى .

ومعلوم أن المطلوب هو القسم الثانى ، إذ كانت الأقسام الباقية هى من خارج ،  
ولا يمكن أن تطلب . أعنى أن من يتفق له فى أصل مولده السعادة ، ومن يكره عليها ،  
ليس من أقسام الطالب المجتهد . وتبين أيضاً مقام الطالب المجتهد ، ومنزله من السعادة  
الثامة الحقيقية ، وأنه وحده من بين سائر الطبقات : هو السعيد الكامل المقرب إلى الله  
عز وجل ، المحب المطيع المستحق خلته ومحبته . كما تقدم وصفه .

---

# المقالة السادسة دَوَاءُ الْبُخْسِ



## علاج الأمراض التي نأحق النفس

نبتدى بمون الله وتوفيقه وتأيدده في هذه المقالة : بذكر شفاء الأمراض : التي تلحق نفس الإنسان وعلاجها ، ونذكر الأسباب والعلل : التي تولدها ، وتحدث منها . فإن حذاق الأطباء : لا يقدمون على علاج مرض جسماني : إلا بعد أن يعرفوه : ويعرفوا السبب والعللة فيه ، ثم يرومون مقابلته بأضداده : من العلاجات ، ويبتدون من الحمية ، والأدوية اللطيفة : إلى أن يفتروا في بعضها إلى استعمال الأغذية السكرية ، والأدوية البشعة . وفي بعضها : إلى القطع بالحديد ، والسكي بالنار .

ولما كانت النفس : قوة إلهية : غير جسمانية ، وكانت مع ذلك : مستعملة لمزاج خاص ، ومربوطة به : رباطاً طبيعياً إلهياً : لا يفارق أحدهما صاحبه ، إلا بمشيئة الخالق عز وجل ، وجب أن نعلم أن أحدهما : متعلق بصاحبه ، متغير بتغيره : فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعياناً : بما يظهر لنا من أفعالها . وذلك أنا كما نرى المريض من جهة بدنه : لاسيما إن كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين : أعنى الدماغ والقلب : يتغير عقله ويمرض ، حتى ينسكر ذهنه وفكره وتحيله ، وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك .

كذلك أيضاً نرى المريض من جهة نفسه : إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالعشق ، وإما بالشهوات الهائجة به : تتغير صورة بدنه ، حتى يضطرب ، ويرتعد ، ويصفر ، ويحمر ، ويهزل ، ويسمن ، ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحواس .

فيجب لذلك ، أن نتفقد مبدأ الأمراض : إذا كان من نفوسنا . فإن كان مبدؤها من ذاتها : كالفسك في الأشياء الرديئة ، وإجالة الرأي فيها ، وكاستشعار الخوف ، والخوف من الأمور العارضة والمترقبة ، والشهوات الهائجة : قصدنا علاجها بما ينفعها .

وإن كان مبدؤها من المزاج ، ومن الخواص . كالخور : الذى مبدؤه ضعف حرارة القلب ، مع السكل والرفاهية . وكالعشق : الذى مبدؤه النظر : مع الفراغ والبطالة : قصدنا أيضاً علاجه بما يخص هذه .

وأيضاً لما كان طب الأبدان : ينقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين :

أحدهما : حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، والآخر : ردها إليها ، إذا كانت غائبة ، وجب أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها : فزدها إذا كانت غائبة ، ونقدم في حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، فنقول : إذا كانت خيرة فاضلة : تحب نيل الفضائل ، وتحرم على إصابتها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقية ، والمعارف الصحيحة ، فيجب على صاحبها : أن يعاشر من يجانسه ، ويطلب من يشاكله ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سوام .

ويحذر كل الحذر : من معاشرة أهل الشر والمجون ، والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش : المفتخرين بها ، المنهمكين فيها ، ولا يصغى إلى أخبارهم : مستطيباً ، ولا يروى أشعارهم : مستحسنين ، ولا يحضر مجالسهم مبتهجين .

وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم : يملق من وضره ووسخه بالنفس : ما لا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل ، والعلاج الصعب . وربما كان سبباً لفساد الفاضل الخنك ، وغواية العالم المستبصر : حتى يصير فتنة لها : فضلاً عن الحدث الناشئ المسترشد .

والعلة في ذلك : أن محبة اللذات البدنية ، والراحات الجسمية : طبيعة للإنسان ، لأجل النقائص التى فيه ، فنحن بالجيلة الأولى ، والفطرة السابقة إلينا تميل إليها ، ونحرص عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها : بزمام العقل : حتى نقف عند ما يرسم لنا ، ونقتصر على المقدار الضرورى منها .

ولأنما استثنيت في أول هذا الكلام ، وشرطت بما شرطت : لأن معاشرة الأصدقاء الذين ذكرت أحوالهم في المقالة المتقدمة ، وحكمت بتام السعادة معهم ولم : لا تتم إلا بالمؤانسة والمداخلة .

## اللذة التي تطيقها الشريعة

ولا بد في ذلك ، من المزاج المستعذب ، والاحاديث المستطابة ، والفكاهة المحبوبة : وإصابة اللذة التي تطيقها الشريعة ، ويقدرها العقل : حتى لا يتجاوزها إلى الإسراف فيها : ولا يقصر عنها تهاوناً بها .

ذلك أن الخروج إلى أحد الطرفين : إن كان إلى جانب الزيادة ، سمى مجوناً ، وفسقاً ، وخلاعة ، وما أشبهها من أسماء الذم . وإن كان إلى جانب النقصان : سمى فدامة <sup>(١)</sup> وعبوساً ، وشكاسة ، وما أشبهها من أسماء الذم أيضاً . والمتوسط بينهما : هو الظريف : الذي يوصف بالمشاشة ، والطلاقة ، وحسن العشرة . ويعرض من الصعوبة في وجود هذا الوسط : ما يعرض في سائر الفضائل الخلقية .

وبما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه : أن يلتزم وظيفة من الجزء النظري والعملي : لايسوغ له الإخلال بها البتة : لتجرى النفس بحرى الرياضة : التي تلزم في حفظ صحة البدن . وأطباء النفوس : أشد تعظيماً لها في حفظ صحة النفس .

وذلك أن النفس : متى تعطلت من النظر ، وعدمت الفكر والغوص على المعاني : تبلدت وتبلهت ، وانقطعت عنها مادة كل خير .

وإذا ألفت الكسل ، وتبرمت بالروية ، واختارت العطلة : قرب هلاكها ، لأن في عطلتها هذه : السلاخاً من صورتها الخاصة بها ، ورجوعاً منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس في الخلق : نعوذ بالله منه .

---

( ١ ) الفدامة : من القدم : وهو الذي من السلام : في ثقل ، ورخاوة ، وقلة فهم ، والغليظ ، الأحمق ، الجاني .

وإذا تعود الحدث الناشئ من مبدأ تكوينه : الارتياض بالأمور الفكرية ، ولازم  
التماليم الأربعة : ألف الصدق ، واحتمل ثقل الروية والنظر ، وأنس بالحق ، ونبا بطبعه  
عن الباطل ، وسمعه عن الكذب .

فإذا بلغ أشده ، وانتقل إلى مطالعة الحكمة : استمر طبعه فيها وتشرب ما يستودع  
منها ، ولا يرد عليه أمر غريب ، ولا يحتاج إلى كثير تعب : في فهم غوامضها ، واستخراج  
دقائقها . فيصل إلى سعادتها التي ذكرناها سريماً . وإن كان حافظ هذه الصحة : قد توحد  
في العلم وبرع : فلا يحمله العجب بما عنده على ترك الازدياد . فإن العلم لا نهاية له ،  
وفوق كل ذي علم عليم .

ولا يتكامل عن معاودة ما عليه ، والدرس له . فإن النسيان : آفة العلم . وليتذكر  
قول الحسن البصري رحمه الله عليه : « اقدموا <sup>(١)</sup> هذه النفوس ، فإنها طائفة ، وحادثوها :  
فإنها سريرة الدثور <sup>(٢)</sup> » .

واعلم أن هذه الكلمات مع قلة حروفها : كثيرة المعاني ، وهي مع ذلك فصيحة ،  
واستوفت شروط البلاغة .

وليعلم أيضاً حافظ هذه الصحة على نفسه : أنه إنما يحفظ عليها نعماً شريفة جليلة ،  
موهوبة لها ، وكنوزاً عظيمة : مدخرة فيها . وملايس فاخرة مفرغة عنها . وإن من  
كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له في ذاته : لا يحتاج إلى طلبها من خارج ، ولا إلى  
بذل الأموال فيها لغيره . ولا يكلف العناء والمؤن الثقال في تحصيلها ، ثم أعرض عنها ،  
وأهمل أمرها : حتى السليخ عنها ، وعرى منها ، للموم في فعله ، مغبون في رأيه غير رشيد ،  
ولا موفق . لا سيما وهو يرى طالبي النعم الخارجة : كيف يتجشمون الأسفار البعيدة  
الخطرة ، ويقطعون السبل المخوفة الوعرة ، ويتمرضون لضروب المسكاره ، وأنواع  
التلف : من السباع العادية ، وطبقات الأنراف الباغية ، وهم يخيبون في أكثر الأحوال ،

---

( ١ ) قدمه : كفه ، وادعموا هذه النفوس : أى كفوها من الآثام .

( ٢ ) دثور النفس : سرعة نسيانها .



مع مقاساة هذه الأحوال . وربما عرضت لهم الندامات المفرطة ، والحسرات المعطبة :  
التي تقطع أنفاسهم ، وتفصل أعضائهم . فإن ظفروا بشيء من مطالبهم ، كان لا محالة زائلاً  
عن قرب ، أو معرضاً للزوال ، وغير مطمئع في بقائه ، لأنه من خارج ، وما كان  
خارجاً عنها : فهو غير بمنع عما يطرقه من الحوادث التي لا تحصى كثرة . وصاحبه  
مع هذه الحال : شديد الوجع ، دائم الاشفاق ، متعب الجسم والنفس ، يحفظ ما لا يجد  
إلى حفظه سيلاً ، والحذر على ما لا يغني فيه الحذر قليلاً .

وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عنا سلطاناً ، أو صاحب سلطان : تضاعفت عليه  
هذه المسكاره أضعافاً كثيرة : بقدر ما يلبسه ، وبحسب ما يقاسيه ، من الأضداد  
والحساد : على البعد ومن القرب . وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن ، في استصلاح  
من يليه ، وبلى من يليه : من مداراة من يرأيه ويعاديه . وهو في كل ذلك ملوم مستبطاً ،  
ومعتب مستقصر . ويستزیده جميع أهله ، والمتصلين به ، ولا مسبيل إلى إرضاء واحد  
منهم : فضلاً عن جميعهم . ولا يزال يلتمه عن أخص الناس به : من أولاده وحرمة ،  
ومن يجرى مجراهم : من حاشيته وخوله : ما يملؤه غيظاً وحنفاً ، وهو غير آمن على نفسه  
من جبهتهم : مع التحاسد الذي بينهم : من مكاتبة الأعداء إياهم ، ومواطأة الحساد لهم .  
وكما ازداد من الأعوان ، والأعضاء ، والألصاق : زادوه في شغل القلب ،  
وجلبوا إليه من المسكاره : ما لم يكن عنده . فهو غني عن الناس : وهو أشدهم فقراً ،  
ومحسود : وهو أكثرهم حسداً .

وكيف لا يكون فقيراً ، وحد الفقر : هو كثرة الحاجة . فأكثر الناس حاجة :  
أشدهم فقراً . كما أن أغنى الناس : أقلهم حاجة <sup>(١)</sup> ولذلك حكىنا حكماً صادقاً : بأن الله  
تعالى : أغنى الأغنياء : لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء .

( ١ ) قال الشافعي رضي الله تعالى عنه :

غني بلامال : من الناس كلهم وليس الغني : إلا من الله ، لا به

## الملوك

وقد حكمتنا أيضاً : أن الملوك منا : هم أشد الناس فقراً ، لكثرة حاجتهم إلى الأشياء . ولقد صدق أبو بكر الصديق في خطبته حيث قال : « أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، ثم وصفهم فقال : « إن الملك إذا ملك : زهده الله فيما في يده ، ورغبه فيما في يد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق : فهو يحسد على القليل ، ويتسخط بالكثير ، ويسأم الرخاء ، وإن انقطعت عنه اللذة : لا يستعمل الغيرة ، ولا يسكن إلى الثقة . فهو كالدرهم الغش ، والسراب الخادع : جلد الظاهر ، حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه ، ولضب عمره ، ومحي ظله : حاسبه فأشد حسابه ، وأقل عفوه . إلا إن الملوك هم المرحومون » .

فهذه صفة الملك : إذا تمسكن من مله ، لا يغادر منه شيئاً .

ولقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك : يستعيد هذا الكلام : ثم يستعير<sup>(١)</sup> : لموافقته ما في قلبه ، وصدقه عن حاله وصورته .

ولعل من يرى ظاهر الملوك : من الأسرة والفرش ، والزينة والآلات ، ويشاهدهم في مواكبهم : محفوفين بحشودين . بين أيديهم الجنائب<sup>(٢)</sup> والمراكب ، والعبيد ، والخدم ، والحجاب والحشم : يروعه ذلك فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم .

لا والذي خلقهم ، وكفانا شغلهم : إنهم في هذه الأحوال : ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالافكار التي تعتورهم وتعترهم فيما قلناه من ضروراتهم ، وقد جربنا ذلك في اليسير بما ملكناه : فدلنا على الكثير بما وصفناه .

( ١ ) يستعير : أي يكي ، وتسقط هراته .

( ٢ ) الجنائب : جمع جنيب ، وهو الذي يقوده من غير راكب : يجنب الخيل : لكثرتها .

ولعل بمض من يصل إلى الملك أو السلطان : فيلتذ في المبدل مدة يسيرة جداً بمقدار ما يتمكن منه ، وتنفذ عينه فيه .

لكنه بعد ذلك : يصير جميع ما ملكه كالشيء الطبيعي له : لا يلتذ به ، ولا يفكر فيه ، ويمد عينه إلى ما لا يملكه .

فلو ملك الدنيا بجذافيرها : لتمنى دنيا أخرى ، أو نزقت<sup>(١)</sup> همته إلى البقاء الأبدى ، والملك الحقيقي : حتى يتبرم بجميع ما وصل إليه وبلغته قدرته .

ذلك أن حفظ الدنيا صعب جداً ، لما في طبيعتها من الإخلال والتلاشي ، ولما يضطر الملك إليه من الأمور التي وصفناها ، والأموال الجمة المصروفة إلى الجنود المرتبطين ، والخدم المتسومين ، والذخائر والكنوز المعدة للكافات والحوادث : التي لا يؤمن طروقها .

فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا . وأما تلك النعم التي هي في ذاتنا ، فإنها موجودة عندنا وفينا ، وهي غير مفارقة لنا : لأنها موهبة الخالق جل وعلا . وقد أمرنا باستثمارها ، والترقي فيها ، فإذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعماً بعد نعم ، ورقينا درجة بعد درجة : حتى تؤدينا إلى النعم الأبدية : التي وصفناها فيما تقدم ، وهو الملك الحقيقي : الذي لا يزول ، والغبطة الأبدية الصافية التي لا تحول .

فن أخسر صفقة ، وأظهر سقطلة : بمن أضاع جواهر نفيسة بالية عنده ، وموجودة له : وطلب أعراضاً خسيصة فانية : ليست عنده ، ولا موجودة له .

فإن اتفق أن يجدها : لم تبق له ، ولم تترك عليه ، وذلك أنها تنقل عنه ، أو ينقل عنها لا محالة .

( ١ ) نزع الرجل : خف ، وطاش ، ونشط .

## القناعة

لذلك قال الحكميم لمن رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادة الخارجة : أن لا يشتغل بفضول العيش : فإنها بلا نهاية .

ومن طلبها : أوقعته في مهالك لا نهاية لها .

وقد أعلمناك فيما تقدم : ما الكفاية ؟ وما القصد ؟ وأن الغرض الصحيح بينهما هو مداواة الآلام ، والتمركز من الوقوع فيها : لا التمتع وطلب اللذة .

وأن من عاجل الجوع والعطش : اللذين هما مرضان مؤلمان حادان : لا ينبغي له أن يقصد لذة البدن : بل صحته ، وسيلتذ لا محالة ، فإن من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة : لم تحصل له الصحة ، ولم تبق له اللذة .

وأما من لم يرزق الكفاية ، واحتاج إلى السعى والاضطراب في تحصيلها : فيجب أن لا يتجاوز القصد ، وقدر حاجته منها إلى ما يضطر معه إلى السعى الحثيث ، والحرص الشديد ، والتعرض لقبائح المكاسب ، أو ضروب المهالك والمعاطب .

بل يحمل في طلبها لإجمال العارف بحساستها . وأنه يضطر إليها لتقصانه : فيطلب منها كسائر الحيوانات في ضروراتها .

فإن العاقل إذا تصفح أحوالها : وجد منها ما يأكل الميتة ، ومنها ما يأكل الروث وما في الخش<sup>(١)</sup> . وهي مسرورة بما تجده من أقواتها ، قريرة العين بها . وليست تحس من نفوسها نفوراً ، ولا تنصرف نفوسها عنها : كما تنصرف نفوس الحيوانات المضادة لها . بل إنما تنصرف من أقوات تلك الآخر التي تضادها في النظافة .

(١) الخش : موضع الفئاط .

مثال ذلك : الجمل<sup>(١)</sup> والحنافس : إذا قيست إلى النحل : فإن تلك تهرب من الروائح الطيبة . والافوات النظيفة ، وهذا يطلبها ويسرّ بها .  
فإذن لسبة كل حيوان إلى قوته الخاص به : كسكل مقتنع بما يحفظ بقاءه وحياته فهو طالب مسرور به .

فينبغي أن ننظر إلى أقواتنا بهذه العين ، ونزلها منزلة الحش الذي تضطر إلى ملاسته ، لإخراج ما كنا نحرص على الوصول إليه ، فلا نبعدا من هذا الآخر : لانهما ضرورتان لنا . فنحن نلابسهما لأجل الضرورة ، ولا نشغل عقلنا باختيارهما ، والتعجّب بهما ، وإفناء أعمارنا في التأنق لهما ، والتوصل إليهما . ولا نتكاسل أيضاً عن إعداد ضرورتنا منهما . وإنما يفضل أحدهما على الآخر ، ويستحسن السعي في طلب الدخّل ، ولا يستحسن السعي في طلب الخرج : لأن الأول منهما : هو غذاء موافق لنا : يخلف علينا ما تحلّ من أبداننا ، ولا نستقدره . كذلك لا نفر بما نضعه مكان ما ينقص منه ، وينوب عنه .

وأما الثاني منهما : فهو عصارة ذلك الغذاء ، وما نفته الطبيعة ، وأخذت حاجتها منه . أعنى الذي أحواله دماً صافياً ، وفرقه في العروق على الأعضاء ، وأطرح التفل : الذي لا حاجة بها إليه ، وهو في غاية المخالفة والبعد من أمر جتنا ، فنحن نستوحش منه ، وتنفر عنه ، لأجل الضدية والمخالفة . إلا أننا مضطرون إلى إخراجها ، وتنحيته ونفضه عنا : بالآلات الموهوبة : المستعملة في ذلك ، ليفرغ مكانه لما يأتي بعده ، ويمرّ بجره .

وينبغي لحافظ الصحة على نفسه ، أن لا يحرك قوته الشهوانية ، وقوته الفضية : بتذكر ما أصابه منهما موجداً لذاته ، بل يتركهما حتى يتحركا بأنفسهما . وذلك أن الإنسان ربما تذكر لذاته : في إصابة الشهوات وطيبها ، ومراتب كرامته من السلطان وغيرها : فاشتاق إليها . وإذا اشتاق إليها : تحرك نحوها ، فقد جعلها غرضاً له : فيضطر إلى استعمال الروية ، واستخدام النفس الناطقة فيها : لتدبر له الوصول إليها . وهذه صورة من يثير بها ثم طادية ، ويبهج سباعاً ضارية : ثم يلتمس معالجتها ، والخلاص منها .

---

( ١ ) الجمل : حشرة كالحنافس ، تلتها الرائحة الزكية .

وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال ، بل هي من أفعال المجانين : الذين لا يميزون بين الخير والشر ، ولا بين الصواب والخطأ .

ولذلك يجب أن لا يتذكر أعمال هاتين القوتين : لئلا يشتاق إليهما ، ويتحرك نحوهما . بل يتركهما فإنهما سيثوران لأنفسهما ، ويهيجان عند حاجتهما ، ويلتمسان ما يحتاج البدن إليه ، ويتخذان من باعث الطبيعة : ما يغنيك عن بعثهما بالفكر ، والروية ، والتميز : فيسكون حينئذ فكرك وتميزك : في إزاحة علقتهما ، وتقدير ما تطلقه لهما في الأمر الضروري ، الواجب لأبداننا : الحافظ لصحتها . وهذا هو إضاءة مشيئة الله تعالى ، وإتمام سياسته . لأنه تعالى : إنما وهب هاتين القوتين لنا : لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما : لا لنخدمهما ونعبد لهما .

فكل من استعمل النفس الناطقة في خدمة عديهما : فقد تجاوز أمر الله ، وتعدى حدوده ، وعكس سياسته وتقديره .

وذلك أن خالفنا عز وجل : رتب لنا هذه القوى : بتدبيره وتقديره ، ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره . وكل من خالفه وعدل عنه : فهو أعظم جائر على ذاته ، وأكبر ظالم لنفسه !

## حافظ الصحة على نفسه

ينبغي لحافظ الصحة على نفسه : أن يلفظ نظره : في كل ما يعمل ويدبر ، ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه : لئلا يجرى فيها على عادة تقدمت له : مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته . فما أكثر ما يمرض الإنسان من بدو أفعال تخالف ما قدم فيه عزيمته ، وعقد عليه رايه .

فمن عرض له مثل هذا : فيجب عليه أن يضع لنفسه عقوبات : يقابل بها أمثال هذه الذنوب . فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طمام ضار ، وترك حمية : قد كان استشعرها ، أو تناول فاكهة غير موافقة ، أو حلواء كذلك : عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه : إلا على ألطف مما يقدر عليه وأقله ، وإن أمكنه الطي<sup>(١)</sup> فليطو ، ويزيد في الحمية ، من غير حاجة إليها ، ويمكن في توبيخه لنفسه : أن يقول لها : إنك قصدت تناول النافع : فتناولت الضار ، وهذا فعل من لا عقل له .

ولعل كثيراً من البهائم : أحسن حالا منك : لأنه ليس فيها ما تقصد لذة لها ، ثم تتناول ما يؤلمها : فاستمسكي الآن للعقوبة .

وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه : فليقابل ذلك بالتمرض لسفيهه يعرفه بالبذاء : ثم ليحتمله ، وليتذلل لمن يعرفه بالخيرية : ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك . أو ليفرض على نفسه مالا يخرج صدقة . وليجعل ذلك نذراً عليه : لا يخل به .

وإن أنكر من نفسه كسلاً وتوانياً في مصلحة له : فليعاقب نفسه : بسعى فيه مشقة ، أو صلاة فيها طول ، أو بعض الأعمال الصالحة : التي فيها كدر وتعب .

وبالجملة فليرسم على نفسه رسوماً : تصير عليها فرائض ، وحدوداً لا يخل بها ، ولا يترخص فيها : إذ أنكر من نفسه مخالفة لعقله ، وتجاوزاً لمرسومه .

وليحذر في جميع أوقاته : ملابسة رذيلة ، أو مساعدة رفيق عليها ، أو مخالفة صواب . ولا يستحقر شيئاً مما يأتيه من صفار السيئات ، ولا يطلبن رخصة فيها : فإن ذلك يدعوهُ إلى أعظم منها .

ومن تمود في أول نشوه ، وحدثنان شبابه : ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه ، وحفظ لسانه ، واحتمال أقرانه : خف عليه ما يثقل على غيره : ممن لم يتأدب بهذه الآداب .

---

( ١ ) طوى فلان : جاع . وطوى البطن : خس من الجوع . والمراد : أن أمكنه أن يجوع ؛ فليجوع . فني ذلك الخير كل الخير .

وبيان ذلك : أنا نحمد العبيد وأشسباهم : إذا بلوا بموالى سوء : يسهون عليهم ،  
ويسبون أعراضهم : هان عليهم الخطب فيما يسمعونه ، حق لا يؤثر فيهم ،  
وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد : ضحكا غير مشكف . ويميلون عند ذلك أعمالهم :  
ودعين طلقين ، غير قلقين . وقد كانوا قبل ذلك شرسين ، غضوبين : غير محتملين ،  
ولا ممسكين عن الأجوبة والانتقام بالكلام ، وطلب التشنى بالخصام .

وهذه سبيلنا : إذا ألفنا الفضائل ، وتجنبنا الرذائل ، وأمسكنا عن مقابلة السفهاء  
وبحاراتهم ، والانتقام منهم .

ويجب على حافظ الصحة على نفسه : أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم : فإنهم  
يستعدون للأعداء : بالعدة والعتاد ، والتحصن قبل هجوم العدو ، وهم في مهلة من زمانهم ،  
وفي اتساع من نظرهم . ولو أغفلوا ذلك : لئى أن تحمل بهم المسكاره ، وتطرقهم الشدائد :  
لأذهلهم الأمر عن الحيلة ، وعن رأى السديد .

فعلى هذا الأصل : يجب أن نبني أمورنا في الاستعداد لأعدائنا : من الشره والغضب ،  
وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل : بأن نتعود الصبر على ما يجب الصبر عليه ،  
والحلم عن ينبغى أن يحلم عنه ، ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة ، ولا ننتظر دفع  
هذه الرذائل وقت هيجانها : فإن الأمر عند ذلك : صعب جداً ، وأمله غير ممكن البتة .

## معرفة المرء عيوب نفسه

ويجب على حافظ الصحة على نفسه : أن يطلب عيوب نفسه : باستقصاء شديد ،  
ولا يقتنع بما قاله جالينوس في ذلك .

فإنه ذكر في كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه : « لأنه لما كان كل إنسان  
يحب نفسه : خفيت عليه معاييه ، ولم يرها : وإن كانت ظاهرة » .



وأشار في كتابه هذا : بأن يختار من يحب أن يبرأ من العيوب : صديقاً كاملاً فاضلاً .  
 فيخبره بعد طول المؤانسة : أنه إنما يعرف صدق مودته : إذا أصدقته عن عيوبه  
 حتى يتجنبها ، ويأخذ عهده على ذلك ، ولا يرضى منه إذا قال له : لا أعرف لك عيباً . بل ينكر  
 عليه ، ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة ، ويعاود مسأله والإلحاح عليه . فإذا لم يخبره بشيء  
 من عيوبه : زاد في العتب الصريح ، والإلحاح قليلاً . فإذا أخبره ببعض ما يثر عليه منه :  
 فلا يظهر له في وجهه أو كلامه نكرة ، ولا انقباضاً . بل يبسط له وجهه ، ويظهر  
 السرور بما أخرجه إليه ، ونبهه عليه . ويشكره على الأيام ، وفي أوقات المؤانسة :  
 ليتطرق له إلى إهداء مثله إليه ، ثم يعالج ذلك العيب : بما يزيل أثره ، ويمحو ظله ، ليعلم  
 ذلك المهدي إليك عيبك : أنك من وراء نفسك ، وفي طريق علاج مرضك ، فلا ينقض  
 عن معاودتك ولصيححتك .

وهذا الذي أشار به جالينوس : معوز غير موجود ، ولا مطموع فيه .  
 ولعل العدو في هذا الموضع : أنفع من الصديق . فإن العدو : لا يمتدحنا في إظهار  
 عيوبنا . بل يتجاوز ما يعرف منا إلى التحرض والكذب فيها .  
 فلنتنبه على كثير من عيوبنا من جهتها . بل نتجاوز ذلك إلى أن نتهم نفوسنا  
 بما ليس فيها .

ولجالينوس أيضاً مقالة . يقول فيها : إن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم .

وهذا صحيح : لا يخالفه فيه أحد . وذلك لما ذكرناه .

فأما ما اختاره أبو يوسف بن إسحق السكندی في ذلك ، فهو ما حكاه بالفاظه  
 وهو هذا قال :

ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه : أن يتخذ صور جميع معارفه من الناس : امرأة له تربية  
 صور كل واحد منهم : عند ما تعرض له آلام الشهوات : التي تضر السيئات . حتى لا يغيب  
 عنه شيء من السيئات التي له .

وذلك أنه يكون متنفذاً سيئات الناس : فتى رأى سيئة بادية من أحد : ذم نفسه عليها . كأنه هو فعلها ، وأكثر عتبه على نفسه من أجلها . ومرض عليها كل يوم وليلة : جميع أفعاله ، حتى لا يشذ عنه شيء منها ، فإنه قبيح بنا : أن نجتهد في حفظ ما نقصناه من الحجارة الدنيئة ، والأرمد<sup>(١)</sup> الهامدة الغريبة منا : التي لا ينقصنا عدمها البتة في كل يوم ، ولا نحفظ ما يتفق من ذواتنا التي بتوفيرها بقاؤنا ، وبنقصانها فناؤنا .

فإذا وقفنا على سيئة من أفعالنا : اشتد عدلنا لأنفسنا عليها : ثم لنقيم عليها حداً : نفرضه ولا نضيعه .

وإذا تصفحنا أفعال غيرنا : ووجدنا فيها سيئة : عاتبنا أيضاً نفوسنا عليها . فإن نفوسنا تردع حينئذ عن المساوى ، وتألف الحسنات ، وتكون المساوى أبدأ ببالنا : لا ننساها ، ولا يأتى عليها زمان طويل : فيعنى ذكرها .

ولذلك ينبغي أن نعمل في الحسنات لنفرغ إليها ، ولا يفوتنا منها شيء .

قال : ( وينبغي أن لا ننتطح : بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب : التي تفيد غيرها معاني الحكمة ، وهي عادمة اقتنائها . أو كالمن : يشهد ولا يقطع . بل نكون كالشمس : التي تفيد القمر : كلما أشرقت عليه : إنارة من ذاتها . فتفعل له تماماً : حتى يكون له شبهها ، وإن قصر عن نورها ) .

فهكذا ينبغي أن يكون حالنا : إذا أفدنا غيرنا الفضائل .

وهذا الذي ذكره الكندي في ذلك : أبلغ مما قاله من تقدمه .

---

( ١ ) الأرمد : الأغبر ، والوسخ .

# المقالة السابعة

---

## رد الصّحة على النفس



## الأمراض الغالبة على النفس وعلاجها

رد للصحة على النفس إذا لم تكن حاضرة . وهو القول في علاج أمراضها .  
ونبتدى بمعمونة الله تعالى بذكر أجناس هذه الأمراض الغالبة ، ثم بمداواة الأعظم  
فالأعظم منها نكابة ، والأكثر فالأكثر جناية . فنقول :

أما أجناسها الغالبة : فهي مقابلات الفضائل الأربع : التي أحصيناها في مبدل الكتاب .  
ولما كانت الفضائل : أوساطاً مغمودة ، وأعياناً موجودة : أمكن أن تطلب وتقصد ،  
وتلتقى إليها الحركة والسعى والاجتهاد .

وأما سائر النقط التي ليست بأوساط : فإنها غير محدودة ، ولا أعيانها موجودة ،  
ووجودها بالعرض لا بالذات .

ومثال ذلك : أن الدائرة : لها مركز واحد . ولها نقطة واحدة . ولها وجود في  
ذاتها : يقصد ويشار إليها . فإن لم نجد حساً ، أو لم يمكننا الإشارة إليها : أمكننا  
أن نستخرجها ، ونقيم البرهان على أنها هي المركز دون غيرها من النقط .

وأما النقط التي ليست بمركز : فإنها لا نهاية لها ، ولا وجود لها بالذات . وإنما توجد  
إذا فرضت فرضاً ، وليست لها عين قائمة . فلذلك لا تقصد ، ولا يمكن استخراجها  
لأنها مجهولة . ولأنها شائعة في جميع الدائرة .

وأما الطرفان : اللذان يسميان متضادين ، فهما موجودان معينان . لأنهما طرفا خط  
مستقيم معين ، والبعد بينهما غاية البعد .

مثال ذلك : أنا إذا أخرجنا من مركز الدائرة خطاً مستقيماً إلى المحيط : صار طرفاه محدودين . أحدهما : المركز . والآخر : نهايته عند المحيط : والبعد بينهما غاية البعد . ومثاله من المحسوس : البياض والسواد . فإن أحدهما يضاد الآخر ، وهما محدودان موجودان . والبعد بين الضدين : غاية البعد . فأما التي بينهما : فهي بلا نهاية ، وكذلك الألوان : هي بلا نهاية .

وأما أطراف الفضيلة . فلما كانت أكثر من واحد : لم تسم ضدّاً . لأن لكل ضد ضدّاً واحداً ، ولا يمكن أن توجد أعداد كثيرة : لضد واحد . والسبب في ذلك : أن البعد بينهما : غاية البعد .

وقد نجد للفضيلة الواحدة أكثر من طرف واحد . وذلك إذا تصورنا الفضيلة : مركزاً ، وأخرجنا منه خطاً مستقيماً ، فحصلت له نهاية : أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له : خطاً آخر : على استقامته ، فتصير له نهاية أخرى ويصيران جميعاً : مقابلين للمركز الذي فرضناه فضيلة . إلا أن أحدهما : يجرى بجرى الإفراط والغلو ، والآخر يجرى بجرى التفريط والتقتير .

وإذ قد فهم ذلك : فليعلم أن لكل فضيلة طرفين محدودين ، يمكن الإشارة إليهما . وأوساط بينهما كثيرة : لا نهاية لها ، ولا يمكن الإشارة إليها . إلا أن الوسط الحقيقي : هو واحد ، وهو الذي سميناه فضيلة .

ثم ليعلم أننا بحسب هذا البيان : نجعل أجناس الشرور ، والذائل : ثمانية . لأنها ضعف الفضائل الأربع : التي تقدم شرحها . وهي هذه :

التهور ، والجبن : طرفان للوسط ، الذي هو الشجاعة .

والشره والخود : طرفان للوسط ، الذي هو العفة .

والسفه والبله : طرفان للوسط ، الذي هو الحكمة .

والجور والمهانة : أعنى الظلم والانظلام ، طرفان للوسط . الذي هو العدالة .

فهذه أجناس الأمراض : التي تقابل الفضائل ، التي هي صحة النفس . وتحت هذه الأجناس : أنواع لا نهاية لها . ونبدأ بذكر التور والجنين : اللذين هما طرفا الشجاعة . وهي فضيلة النفس وصحتها . فنقول :

## التخوُّر، والجبن

إن سببهما ، ومبدأهما : النفس الغضبية . ولذلك صارت الثلاثة بأسرها : من علائق الغضب .

والغضب في الحقيقة : هو حركة للنفس : يحدث بها غليان دم القلب : شهوة للانتقام . فإذا كانت هذه الحركة عنيفة : أصبحت نار الغضب ، وأضرمتها : فاحتد غليان دم القلب ، وامتلات الشرايين والدماغ : دخاناً مظالم مضطرباً : يسوء منه حال العقل ، ويضعف فعله ، ويصير مثل الإنسان عند ذلك على ماحكته الحكاء : مثل كهف مليء حريقاً ، وأضرمت نارا : فاخشتق فيه اللهب والدخان ، وعلا التأجج والصوت المسمى وحى النار : فيصعب علاجه ، ويتعذر إطفاءه ، ويصير كل ما يدينه للإطفاء : سبباً لزيادته ومادة لقوته .

فلذلك يعمى الإنسان عن الرشد ، ويصم عن الموعظة . بل تصير المواقظ في تلك الحال : سبباً للزيادة في الغضب ، ومادة اللهب والتأجج . وليس له في تلك الحال حيلة .

ولأنما يتفاوت الناس في ذلك : بحسب المزاج . فإن كان المزاج حاراً يابساً : كان قريب الحال من حال الكبريت : الذي إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب .

وإن كان بالضد : لحاله بالضد . وهذا في مبدأ أمره ، وعنفوان حركة الغضب به .

فأما إذا احتدم : فيكاد الحال يتقارب فيه ، وتصور ذلك من الخطب اليابس والرطب . ومبدأ اشتعال النار بسرعة وشدة : من الكبريت والنفط . ثم انحدر منهما

إلى الأذهان المتوسطة ، إلى أن تنتهى إلى الاحتكاك . فإن الاحتكاك وإن كان ضعيفاً في توليد النار : فربما قوى حتى تلهب منه الالفة العظيمة .

وكفالك مثل السحاب : الذى هو من البخارين : كيف يحترق حتى تنقذ بينهما النيران ، وينزل منهما الصواعق : التى لا يثبت أثرها شيء من المواد ، ولا يفارق ما يتعلق به حتى يصير رمياً ، وإن كان جبلاً أطلس<sup>(١)</sup> وحجراً أصم .

وأما بقراطس ، فإنه قال : أنى للسفينة : إذا عصفت الرياح وتلاطمت عليها الأمواج ، وقذفت بها إلى اللجج التى كالجبال : أرجى منى للغضبىان الملهب .

وذلك أن السفينة فى تلك الحال : يلاطف لها الملاحون ، ويخلصونها بضروب الحيل .

وأما النفس إذا استشاطت غضباً : فليس يرجى لها حيلة البتة .

وذلك أن كل ما رجبى به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع : يصير له بمنزلة الجزل من الحطب : يوهجه ويزيده اشتعالا .

أما أسبابه المولدة : فهى العجب ، والافتخار ، والمراء ، واللجاج ، والمزاج ، والتهيه ، والاستهزاء ، والغدر ، والضيم ، وطلب الأمور التى فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ، ويتحاسدون عليها .

وشهوة الانتقام : غاية لجميعها . لأنها بأجمعها تنتهى إليه ، ومن لواحقه : الندامة ، وتوقع المجازاة بالعقاب : عاجلاً وآجلاً ، وتدمير المزاج ، وتعجيل الألم .

وذلك أن الغضب : جنون ساعة ، وربما أدى إلى التلف : باختناق حرارة القلب فيه . وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف . ثم من لواحقه : مقت الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد والأراذل من الناس .

ولكل واحد من هذه الأسباب : علاج يبدأ به : حتى يقلع من أصله . فإما إذا تقدمنا لحسم هذه الأسباب وإماتها : فقد أوهنا قوة الغضب ، وقطعنا مادتها ، وأما غايتها .

( ١ ) الأطلس : الأغبر الأسود .



فإن عرض لنا منها عارض : كان بحيث نطيع العقل ، ونلتزم شرائطه ، وحدثت فضيلته ، أعنى الشجاعة : فيكون حينئذ إقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب ، وبحيث يجب ، وبالمقدار الذى يجب ، وعلى من يجب .

## العجب ، والافتخار

أما العجب لحقيقته إذا حددناه : أنه ظن كاذب بالنفس ، باستحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها .

وحقيق على من عرف نفسه : أن يعرف كثرة العيوب والنقائص : التى تعتورها . فإن الفضل مقسوم بين البشر ، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره . وكل من كانت فضيلته عند غيره : فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه .

وكذلك الافتخار . فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا . ومن باهى بما هو خارج عنه : فقد باهى بما لا يملكه ، وكيف يملك ما هو معرض للكافات والزوال : فى كل ساعة ، وفى كل لحظة . ولستأ على ثقة منه فى شيء من الأوقات . وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله عز وجل ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ إلى قوله ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ .

وقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيأ تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ .

وفى القرآن من هذه الأمثال شيء كثير .

وكذلك فى الأخبار المروية عن النبى عليه الصلاة والسلام .

وأما المفتخر بنسبه : فأكثر ما يدعيه إذا كان صادقاً : أن أباه كان فاضلاً . فلو حضر ذلك الفاضل ، وقال : إن الفضل الذي تدعيه لي أنا مستبد به دونك . فما الذي عندك منه مما ليس عند غيرك : لأخذه وأسكته .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى : أخبار كثيرة صحيحة . منها أنه قال : لا تأتوني بالنسبكم وائتوني بأعمالكم ، أو ما هذا معناه .

ويحكى عن ملوك : كان لبعض الفلاسفة ، أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه . فقال له : إن افتخرت على بفرسك : فالحسن والفراة للفرس لا لك .

وإن افتخرت بثيابك وآلاتك : فالحسن لها دونك .

وإن افتخرت بأبائك : فالفضل كان فيهم دونك .

فإذا كانت الفضائل والمحاسن : خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، بل لم تخرج عنهم : فترد عليهم . وأنت بمن يحقق ذلك إن شاء الله تعالى .

وحكى عن بعض الفلاسفة : أنه دخل على بعض أهل اليسار والثروة ، وكان يحتشد في الزينة ، ويفتخر بكثرة آلاته ، وقد حضرت الفيلسوف بصقة : فتنخع لها ، والتفت في البيت يميناً وشمالاً : ثم بصق في وجه صاحب البيت ، فلما عوتب على ذلك قال : ولما نظرت إلى البيت وجميع ما فيه : فلم أجد هناك أقبح منه فبصقت عليه .

وهكذا يستحق من كان خالياً من فضائل نفسه ، وافتخر بالخارجات عنه .

فأما المراء واللجاج . فقد ذكرنا قبح صورتها ، في المقالة التي قبل هذه ، وما يولدانه من الشتات ، والفرقة والتباغض بين الإخوان .

## المزاح، والنبي، والاستخفاف

وأما المزاح : فإن المعتدل منه محمود . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمزح ولا يقول إلا حفاً .

وكان أمير المؤمنين : كثير المزاح ، حتى عابه بعض الناس . فقال : لولا دعاية فيه . ولكن الوقوف على المقدار المعتدل منه صعب . وأكثر الناس يبتدىء ولا يندى أين يقف منه . فيخرج عن حده ، ويروم الزيادة فيه على صاحبه : حتى يصير سبباً للوحشة ، فيثير غضباً كاشعاً ، ويزرع حقداً بامياً . فلذلك عددناه في الاسباب ، فينبغي أن يحذره من لا يعرف حده ، ويذكر قول القائل .

ورب جسد جره اللعب وبعض الحرب أوله مزاح

ثم يهيج فتنة لا يهتدى لعلاجها .

وأما التيه : فهو قريب من المعجب . والفرق بينهما أن المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها . والتهيا يتيه على غيره ، ولا يكذب نفسه ، إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه .

وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به : لا مقدار له عند العقلاء ، وأنهم لا يمتدنون به : لخساسة قدره ، ونزارة حظه من السعادة . ولأنه متغير زائل : غير موثوق ببقائه . ولأن المال والاثاث ، وسائر الاعراض : قد توجد عند كل صنف من الناس : الاراذل ، والاشراف ، والجهال .

فأما الحكمة : فليست توجد إلا عند الحكماء خاصة .

وأما الاستهزاء : فإنه يستعمله المجان من الناس والمساخر ، ومن لا يبالي بما يقابل به : لأنه قد وضع في نفسه احتمال مثل ذلك وأضعافه : فهو ضاحك قرير العين : بضروب الاستخفافات التي تلحقه . وإنما يتعیش بالدخول تحت المذلة والصغار . بل إنما يتعرض بقليل ما يبتدىء به لكثير ما يعامل به : ليضحك غيره . وينال اليسير من بزه . والحر الفاضل : بعيد من هذا المقام جداً . لأنه يكرم نفسه وعرضه : عن تعريضهما للسفهاء ، ويبيعهما بجميع خزائن الملوك : فضلاً عن الحقير النافه !

## الغدر، والضيم

وأما الغدر : فوجوه كثيرة . أعنى أنه قد يستعمل في المال ، وفي الجاه ، وفي الحرم ، وفي المودة . وهو على كثرة وجوهه : مذموم بكل لسان ، ومعيب عند كل أحد : ينفر السماع من ذكره ، ولا يعترف به لسان ، وإن قل حظه من الإنسانية . وليس يوجد إلا في جنس من أجناس العبيد : فيتوقاهم الناس ، ويأنف منهم سائر أجناس العبيد .

ذلك أن الوفاء الذي ضده موجود في جنس الحبشة ، والروم ، والنوبة .

وقد شاهدنا من حسن وفاء كثير من العبيد : ما لم نشاهده في كثير من المتسمين بالاحرار . ومن عرف قبح الغدر باسمه ، ونفور العقلاء منه . ثم عرف معناه فليس يستعمله . وبالأخص من له طبيعة جيدة ، أو قرأ ما تقدم في هذا الكتاب ، وتخلق به ، وانتهى في قراءته إلى هذا الموضع .

وأما الضيم : فهو تكليف احتمال الظلم والغضب ، وربما يعرض منه شهوة الانتقام . وقد ذكرنا فيما تقدم الظلم والافتلام ، وشرحنا الحال فيهما .

فينبغي أن لا تسرع إلى الانتقام : عند ضيم يلحقنا ، حتى ننظر فيه ، ونحذر : أن لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم .  
وهذا النظر والحذر : هو استشارة العقل وهو الحلم بعينه .

## المفتنيات ، والجواهر النفيسة

وأما طلب الامور التي فيها عزة ، وتنافس فيها الناس ، فهو خطأ من الملوك والعظماء ، فضلا عن أوساط الناس .

وذلك أن الملك إذا حصل في خزانته علق<sup>(١)</sup> كريم ، أو جواهر نفيس : فهو متعرض به للجزع عند فقده ، ولا بد من حلول الآفات به : لما عليه طبيعة عالم الكون ، والفساد من تغيير الامور وإحالتها ، وإدخال الفساد على كل ما يدخر ويقتنى .

فإذا فقد الملك ذخيرة عزيزة الوجود : ظهر عليه ما يظهر على المفجوع المصاب : بما يميز عليه ، وتبين فقره إلى نظيره الذي لا يجده ، فيطالع الصديق والعدو على حزنه وكآبته .

وحكى عن بعض الملوك : أنه أهدى إليه قبة بلور : صافية عجيبة النقاء والصفاء ، محكمة الخروط ، قد استخرج منها أساطين وصور : خاطرها صائها مرة بعد مرة في تلخيص القروش والخروق ، والتجاويف التي بين الصور ، والأوراق . فلما حصلت بين يديه : كثر عجبها منها وإعجابها بها . وأمر فرفعت في خاص خزانة : فلم يأت عليها كثير زمان : حتى أصابها ما يصيب أمثالها من المتالف ، وبلغ الملك ذلك : فظهر عليه من الأسف والجزع : ما منعه من التصرف في أموره ، والنظر في مهماته ، والجلوس لجنده وحاشيته ،

( ١ ) العلق : النفيس من كل شيء : يتعلق به القلب .

واجتهد الناس في وجود شيء شبيه بها : فتعذر عليهم ، فظهر أيضاً من عجزه وامتناع مطلوبه عليه ، ما تضاعف به جزعه وحزنه .

وأما أوساط الناس : فإنهم متى ادخروا آلة كريمة ، أو جوهراً نفيساً ، أو اتخذوا مركوباً فارحاً ، أو ما أشبه هذه الأشياء : التمسوا منه من لا يمكنه رده عنها : فإن حجزها عنه ، وبخل بها : فقد عرض نفسه ولعمته للبور ، وإن سمح بها ، لحقه من النعم والجزع : ما كان مستغنياً عنه .

وأما الاحجار المتنافس فيها : من اليواقيت وأشباهها ، مما تبعد عنها الآفات في أنفسها : فليس تبعد عنها الآفات الخارجة عنها : من السرقة ووجوه الخيل فيها ، وإذا ادخرها الملك : قل انتفاعه بها عند حاجته إليها ، وربما عدم الانتفاع بها دفعة .  
ذلك أنه إذا اضطر إليها : لم تنفعه في عاجل أمره وحاضر ضرورة الملك .

وقد شاهدنا أعظم الملوك خطراً في عصرنا : لما احتاج إليها بعد فناء أمواله ، ونفاد ما في خزائنه وقلاعه : لم يجد ثمنها ولا قريباً من ثمنها عند أحد ، ولم يحصل منها إلا على الفضيحة في حاجته إلى رعيته في بعض قيمتها ، وهو لا يقدر على قليل ولا كثير من أثمانها ، وهي مبذولة مبتذلة في أيدي الدالين والتجار والسوقة ، يتعجبون منها ، ولا يقدرون عليها . ومن قدر منهم على ثمن شيء منها : لم يتجاسر عليها خوفاً من تتبعه بعد ذلك ، وظهور أمره وانتزاعها منه .

فهذه حال هذه الذخائر عند الملوك .

أما التجار الموسومون بهذه الصناعة ، فربما اتفق لهم زمان صلاح وسكون من الرؤساء ، وأمن في السرب ، وحينئذ تكون بضاعتهم شبيهة بالكاسدة ، لأنها لا تنفق إلا على الملوك الودعين : الذين لا يحزنهم شيء من نوائب الدهر ، وقد استمر بهم الخفض<sup>(١)</sup> ، وفضلت أموالهم عن الخزائن والقلاع : حينئذ يغترون بالزمان : فيعمون في مثل هذه الخدائع . ثم تقول عاقبتهم إلى ما حذرنا منه .

(١) خفض العيش والعي : سهل ولان . والمعنى : استمر بهم الرضاء والسعة .

## أسباب الغضب

فهذه أسباب الغضب ، والأمراض الحادثة منها ، ومن عرفت العدالة وتخلق بها كما بيناه فيما تقدم : سهل عليه علاج هذا المرض ، لأنه جور ، وخروج عن الاعتدال . ولذلك لا ينبغي أن نسميه بأسماء المديح .

وأعني بذلك أن قوماً يسمون هذا النوع من الجور أعنى الغضب في غير موضعه : رجولية وشدة شكيمة : ويذهبون به مذهب الشجاعة ، التي هي بالحقيقة اسم للدح ، وشتان ما بين المذهبين .

فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه : تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة ، يحور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب : من معامليه ، حتى ينتهي إلى عبيده ، وإلى حرمة : فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقليلهم عثرة ، ولا يرحم لهم عبدة ، وإن كانوا برآء من الذنوب : غير مجترئين ولا مكتسبين سوءاً . بل يتجرم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم : حتى يبسط لسانه ويده . وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها : استكفافاً لشره ، وتسكيناً لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته : لا يكف يداً ولا لساناً ، وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس إلى البهائم : التي لا تعقل ، وإلى الآواني التي لا تحس .

فإن صاحب هذا الخلق الرديء : ربما قام إلى الحمار والبرذون<sup>(١)</sup> ، أو إلى الحمار والمصفور : فيتناولها بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التي لا يجد فيها طاعة لأمره .

(١) البرذون : ضرب من الدواب : يخالف الخيل العراب : عظيم الخلقة غليظ الأعضاء .

وهذا النوع من رداة الخلق : مشهور في كثير من الجهال : يستعملونه في الشوب ،  
والزجاج ، والحديد ، وسائر الآلات .

أما الملوك من هذه الطائفة : فإنهم يفضبون على الهواء : إذا هب مخالفاً لهوام ، وعلى  
العلم إذا لم يجر على رضام ، فيسبون ذلك ويكسرون هذا .

وكان بعض من تقدم عهده من الملوك : يغضب على البحر إذا تأخرت سفينة فيه  
لاضطرابه وحركة الأمواج ، حتى يهدد بطرح الجبال فيه وطمه بها .

وكان بعض السفهاء في عصرنا : يغضب على القمر ، ويسبه ويهجو به شعر له مشهور .  
وذلك أنه كان يتأذى به إذا نام فيه ، وهذه الأفعال كلها قبيحة ، وبعضها مع قبحة :  
مضحك يهزأ بصاحبه ، فكيف يمدح بالرجولية والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهي  
بالمذمة والفضيحة ، أولى منها بالمدح . أى حظ لها في العزة والشدة ، ونحن نجد لها في النساء  
أكثر منها في الرجال ، وفي المرضى أقوى منها في الأصحاء ، ونجد الصبيان أسرع غضباً  
وضجراً من الرجال ، والشيوخ أكثر من الشبان ، ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره .  
فإن الشره إذا تعذر عليه ما يشتهي : غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه :  
من نسائه وأولاده وخدمه ، وسائر من يلبس أمره .

والبنخيل إذا فقد شيئاً من ماله : تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه ، وتوجهت  
تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه ، وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم إلا على  
فقد الصديق وعدم النصيح ، وعلى الذم السريع ، واللوم الجميع .

وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبداً محزون كتيب متنفص بعيشه ،  
متهم بأموره ، وهذه حال الشقي المحروم .

أما الشجاع العزيز النفس : فهو الذي يقهر بحلمه : غضبه ، ويتمكن من التميز والنظر  
فيما يدهم ، ولا يستغزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه : حتى يتروى وينظر كيف ينتقم  
من وعلى أى قدر .



وكيف يصفح وينضى عن ، وفي أى ذنب .

حكى عن الإسكندر : أنه نعى إليه عن بعض أصحابه : أنه يعيبه وينتقصه . فقال له بعض أصحابه : لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهك بها . فقال له : وكيف يكون إنها ك بعد عقوبتي إياه في ثأبي وطلب معاصي ، لأنه حينئذ أبسط لساناً ، وأعذر عند الناس .

وأتى يوماً ببعض أعدائه : من المتغابين الخارجين عليه ، وكان قد عاث في أطراف بلاده عيثاً كثيراً ، فصفح عنه . فقال له بعض جلسائه : لو كنت أنا أنت : لقتلته . فقال له الإسكندر : ولكن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله .

فقد ذكرنا معظم أسباب الغضب ، ودللنا على معالجتها وحسمها ، وهو النوع الأعظم من أمراض النفس ، وإذا تقدم الإنسان في حسم سببه : لم يخش تمكنه منه . وكان ما يعرض له : سهل العلاج ، قريب الزوال . لا مادة له تلهيه وتمده ، ولا سبب يسعده ويوقده .

وتجد الروية موضعاً لإزالة النظر والفسر في فضيلة الحلم ، واستعمال المسكافة : إن كان صواباً . أو التغافل إن كان حزماً . والذي يتلو معالجة هذا النوع من أمراض النفس : معالجة الجبن . الذي هو الطرف الآخر من صحتها .

ولما كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض ، وقد عرفنا الطرف الذى حددناه بحركة النفس : عنيفة قوية : يحدث منها غليان دم القلب : شهوة للانتقام . فقد عرفنا إذاً مقابله ، أعنى الطرف الآخر : الذى هو سكون النفس عند ما يجب أن تتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام وهذا هو سبب الجبن والخور .

## الجبُّن ، والنخور

وتتبعهما إهانة النفس ، وسوء العيش ، وطمع طبقات الأندال وغيرهم : من الأهل والأولاد ، والمعاملين ، وقلة الثبات والصبر : في المواطن التي يجب فيها الثبات ، وهما أيضاً سبب الكسل ، ومحبة الراحة : اللذين هما سبب كل رذيلة ، ومن لواحقهما : الاستجداء<sup>(١)</sup> لكل أحد ، والرضا بكل رذيلة وضميم . والدخول تحت كل فضيحة ، في النفس والأهل والمال ، وسماع كل قبيحة فاحشة : من الشتم والغذف ، واحتمال كل ظلم من كل معامل ، وقلة الالفة بما يأتي منه الناس .

— وعلاج هذه الأسباب واللواحق ، يكون بأضدادها . وذلك بأن توقف النفس التي تمرض هذا المرض : بالهز والتحرك .

فإن الإنسان لا يخلو من القوة الغضبية رأساً ، حتى تجلب إليه من مكان آخر ، ولسكنها تكون ناقصة عن الواجب . فهي بمنزلة النار الخامدة : التي فيها بقية لقبول الترويح والنفخ ، فهي تتحرك لا محالة : إذا حركت بما يلائمها ، وتبعث ما في طبيعتها من التوقد والتلهب .

وقد حكى عن بعض المتفلسفين : أنه كان يعتمد مواطن الخوف : فيقف فيها . ويحمل نفسه على المخاطر العظيمة ، بالتعرض لها ، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه : ليعود نفسه الثبات في المخاوف ، ويحرك منها القوة التي تسكن عند الحاجة إلى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه ، ولا يكره لمثل صاحب هذا المرض بعض المراء ، والتعرض للملاحاة ، وخصومة من يأمن غائلته ، حتى يقرب من الفضيلة ، التي هي وسط بين الرذيلتين : أعنى الشجاعة : التي هي صحة النفس المطلوبة ، فإذا وجدها ، وأحس بها من نفسه : كف ووقف . ولم يتجاوزها حذراً من الوقوع في الجباب الآخرة الذي علمناك علاجه .

( ١ ) الاستجداء : طلب العطاء .

## الخوف ، وأسبابه ، وعلاجه

ولما كان الخوف الشديد في غير موضعه ، من أمراض النفس ، وكان متصلاً بهذه القوة ، وجب أن نذكره ، ونذكر أسبابه وعلاجه . فنقول : إن الخوف يمرض من توقع مكروهه ، وانتظار محذور ، والتوقع والانتظار : إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل .

وهذه الحوادث : ربما كانت عظيمة ، وربما كانت يسيرة : وربما كانت ضرورية ، وربما كانت ممكنة .

والأمور الممكنة ، ربما كنا نحن أسبابها ، وربما كان غيرنا سببها ، وجميع هذه الأقسام ، لا ينبغي للعاقل أن يخاف منها .

أما الأمور الممكنة : فهي بالجملة مترددة بين أن تكون ، وبين أن لا تكون ، ولا يجب أن يصمم على أنها تكون ، فيستشعر الخوف منها ، ويتمهل مكروه التألم بها ، وهي لم تقع بعد ، ولعلها لا تقع ، وقد أحسن الشاعر في قوله :

وقل للفؤاد إن ترى بك نزوة من الروح : أفرخ<sup>(١)</sup> : أكثر الروح باطله  
فهذه حال ما كان منها عن سبب خارج ، وقد أعلمناك أنها ليست من الواجبات التي لا بد من وقوعها ، وما كان كذلك : فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه .

ولنما يحسن العيش ، وتطبيب الحياة : بالظن الجليل ، والأمل القوي ، وترك الفكر في كل ما يمكن أن لا يقع من المسكاره ، وأما ما كان سببه سوء اختيارنا ، وجنايتنا

(١) يقال : أفرخ ، الروح : إذا ذهب .

على أنفسنا ، فينبغي أن نحترز منه ، بترك الذنوب والجنايات ، التي نخاف عواقبها ، ولا نقدم على أمر لا تؤمن غائلته ، فإن هذا فعل من لئس أن الممكن هو الذي يجوز أن يكون ، ويجوز أن لا يكون .

وذلك أنه إذا أتى ذنباً أو جنى جناية : قدر في نفسه أنه يخفى ولا يظهر ، أو لا يخفى فيظهر : إلا أنه يتجاوز عنه أو لا تكون له غائلة .

وكأنه يجعل طبيعة الممكن واجباً ، كما أن صاحب القسم الأول : يجعل أيضاً الممكن واجباً ، إلا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة .

وأعني بهذا أن الممكن لما كان متوسطاً بين الجانب الواجب ، والجانب الممتنع : صار كالشيء الذي له جهتان : إحداهما تلي الواجب ، والأخرى تلي الممتنع .

ومثال ذلك : خط ا ج ب فنقطة ا هي الجانب الواجب ، ونقطة ب هي الجانب الممتنع . وموضع ج هو الممكن ، وبعده من الجانبين بعد واحد : فله إلى نقطة ا جهة ، وله إلى نقطة ب جهة ، فإذا صار مستقبله ماضياً : بطل اسم الممكن عنه ، وحصل إما في جانب الواجب ، وإما في جانب الممتنع ، وليس يصح ما دام ممكناً : أن يحسب لا من هذا الجانب ولا من ذاك الجانب ، بل يعتقد فيه طبيعته الخاصة به . وهو أنه يمكن أن يصير إلى ههنا أو إلى هناك . ولهذا قال الحكميم : وجوه الأمور الممكنة في أعقابها .

وأما الأمور الضرورية : كالهرم وتوابعه ، فعلاج الخوف منه : أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة : فقد أحب لا محالة الهرم ، واستشعره استشعار ما لا بد منه .

ومع الهرم : يحدث نقصان الحرارة الغريزية ، والرطوبة الأصلية : التابعة لها ، وغلبة ضديهما ، من البرد واليبس ، وضعف الأعضاء الأصلية كلها ، ويتبع ذلك قلة الحركة ، وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن ، ونقصان القوى : المدبرة للحياة ، أعني القوة الجاذبة ، والقوة المسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، وسائر ما يتبعها من مواد الحياة .

وليس الأمراض والآلام شيئاً غير هذه الأشياء . ثم يتبع ذلك : موت الأحياء ، وفقد الأجزاء ، والمستشعر لهذه الأشياء الملتمزم لشرائطها في مبدأ كونه : لا يخاف منها ، بل ينتظرها ويرجوها ، ويدعى له بها ، ويرغب إلى الله فيها .

فهذه جملة السلام على الخوف المطلق ، ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان منه : هو خوف الموت . وكان هذا الخوف عاماً ، وهو مع عمومته : أشد وأبلغ من جميع المخاوف : وجب أن نبدأ بالسلام فيه فنقول :

## علاج الخوف من الموت

إن الخوف من الموت : ليس يعرض إلا لمن لا يدري : ما الموت على الحقيقة ، أولاً يعلم إلى أين تصير نفسه .

أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه : فقد انحلّت ذاته ، وبطلت نفسه : بطلان عدم ودثور .

وأن العالم سيبقى موجوداً : وليس هو بموجود فيه ، كما يظنه من يجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد .

أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً : غير ألم الأمراض : التي ربما تقدمته ، وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله .

أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت .

أو لأنه متحير : لا يدري على أى شيء يقدم بعد الموت .

أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات ، وهذه كلها ظنون باطلة : لا حقيقة لها .

أما من جهل الموت ، ولم يدرك ما هو على الحقيقة فإنما يبين له إن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها . وهي الأعضاء التي يسمى بمجموعها بدنًا . كما يترك الصالح استعمال آلاته .

وإن النفس : جوهر غير جسماني ، وليست عرضاً . وأنها غير قابلة للفساد . وهذا البيان يحتاج فيه إلى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء في موضعه الخاص به .

ومن تطلع إليه ، ونشط للوقوف عليه : لم يبعد مراده . ومن قنع بما ذكرته في صدر هذا الكتاب ، وسكنت نفسه إليه : علم أن ذلك الجوهر : مفارق لجوهر البدن ، مبين له كل المباني ، بذاته وخواصه ، وأفعاله . وآثاره ، فإذا فارق البدن كما قلنا ، وعلى الشريطة التي شرطنا : بقي البقاء الذي يخصه ، ونقى من كدر الطبيعة ، وسعد السعادة التامة ، ولا سبيل إلى فناءه وعدمه . فإن الجوهر لا يفنى : من حيث هو جوهر . ولا تبطل ذاته ، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات : التي بينه وبين الأجسام بأضدادها .

فأما الجوهر : فلا ضد له . وكل شيء يفسد : فإنما فساد من ضده . وقد يمكنك أن تقف على ذلك بسهولة من أوائل المنطق : قبل أن تصل إلى براهينه .

وإن أنت تأملت الجوهر الجسماني : الذي هو أخس من ذلك الجوهر الكريم ، واستقرت حاله : وجدته غير فان ، ولا متلاش : من حيث هو جوهر . وإنما يستحيل بعضه إلى بعض : فتبطل خواصه شيئاً فشيئاً منه وأعراضه . فأما الجوهر نفسه : فهو باقٍ : لا سبيل إلى عدمه وبطلانه .

مثال ذلك : الماء . فإنه يستحيل بخاراً وهواء ، وكذلك الهواء : يستحيل ماءً وتاراً : فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه .

وأما الجوهر من حيث هو جوهر : فإنه لا سبيل إلى عدمه . هذا في الجوهر الجسماني : القابل للاستحالة والتغير .

فأما الجوهر الروحاني : الذي لا يقبل الاستحالة ، ولا التغير في ذاته . وإنما يقبل كلالته وتسمات صورته . فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشي .

وأما من يخاف الموت : لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه .

أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل ، وبطل تركيبه : فقد انحلت ذاته ، وبطلت نفسه ، وجعل بقاء النفس ، وكيفية المعاد ، فليس يخاف الموت على الحقيقة . وإنما يجهل ما ينبئ أن عمله .

فالجهل إذاً : هو الخوف . إذ هو سبب الخوف . وهذا الجهل ، هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم ، والتعب به ، وتركوا لأجله اللذات الجسدية ، وراحات البدن . واختاروا عليه التعب والسهر . ورأوا أن الراحة التي تكون من الجهل : هي الراحة الحقيقية . وأن التعب الحقيقي : هو تعب الجهل . لأنه مرض مزمن للنفس . والبراء منه : خلاص لها ، وراحة سرمدية : ولذة أبدية .

ولما يتقن الحكماء ذلك ، واستبصروا فيه ، وهجموا على حقيقته ، ووصلوا إلى الروح والراحة منه : هانت عليهم أمور الدنيا كلها . واستحقروا جميع ما يستعظمه الجهور : من المال ، والثروة ، واللذات الحسية ، والمطالب التي تؤدي إليها . إذ كانت قليلة الثبات والبقاء . سريعة الزوال والفناء ، كثيرة المموم إذا وجدت . عظيمة الغموم إذا فقدت . واقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة ، وتسلاوا عن فضول العيش : الذي فيه ما ذكرت من العيوب : وما لم أذكره . ولأنها مع ذلك بلا نهاية . ذلك أن الإنسان إذا بلغ منها إلى غاية : تآقت نفسها إلى غاية أخرى : من غير وقوف على حد ولا انتهاء إلى أمد .

وهذا هو الموت ، لا ما يخاف منه ، والحرص عليه : هو الحرص على الزائل ، والشغل به : هو الشغل بالباطل .

ولذلك جزم الحكماء بأن الموت : موتان ، موت إرادي ، وموت طبيعي .

وكذلك الحياة حيتان : حياة إرادية ، وحياة طبيعية .

وعنوا بالموت الإرادى : إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها ، وبالموت الطبيعى : مقارقة النفس البدن .

وعنوا بالحياة الإرادية : ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا ، من المآكل والمشرب والشهوات .

والحياة الطبيعية : بقاء النفس السرمدى ، بما تستفيده من العلوم الحقيقية ، وتبرأ به من الجهل . ولذلك وصى أفلاطون طالب الحكمة بأن قال له : مت بالإرادة تحيا بالطبيعة .  
على أن من خاف الموت الطبيعى للإنسان : فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه .  
ذلك أن هذا الموت : هو تمام حد الإنسان ، لأنه حتى ناطق ميت .  
فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى .

ومن علم أن كل شيء : هو مركب من حد ، وحده : مركب من جنسه ، وفصوله ، وأن جنس الإنسان هو الحى ، وفصله الناطق والميت : علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله ، لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه .

فمن أجهل من يخاف تمام ذاته ؟ ومن أسوأ حالا ممن يظن أن فناءه بحياته ، ونقصانه بتمامه ؟

ذلك أن الناقص : إذا خاف أن يتم ، فقد دل من نفسه على غاية الجهل ، فإذا الواجب على العاقل : أن يستوحش من النقصان ، ويانس بالتمام ، ويطلب كل ما يتممه ويكمله ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلى رباطه : من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الأسر ، لا من الوجه الذى يشد وثاقه ، ويزيده تركيباً وتعقيداً ، ويثق بأن الجوهر الشريف الإلهى : إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسمانى : خلاص بقاء وصفو : لا خلاص مزاج وكدر ، فقد سعد وعاد إلى ملسكوته ، وقرب من بارئه ، وفاز بجوار رب العالمين ، وغالط الأرواح الطيبة : من أشكاله وأشباهه ، ونجا من أخطائه وأغياره .



ومن ههنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه : وهى مشتاقة إليه ، مشفقة عليه ، خائفة من فراقه : فهى فى غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها : سالكة إلى أبعد جهاتها : من مستقرها ، طالبة قرار ما لا قرار له .

وأما من ظن أن للموت المسأ عظيما : غير ألم الأمراض التى ربما اتفق أن تتقدم الموت ، وتؤدى إليه : فعلاجه أن يبين له أن هذا ظن كاذب . لأن الألم إنما يكون للحى . والحى هو القابل أثر النفس . وأما الجسم الذى ليس فيه أثر النفس : فإنه لا يألم ، ولا يحس . فإذا الموت : الذى هو مفارقة النفس البدن : لا ألم له ، لأن البدن إنما كان يألم ويحس : بأثر النفس فيه . فإذا صار جسدا لا أثر فيه للنفس فلا حس له ولا ألم ، فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم . لأنه فراق ما به كان يحس ويتألم .

فأما من خاف الموت ، لأجل العقاب الذى يوعده به بعد : فينبغى أن يبين له أنه ليس يخاف الموت ، بل يخاف العقاب ، والعقاب : إنما يكون على شئ باق بعد البدن الدائر ، ومن اعترف بشئ باق منه بعد البدن ، وهو لا محالة معترف بذنوب له ، وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب . ومع ذلك هو معترف بما كم عدل : يعاقب على السيئات ، لا على الحسنات ، فهو إذا خائف من ذنوبه : لا من الموت .

ومن خاف عقوبة على ذنب : فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه . وقد بينا فيما تقدم ، أن الأفعال الرديئة التى تسمى ذنوبا إنما تصدر عن هيئات رديئة . والهيئات الرديئة ، هى للنفس . وهى الرذائل التى أحصيناها ، وعرفناك أضدادها من الفضائل ، فإذا الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة : جاهل بما ينبغى أن يخاف منه ، وخائف بما لا أثر له ولا خوف منه ، وعلاج الجهل ، هو العلم . فإذا الحكمة هى التى تخلصنا من هذه الآلام ، والظنون الكاذبة ، التى هى نتائج الجهالات . والله الموفق لما فيه الخير .

وكذلك نقول لمن خاف الموت لأنه لا يدرك على ما يقدم بعد الموت : لأن هذه حال الجاهل الذى يخاف بجهله ، فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشقائق ، وذلك أن من أثبت لنفسه

— ٢٢٢ —

حالا بعد الموت ، ثم لم يعلم ما هي تلك الحال ، فقد أقر بالجهل ، وعلاج الجهل : العلم ، ومن علم : فقد وثق ، ومن وثق : فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لا محالة ، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلى غرض صحيح : أفضى إليه بلا شك ولا مرية .

وهذه الثقة التي تكون بالعلم : هي اليقين ، وهي حال المستبصر في دينه ، المستمسك بحكمته ، وقد عرفناك مرتبته ومقامه فيما سلف من القول .

أما من زعم أنه ليس يخاف الموت ، وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونسبه ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها .

فينبغي أن نبين له أن الحزن : تعجل ألم ومكروه على ما يجدي الحزن إليه بطائل ، وسندكر علاج الحزن في باب مفرد له خاص . لأننا في هذا الباب إنما نذكر علاج الخوف ، وقد أتينا منه على ما فيه مقتنع وكفاية ، إلا أننا نزيده بياناً ووضوحاً فنقول : إن الإنسان من جملة الأمور الكائنة . وقد يبين في الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة ، فمن أحب أن لا يفسد : فقد أحب أن لا يكون . ومن أحب أن لا يكون : فقد أحب فساد ذاته ، فكأنه يحب أن يفسد ، ويجب أن لا يفسد ، ويجب أن يكون ، ويجب أن لا يكون ، وهذا حال لا يخطر ببال عاقل .

وأيضاً فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا : لم يذته الوجود إلينا .

ولو جاز أن يبقى الإنسان : لبقى من تقدمنا .

ولو بقي من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا : لما وسعهم الأرض .

وأنت تبين ذلك بما أقول :

هب أن رجلاً واحداً من كان منذ أربعمئة سنة هو موجود الآن ، وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده موجودين معروفين : كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلاً ، ثم ولده أولاد ، ولأولاده أولاد ، وبقوا كذلك : يتناسلون ولا يموت منهم أحد ،

كم يكون مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا ؟ فإنك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل . وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع : أكثر من مائة ألف نسمة في جميع الأرض . وأحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بسيط الأرض ، مثل هذا الحساب . فإنهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف : لم تضبطهم كثرة ، ولم تحصهم عدداً .

ثم امسح بسيط الأرض : فإنه محدود معروف ، لتعلم أن الأرض حينئذ لا تسهم قياماً : فكيف تعوداً أو منصرفين ؟ ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ، ولا مكان زراعة ، ولا مسير لآحد ولا حركة . فضلاً عن غيرها ، وهذه مدة يسيرة من الزمان : فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة .

فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن ، ويكره الموت ، ويظن أن ذلك ممكن ، أو مطموع فيه : من الجهل والغباوة .

فإذ الحكمة البالغة ، والعدل المبسوط : بالتدبير الإلهي : هو الصواب الذي لا معدل عنه ، ولا يحصى منه ، وهو غاية الجود : الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد ، أو راغب مستفيد .

والخائف منه : هو الخائف من عدل البارئ وحكمته . بل هو الخائف من وجوده وعظائمه ، فقد ظهر ظهوراً حسياً : أن الموت ليس برديء ، كما يظنه جمهور الناس : وإنما الرديء : هو الخوف منه . وأن الذي يخاف منه : هو الجاهل به وبذاته .

وقد ظهر أيضاً فيما تقدم من قولنا أن حقيقة الموت : هي مفارقة النفس البدن . وهذه المفارقة ليست فساداً للنفس ، وإنما هي فساد المتركب .

وأما جوهر النفس : الذي هو ذات الإنسان ولبه وخلاصته : فهو باق ، وليس بجسم فيلزم فيه ما لزم في الأجسام : مما أوردناه قبل . بل لا يلزمه شيء من أعراض الأجسام ، أي لا يتزاحم في المكان : لاستغناؤه عن المكان . ولا يحرص على البقاء الزماني : لاستغناؤه

عن الزمان . وإنما استفاد بالحواس والاجسام كمالا . فإذا كمل بها ، ثم خالص منها : صار إلى عالمه الشريف : القريب إلى باريه ومنشئه تعالى وتقدس . وهذا الكمال الذى يستفيد به فى هذا العالم الحسى : قد بيناه ، وعرفناك الطريق إليه بما سلف من القول فى هذا الباب . وأنه السعادة القصوى للإنسان ، وأعلمناك ضده الذى هو الشقاء الأقصى له . وبيننا مع ذلك مراتب السعادة ، ومنازل الأبرار ، ودرجاتهم : من رضوان الله وجنته : التى هى دار القرار . كما بينا لك أضعافها من سخطه . ودرجاتهم من النار التى هى الهاوية بلا قرار : نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ، ويبعدنا من سخطه : إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم .

## علاج الحزن

الحزن : ألم نفسانى يعرض لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب . وسببه الحرص على القنيات الجسمانية ، والشرع إلى الشهوات البدنية ، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها . وإنما يحزن ويجزع : على فقد محبوباته ، وفوت مطلوباته : من يظن أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا : يجوز أن يبقى ويثبت عنده ، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها : لا بد أن يحصل له ويصير فى ملكه . فإذا أنصف نفسه ، وعلم أن جميع ما فى عالم الكون والفساد : غير ثابت ، ولا باق . وإنما الثابت الباقي : هو ما يكون فى عالم العقل : لم يطمع فى المحال ، ولم يطلبه . وإذا لم يطمع فيه : لم يحزن لفقد ما يهواه ، ولا لفوت ما يتمناه : فى هذا العالم . وصرف سعيه إلى المطلوبات الصافية . واقتصر بهيمته على طلب المحبوبات الباقية . وأعرض عما ليس فى طبعه أن يثبت ويبقى . وإذا حصل له منه شيء : بادر إلى وضعه فى موضعه ، وأخذ منه مقدار الحاجة إلى دفع الآلام التى أحسيتها : من الجوع ، والعرى ، والضرورات التى تشبهها . وترك الادخار والاستكثار ، والتماس المباهاة والافتخار ، ولم يحدث نفسه بالمسكثرة بها ، والتنى لها . وإذا فارقت :

لم يأسف عليها ، ولم يبال بها . فإن من فعل ذلك : أمن فلم يحزع ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق .

ومن لم يقبل هذه الوصية ، ولم يعالج نفسه بهذا العلاج : لم يزل في جزع دائم ، وحزن غير منتقص . وذلك أنه لا يعدم في كل حال : فوت مطلوب ، أو فقد محبوب .

وهذا لازم لعالمنا هذا : لأنه عالم السكون والفساد . ومن طمع من السكّن الفاسد : أن لا يكون ولا يفسد : فقد طمع في المحال . ومن طمع في المحال : لم يزل غائباً . والخائب أبداً يحزن . والمحزون شقي .

ومن استشعر بالعادة الجميلة ، ورضى بكل ما يجده ، ولا يحزن لشيء يفقده : لم يزل مسروراً سعيداً . فإن ظن ظان أن هذا الاستشعار لا يتم له ، أو لا ينتفع به ، فليتنظر إلى استشعارات الناس : في مطالبهم ومعايشهم ، واختلافهم فيها : بحسب قوة الاستشعار . فإنه سيري رؤية بينة ظاهرة : فرح المتهيشين بمعايشهم على تفاوتها ، وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها . وليتصفح ذلك في طبقة طبقة : من طبقات الدهماء . فإنه لا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته ، والجندى بشجاعته ، والمقامر بقماره ، والشاطر<sup>(١)</sup> بشطارته ، والخنث بتخنثه : حتى يظن كل واحد منهم : أن المغبون من عدم تلك الحالة ، حتى فقد بهجتها ، والمجنون من غي عنها لحرم لذتها . وليس ذلك إلا لقوة استشعار كل طائفة بحسن مذهبها ، ولزومها لإياه بالعادة الطويلة .

وإذا لزم طالب الفضيلة مذهب ، وقوى استشعاره وحسن رأيه ، وطالت عادته : كان أولى بالسرور من هذه الطبقات : الذين يخطون في جهالاتهم . وكان أحظاهم بالنعيم المقيم : لأنه حق ، وهم مبطلون ، وهو متيقن وهم ظانون . ثم هو صحيح ، وهم مرضى ، وهو سعيد ، وهم أشقياء ، وهو ولي الله عز وجل ، وهم أعداؤه .

وقد قال الله عز من قائل ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

---

الشاطر : القس . سمي به : لأنه يشطر المال من صاحبه .

وقال الكندي في كتاب دفع الأحزان : مما يدل على دلالة واضحة أن الحزن شيء يجلبه الإنسان ، ويضعه وضماً . وليس هو من الأشياء الطبيعية : أن من فقد ملكاً ، أو طلب أمراً فلم يجده فله حزن ، ثم نظر في حزن ذلك : نظرأ حكيماً ، وعرف أن أسباب حزنه : هي أسباب غير ضرورية ، وأن كثيراً من الناس : ليس لهم ذلك الملك ، وهم غير محزونين : بل فرحون مغبوطون . علم علماً لا ريب فيه : أن الحزن ليس بضروري ، ولا طبيعي ، وأن من حزن من الناس ، وجلب لنفسه هذا العارض : فهو لا محالة سيسلو ويعود إلى حاله الطبيعي .

فقد شاهدنا قوماً : فقدوا من الأولاد ، والأعزة ، والأصدقاء : ما اشتد حزنهم عليه . ثم لم يلبثوا أن يعودوا إلى حالة المسرة ، والضحك ، والغبطة ، ويعيدون إلى حال من لم يحزن قط .

ولذلك نشاهد من يفقد المال ، والضياع ، وجميع ما يقتنيه الإنسان ، مما يمز عليه ويحزنه : فإنه لا محالة يتسلى ويحول حزنه ، ويعاود أنسه واغتباطه .

فالعاقلة إذا نظر إلى أحوال الناس : في الحزن وأسبابه : علم أن ليس يختص من بينهم بمصيبة غريبة ، ولا يتميز عنهم بمحنة بدیعة ، وأن غاية من مصيبتهم السلوة .

وأن الحزن : هو مرض عارض ، يجري مجرى سائر الرذائل : فلم يضع لنفسه عارضا رديماً ، ولم يكتسب مرضاً وضعياً : أعنى بجثلاً غير طبيعي .

ويبقى أن نتذكر ما قدمنا ذكره : من حال من يحيا بتحية : على أن يشمها ، ويتمتع بها : ثم يردها ليشمها غيره ويتمتع بها سوا ، فأطمعته نفسه فيها ، وظن أنها موهوبة له هبة أبدية . فلما أخذت منه : حزن وأسف وغضب . فإن هذه حال من عدم عقله ، وطمع فيما لا مطعم فيه . وهذه حالة الحسود ، لأنه يجب أن يستبد بالخيرات : من غير مشاركة الناس .

والحسد أفتيح الأمراض ، وأشنع الشرور . لذلك قالت الحكماء : من أحب أن ينال الشر أعداءه : فهو محب للشر ، ومحب للشر : شرير .

وشر من هذا : من أحب الشر لمن ليس له بعدو .

وأسوأ من هذا حالا : من أحب أن لا ينال أصدقاءه خيراً ، ومن أحب أن يحرم صديقه الخير : فقد أحب له الشر . ويجب له من هذه الرذائل الحزن على ما يتناوله الناس من الخيرات ، وأن يحسدهم على ما يصلون إليه منها . وسواء كانت هذه الخيرات : عن قناتنا وما ملكناه ، أو بما لم نفتنه ولم نملكه . لأن الجميع مشترك للداس ، وهى ودائع الله عند خلقه (١) .

وله أن يرتجع العارية متى شاء ، على يد من شاء ، ولا سيئة علينا ولا عار : إذا رددنا الودائع . وإنما العار والسيئة : أن نحزن إذا ارتجعت منا . وهو مع ذلك : كفر للنعمة ، لأن أقل ما يجب من الشكر للنعمة : أن نرد عليه عاريته عن طيب نفس ، ونسرع إلى إجابته إذا استردها ، ولا سيما إذا ترك المعير علينا أفضل ما أعارنا ، وارتجع أخسه .

قال : وأعنى بالأفضل : ما لا تصل إليه يد ، ولا يشركنا فيه أحد . أعنى النفس ، والعقل ، والفضائل الموهوبة لنا : هبة لا تسترد ولا ترتجع . ويقول : إن كان ارتجع الأقل الأخس كما اقتضاء العدل : فقد أبقي الأكثر الأفضل . وأنه لو كان واجباً أن نحزن على كل ما نفقده : لوجب أن نكون أبداً حزينين .

فينبغي للعاقل : أن لا يفكر فى الأشياء الضارة المؤلمة ، وأن يقل القنية ما استطاع ، إذ كان فقدما سبباً للأحزان .

وقد حكى عن سقراط : أنه سئل عن سبب نشاطه ، وقلة حزنه ، فقال : لأننى لا أفتنى : ما إذا فقدته حزنت عليه .

(١) قال الشاعر :

وأظلم أهل الأرض : من بات حاسداً  
لمن بات فى نعمائه يتقلب

وإذ قد ذكرنا أجناس الأمراض : الغالبة التي تخص النفس ، وأشرنا إلى علاجاتها ، ودللنا على شفافها ، فليس يتعذر على العاقل : المحب لنفسه ، الساعى لها فيما يخصها من آلامها ، وينجيها من مبالكتها : أن يتصفح الأمراض التي تحت هذه الأجناس : من أنواعها وأشخاصها : فيداوى نفسه منه ، ويعالجها بمقابلاتها من العلاجات : الراغبة إلى الله عز وجل بعد ذلك في التوفيق : فإن التوفيق مقرون بالاجتهاد ، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر .

هذا آخر المقالة السابعة . وهي تمام الكتاب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على النبي محمد وآله وأصحابه أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .





## خَاتَمُهُ

الحمد لله : الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بأجلى الآيات البينات ، وأوضح المعجزات الظاهرات ؛ وعلى آله وصحبه : المنموتين بأحسن الصفات ، الثاقلين عنه ما تحلى به من أكرم الأخلاق ، وأطيب الأعراف : دون سائر المخلوقات !

أما بعد : فإنه مما لا يختلف فيه إثنان من ذوى العقول : أن خير ما يتحلى به لإنسان : خلق يزيه ، ويبعده عما يشينه ! وعقل يهديه إلى ما عليه : ويحول بينه وبين حماقة ترديه ، ومصاب يبتليه !

فالأخلاق الفاضلة تنجى ، وعكسها يردى !

وطاعة الله تعالى مبنية كلها على الأخلاق . ولا تنس - يرحمك الله - قول الحكيم العليم : وقولوا للناس حسناً .

والقول الحسن : عماد الأخلاق ، على الإطلاق .

ولا يصح للمسلم أن يقول حسناً ، ويضرر سوءاً !

وفى القول الحسن : تربية للنفس ، وتركية لها ، وإبعاد عن مصادر البغى ، والظلم ، والفساد !

وقد كان هذا الكتاب : من خير ما كتبه الفلاسفة : قبل الإسلام ، وبعده .

ومن العجيب : أن من تكلم فيه من الفلاسفة قبل الإسلام : كانوا أعرف بحقوق الله تعالى ، وأقدر من غيرهم فى إبانة حقيقة وجوده ، وصدق ما جاء به القرآن : من ذكر الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم وعذاب أليم !

— ٢٣٠ —

كما ترى في هذا الكتاب : صغير المبنى ، كبير المعنى . الذى جمع فأوعى ، ولم يدع  
زيادة المستزيد !

وقد حققناه وسع طاقتنا ، وشرحناه وسع علمنا .

وما كان لبشر إلا أن يخطئ . والله تعالى وحده العصمة !

وهذا جهد المقل ، غاية التأمل . والله أسأل أن يستر عيوبنا ، ويغفر ذنوبنا ،  
ويلقينا — فى جنته — تحية وسلاما : خالدين فيها حسنة مستقرا ومقاما . ؟

ابن الخطيب

---

# فهرس

## تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

صفحة	صفحة
تعريف بالمؤلف . كتيبه ... ٣	تعريف النفس ... ١٣
مقدمة المحقق ... ٥	النفس : ليست جسما ، ولا جزءاً من
مقدمة المؤلف ... ٩	جسم ، ولا مرضاً ... ١٤
المقالة الأولى : النفس ... ١١	الجواس : لا تدرك إلا المحسوسات فقط ... ١٥
تعريف النفس ... ١٣	النفس العاقلة : وما تستبينه من خطل الحواس ... ١٦
النفس : ليست جسما ، ولا جزءاً من	النفس : لا تقاس بالأجسام ... ١٧
جسم ، ولا مرضاً ... ١٤	شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها ... ١٨
الجواس : لا تدرك إلا المحسوسات فقط ... ١٥	الفلسفة العلمية ... ١٩
النفس العاقلة : وما تستبينه من خطل الحواس ... ١٦	الخبرات وأقسامها ... ٢٠
النفس : لا تقاس بالأجسام ... ١٧	الخبرات في الحيوان ... ٢٠
شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها ... ١٨	الحرص على الخبرات ... ٢١
الفلسفة العلمية ... ١٩	قصص الخبرات وتماسها ... ٢١
الخبرات وأقسامها ... ٢٠	السعادات ، وأضدادها ... ٢٢
الخبرات في الحيوان ... ٢٠	قوى النفس الثلاث ... ٢٣
الحرص على الخبرات ... ٢١	النفس النضبية ، والنفس العاقلة ... ٢٤
قصص الخبرات وتماسها ... ٢١	الحكمة . الشجاعة ... ٢٦
السعادات ، وأضدادها ... ٢٢	العدالة . الأقسام التي تحت الحكمة ... ٢٧
قوى النفس الثلاث ... ٢٣	الفضائل التي تحت العفة ... ٢٨
النفس النضبية ، والنفس العاقلة ... ٢٤	
الحكمة . الشجاعة ... ٢٦	
العدالة . الأقسام التي تحت الحكمة ... ٢٧	
الفضائل التي تحت العفة ... ٢٨	
القناعة . الدمنة . الانظام . حسن الهدى	
المسألة . انوار . الورع ... ٢٩	
الفضائل التي تحت الشجاعة ... ٣٠	
كبر النفس . النجدة . عظم الهمة .	
الثبات . الحلم . السكون . الصمامة ... ٣٠	
الفضائل التي تحت السخاء ... ٣١	
الكرم . الإيثار . النيل . المواساة .	
الساعة . المساعة ... ٣١	
الفضائل التي تحت العدالة ... ٣٢	
الصدافة . الألفة . صلة الرحم .	
المسكافة . حسن الشركة . حسن	
القضاء . التودد . العبادة ... ٣٣	
دواعي الشر : أكثر من دواعي الخير	
الحكمة . البيلة . الذكاء . البلادة .	
الذكر . التحمل . سرعة الفهم ... ٣٥	
صفاء الذهن . جودة الذهن وقوته .	
سهولة التعلم . العفة . الشره .	
خود الشهوة . الفضائل التي تحت العفة :	
الوقاحة . الحرق . الشجاعة . الجبن .	
التهور . السخاء . التبذير . التقدير ... ٣٦	
العدالة . الظلم . الاظلام . النظم .	
المادل . العدالة . الضار . الجائر ... ٣٧	
الإنسان : مدني بالطبع السباحة في البدان ... ٣٨	
* المقالة الثامنة ... ٣٩	
الخلاق ... ٤١	

صفحة

٦٤ النفس العاقلة ، والفضيلة ... ..  
٦٥ إظهار الفل الجميل ، وقهر النفس الشريرة  
(فصل) في تأديب الأحداث

٦٦ والصبيان

٦٧ استعفاء الصبي : أول دليل على نجاحه

٦٨ الملابس

٦٨ الملابس المزركشة : للنساء ، لا للرجال

٦٩ كيفية نصيح الصبيان ... ..

٦٩ آداب المطاعم

الطعام : لا يكون إلا للصحة وحفظ

٦٩ البدن ، لا للذة ... ..

٧٠ آداب الأكل ، وعدم الإكثار من الألوان

٧٠ تحريم الأشرطة السكرية بتماماً : لضررها

٧١ آداب متنوعة

عدم حضور مجالس الشرب ، وعدم

٧١ الاستماع إلى قبيح الكلام ... ..

٧١ التعمد على الشيء ، والحركة ، والرياضة

٧١ الأدب مع الله (هامش) ... ..

٧٢ عدم التعالي بالنسب والسلطات ... ..

٧٢ آداب المجالس ... ..

٧٣ كراهة حب الذهب والفضة ... ..

٧٤ الفقراء : أقرب الناس إلى الفضائل ... ..

٧٤ تربية ملوك الفرس لأولادهم ... ..

٧٦ الأجسام الطبيعية

٧٦ شرف النبات على الجباد ... ..

٧٧ « أكرموا عمائم النخل » ... ..

٧٨ أسلحة الحيوان : التي وهبها الله تعالى له

صفحة

٤٢ الرواليون (هامش) ... ..

٤٢ جالينوس (هامش) ... ..

٤٤ مراتب الناس في قبول الآداب ... ..

٤٥ الشريعة

٤٦ الإنسان

٤٧ جواهر الموجودات ... ..

٤٧ مراتب الصناعات من الشرف ... ..

٤٨ تفاوت مراتب الرجال ... ..

٤٩ الكمال الخاص بالإنسان ... ..

٥٠ الفلسفة

٥٢ كمال الإنسان في اللذات المعنوية

٥٣ الاتجار بالعبادات ... ..

٥٣ الملائكة ... ..

٥٣ الناس - في ملذاتهم - يشاركون الحيوان

٥٣ والحشرات ... ..

٥٣ الناس - بالعقل والتمييز - يتأسسون الملائكة

٥٣ الناس - بطبعهم الجسد - يميلون إلى

٥٥ الشهوات ... ..

٥٦ قوى النفس الثلاث

٥٦ لعبد أن يختار لنفسه أى الطرق شاء

٥٩ الواجب على العاقل

٥٩ الجماع : لطلب النسل ... ..

٦٢ النفوس الثلاث

٦٢ النفس واحدة ، ولها قوى كثيرة ... ..

٦٣ مثل الإنسان مع الأنفس الثلاث ... ..

٦٤ سياسة النفس العاقلة

صفحة

٩٣ ... .. الحيولة (هامش)

رؤية السعادة من جانب الإنسان :

٩٤ ... .. بما ينقصه

٩٤ رأى المؤلف في السعادة

الإنسان : ذو فضيلة روحانية :

يناسب بها اللائكة . وفضيلة

٩٤ جسمانية : يناسب بها الأنعام ...

٩٥ العالم العلوى ، والعالم السفلى ...

٩٦ مثل الأعمى والبصير ...

٩٧ آخر مراتب السعادات وأفضلها ...

٩٨ أول رتب الفضائل

أول رتب الفضائل : صرف الإرادة

٩٨ إلى المصالح ... ..

ثاني رتب الفضائل : صرف الإرادة

٩٨ إلى الأهم الأفضل ... ..

٩٩ آخر مراتب الفضائل

٩٩ الخير المحض ... ..

١٠٠ أفعال الإنسان الإلهية ... ..

١٠١ الاقتداء بالبارى سبحانه وتعالى ...

١٠٣ فوز السعيد ببقيا الله تعالى ...

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة

١٠٣ أعين) ... ..

١٠٤ الرتبة الأولى من السعادة الأخيرة

طالب السعادة : ينبغي أن يتشوقها

١٠٤ دائماً ، ويثبت عليها ... ..

١٠٥ السعادة : أنه من كل شيء ...

١٠٥ من يجب ساطات بطله وفرجه ...

الذات التي تشاركنا فيها الحيوانات :

١٠٥ تملأ الحواس سرياً ... ..

صفحة

٧٩ مراتب الحيوان

٧٩ من الحيوان ما يقبل التأديب كالإنسان

أعلى مراتب الإنسان : أن يتصل بأفق

٨٠ الملائكة عليهم السلام ... ..

٨١ التقرب إلى الله تعالى بالنوافل (هامش)

٨٢ الشوق إلى المعارف والعلوم

٨٢ النفيس الناطقة ، الأدب الحق ... ..

٨٣ الواجب على الحاكم

تسديد الناس وتوحيهم بالعلوم الفكرية :

٨٣ نحو الصناعات والأعمال الحسية ...

٨٥ المقالة الثالثة : الخير والسعادة

الفرق بين الخير والسعادة

٨٧ سعادة كل إنسان : بالخير الذي يقصده

٨٧ سعادة الحيوان : في ما كلفها ،

ومشاربها ، وراحاتها ... ..

٨٧ أقسام الخير

٨٨ الله تعالى : هو الخير الأول ... ..

٨٩ السعادة

٩٠ السعادة : هي تمام الخيرات وغاياتها ...

٩٠ السعادة : هي عطايا الله تعالى وهباته

٩٠ السعادة : صحة البدن ، والثروة ،

والأهوان ، وحسن الأحذوة ،

والنجاح ، وجودة الرأي ... ..

٩١ فيثاغورس ، وأبقراط (هامش) ...

٩١ الفضائل : كانية في السعادة ...

٩٢ تقدير أمر البخت ... ..

٩٢ الرواويون (هامش) ... ..

٩٢ السعادة العظمى التامة : لا تكون

٩٣ إلا في الآخرة ... ..

صفحة

- الشجاع : تكون في مواقف الأمور باقية  
مدة عمره ، وبعد وفاته ... ١١٩  
الجران إذا اختار القرار : فإنما يستبق  
شيئاً زائلاً لا محالة ، ثم هو منوت بالذل  
والصغار ... ١١٩  
« يا أيها الناس : إن لم تقتلوا تموتوا :  
لأنكم خسرتم بالسيوف : أهون من ميتة  
على القرائن ... ١١٩  
من حقق على نفسه : خوفاً من الفقر أو الذل ... ١٢٠  
الشجاع : الذي يستعين بالشهداء ... ٢٢٠  
كل شجاع : حكيم . وكل حكيم : شجاع  
عقيد ... ١٢١  
من بذل أمواله في شهواته : طاباً للسمعة  
والرياء ... ١٢١  
الحاجة إلى المال : واكتسابه  
بالتحري العادلة ... ١٢٢  
كثير من الفضلاء : ناقص الحظ في المال ... ١٢٢  
العادل ... ١٢٣  
العادلة وسط بين أطراف ... ١٢٣  
مواضع العسالة ... ١٢٥  
العادلة التي تقع في الظلم ... ١٢٦  
لزوم الشريعة في المعاملات ... ١٢٦  
الناس : مدليون بالطبع ، وليس لهم عيش  
إلا بالتعاون ... ١٢٦  
الدينار : فاموس عادل ... ١٢٧  
فاموس الله تعالى : قدوة النواميس كلها ... ١٢٧  
بالعدل المدني : عمرت المدن ، وبالجزور  
المدني : خربت المدن ... ١٢٧  
الجائز الأعظم ، والجائز الثاني ، والجائز  
الثالث ... ١٢٨  
العادل يستعمل العدالة في ذاته وشركائه ... ١٢٨

صفحة

- تلك موكل بالديار ، يقول إن عنها شراً ،  
وهنا شراً ، وهنا ما ليس بخير  
ولا خير ... ١٠٦  
الابتلاء : لا يخرج الإنسان الكامل من  
السعادة ... ١٠٦  
التمسك بالسعداء : يظهر العبر والسكون ... ١٠٧  
رأي أرسطوطاليس في بقاء النفس ... ١٠٨  
السعادة شيء ثابت غير متغير ... ١٠٨  
البرفانية « هامش » ... ١٠٨  
سيرة الإنسان : يجب أن تكون محمودة ... ١٠٩  
لذة السعادة ... ١١١  
اللذة الانفعالية ، واللذة الفعلية ... ١١١  
اللذة المقترنة بالشهوات : تزول سريعاً ... ١١١  
السعيد : من تكون لذة إلهية ، لا بهيمية  
اللذة إذا كانت صحيحة : ساقط البدن  
من السقم إلى الصحة ... ١١٢  
الإنسان في بدء تكوينه : يحتاج إلى سياسة  
بالوالدين ، ثم إلى الشريعة الإلهية ... ١١٢  
معها الجود : الجود بأعلى الأشياء وأكرمها ... ١١٣  
المبال لا ينقص بالإففاق : بل يزيد ... ١١٣  
المقالة الرابعة : ظهور الفضائل  
بمن ليس بسعيد ولا فاضل ... ١١٥  
ترك الشهوات : من الماء كل والشارب  
وسائر اللذات ... ١١٧  
من يعمل عمل الشجعان : وليس بشجاع ... ١١٧  
من يعمل عمل الأعفاء والشجعان : وهو  
أبعد الناس عن كل فضيلة ... ١١٨  
المتيقن يركبون الأحوال في طلب المعشوق ... ١١٨  
الشجاع : يخاف الأسر : أشد من خوفه  
من الموت ... ١١٩

صفحة  
 وقام الفانزين : وهي رتبة المخلصين في المحبة  
 ١٣٥ ... وهي ليس بعدها مقام مخلوق  
 أسباب الانقطاع عن الله ١٣٦  
 السقوط : الذي يستحق به المهانة ... ١٣٦  
 السقوط : الذي يستحق به المحاب ... ١٣٦  
 السقوط : الذي يستحق به الطرد ... ١٣٦  
 السقوط : الذي يستحق به الحساة ... ١٣٦  
 وسبب هذه الخلال : الكسل ، والبطالة ،  
 والنبوة ، والجمل ، والرفاعة ،  
 والانهماك في القبايح : وترك الإنابة  
 وهذه الأنواع تسمى في الشريعة :  
 الزنج ، والرني ، والفتاوة . والختم ١٣٦  
 الفضائل كلها : اعتدالات ... ١٣٧  
 القوة والمعرفة ... ١٣٨  
 العدالة والخيرية : في المعاملات : والأخذ  
 والإعطاء ... ١٣٨  
 الفضيلة : هي فعل الخير ، لاني ترك انفس ١٣٨  
 الخير : لا يكرم المال ، ولا يجمع له ذاته ١٣٨  
 مسألة عويضة أولى ١٣٩  
 الحاسد : ينبغي على نفسه ... ١٣٩  
 صاحب الشهوة الهائجة ... ١٤٠  
 السعيد : من اتفق له في صباه الأمن بالشريعة ١٤٠  
 مسألة عويضة ثانية ١٤١  
 التفضل : شيء محمود جداً ... ١٤١  
 التفضل : من أعطى من يستحق : كل  
 ما يستحق وزاده تفضلاً ... ١٤١  
 بالعدل : قامت السموات والأرض ... ١٤٢  
 الشريعة : تأمر بالعدالة ١٤٣  
 أول ما يجب على العاقل العدل على نفسه ١٤٣

صفحة  
 الجائر : يستعمل الجور في ذاته ، وفي أصدقائه ١٢٨  
 الإمام العادل ١٢٩  
 الإمام العادل : يحكم بالسوية ، ويخلف  
 صاحب الشريعة ، ولا يعطى ذاته :  
 أكثر مما يعطى غيره ... ١٢٩  
 أسباب المضرات ١٢٩  
 أسباب المضرات : الشهوة ، والرداءة ،  
 والشهوة ، والجور ، والخطأ ... ١٢٩  
 تقسيم العدالة ١٣١  
 أول العدالة : ما يقوم به الناس لرب العالمين ،  
 وثانيها : ما يقوم به بعض الناس لبعض ،  
 وثالثها : ما يقوم به من حقوق  
 أسلافهم ... ١٣١  
 أنعم الله تعالى لا نمد ، ووجوب تأدية شكرها ١٣٣  
 ما يجب على الإنسان لحالته جل شأنه ١٣٣  
 هل هو صلوات وصيام غسب ؟ ... ١٣٤  
 أنواع عبادة الله عز وجل : ثلاثة أنواع ١٣٤  
 أولها : ما يجب على الأبدان : كالصيام  
 والصلاة ، والسعي إلى الواقف الشريفة ١٣٤  
 ثانيها : ما يجب على النفوس : كالتوحيد ،  
 والاعتقادات الصحيحة ... ١٣٤  
 ثالثها : المعاملات : من مشاركات ،  
 ومناكح ، ووجوب نصيح الغير ... ١٣٤  
 هذه العبادات : هي الطرق المؤدية إلى الله  
 عز وجل ... ١٣٤  
 مقامات الإنسان ، ومنازله عند الله تعالى ١٣٥  
 من هذه المقامات : مقام الموقنين : وهو  
 رتبة الحكماء وأجلة العلماء ... ١٣٥  
 ومقام المحسنين : وهم الذين يعملون بما يعلمون ١٣٥  
 ومقام الأبرار : وهي رتبة المصلحين : الذين  
 هم خائفاء الله تعالى : في إصلاح المبادي والبلاد ١٣٥

صفحة	
١٥٨	حبة الوالد لولده ، والولد لوالده ...
١٥٩	نسبة الملك إلى رعيته
١٦٠	الحبة التي لا تطرأ عليها الآفات
١٦٠	حبة العبد لخالفه تعالى ... ..
١٦٠	حبة الحكماء . حبة طالب الحكمة
١٦١	الحكيم ... ..
١٦٢	من غش الحبة والصدقة : أسوأ ممن
١٦٢	غش الدرهم والدينار ... ..
١٦٢	الشرير
١٦٣	من كانت ذاته رديئة : هرب من ذاته
١٦٣	الحزير الفاضل
١٦٣	الحزير الفاضل : يحب ذاته وأفعاله ...
١٦٤	الإحسان العرضي ... ..
١٦٤	المقرض ، وصانع المعروف ... ..
١٦٤	مصطنع المعروف ... ..
١٦٤	الصانع الجيد : يحب مصنوعه ... ..
١٦٤	الحبة المكتسبة بالإحسان ... ..
١٦٥	الأم : أكثر حبة لولد من الأب ...
١٦٦	الأصدقاء
	السعيد : من اكتسب الأصدقاء : يبذل
١٦٦	التحيرات لهم ... ..
١٦٧	من العشرة ، وكرم اللقاء ... ..
	قدر المودة وخطرها : أعظم من كنوز
١٦٧	قاروت ... ..
١٦٨	الصديق : شخص آخر هو أنت ...
١٦٨	كيف يختار الصديق
١٦٩	أخلاق الحيوان : ظاهرة للناس ...
	يجب أن ينظر الإنسان إلى من يصادقه :
	هل هو يحب للسل : يسمى لجمه ؟
١٧٠	أم هو عازف عنه ؟ ... ..

صفحة	
	فضيلة التأحد . أي أن يكون الناس
	كإلانات الواحد : في التعاب
١٤٤	والتواصل ... ..
١٤٧	المقالة الخامسة : التعاون والاتحاد
١٤٩	— الحبة : وأنواعها وأسبابها
	من الحبة : ما ينعقد سريعاً ، وينحل
	سريعاً . ومنها ما ينعقد سريعاً ،
	وينحل بطيئاً . ومنها ما ينعقد بطيئاً ،
	وينحل سريعاً ، ومنها ما ينعقد بطيئاً ،
١٤٩	وينحل بطيئاً ... ..
١٥١	الصدقة . وهي أخص من الحبة
	العشق . الصداقة بين الأحداث .
١٥١	الصداقة بين المشايخ ... ..
	الحبة : التي سببها المذاة : تصير عشقاً
١٥٢	تاماً خالصاً ... ..
١٥٢	الحبة الإلهية : لا تقبل النقصان ...
١٥٣	صيب الحبة : الألس ... ..
	الشريعة : تدعو إلى الألس ،
١٥٣	والحبة
	الشمزية : أوجب الاجتماع في المساجد
١٥٣	للصلاة : ليحصل لهم الألس الطبيعي
١٥٤	كذلك أوجب الحج : للألس أيضاً ...
١٥٤	— الخليفة : يحرس الدين
١٥٥	الدين والملوك : أخوان توأما ...
١٥٥	أجناس المحبات وأسبابها
١٥٥	الذات المشتركة : بين الرجل والمرأة
١٥٦	الحبة القوامية ... ..
١٥٧	حبة الأخيار
١٥٧	صدقة السلاطين ... ..



صفحة

المقالة السادسة : دواء النفوس ١٨٣

علاج الأمراض : التي تلحق النفس ١٨٥

شفاء هذه الأمراض وعلاجها ... ١٨٥

النفس : قوة إلهية ، غير جسمية ... ١٨٥

المرضى بالغضب ، والحزن ، والعشق ،

والشهوات المأثمة ، والخوف ... ١٨٥

طب الأبدان ، والحذر من معاشرته أهل

الشر والمجون وعدم حضور مجالسهم ١٨٦

هالة محبة الذات ، البدنية ، والراحت

الجسمية ... ١٨٦

اللذة : التي تطيقها الشريعة ١٨٧

الزاح المستعذب ، والأحاديث المتطاية ،

والفكاهة المحبوبة ... ١٨٧

أطباء النفوس : أشد تمظيها لها في حفظ

صحة النفس ... ١٨٧

إذا ألفت النفس الكسل ، وتبرمت من

الروية ، واختارت العطلة : رجعت إلى

صهبة اليأس ... ١٨٧

أكثر الناس حاجة : أشدهم فقراً . كما

أن أغنى الناس : أقلهم حاجة ... ١٨٩

الملوك ١٩٠

الملوك : أشد الناس فقراً : لكثرة

حاجتهم . وأشق الناس : هم الملوك ١٩٠

من يرى الملوك وعظمتهم وزيقتهم : يظن

أنهم مسرورون . مما يراه بهم ولهم ١٩٠

لو ملك الدنيا بمذاخيرها : لتمنى أن تكون

له دنيا أخرى ... ١٩١

حفظ الدنيا : صعب جداً : لما طبيعتها

من الإخلال والتلاشي ... ١٩١

القناعة ١٩٢

من طلب الدنيا : أوقعته في المهالك ... ١٩٢

صفحة

من كثرت أصدقاؤه : لم يف بمحقوقهم ١٧٠

يجب ألا يتبع الإنسان معائب أصدقائه

اليسيرة ... ١٧١

آداب الصداقة ١٧١

ما يجب على الصديق حيال صديقه ... ١٧١

وجوه الضرر : التي تلحق الصديق بمحبة

صديقه ... ١٧٣

لا تثبت مع المرء : محبة ولا ألفة ... ١٧٤

متاع الدنيا قليل ... ١٧٤

الحذر من التهمة ، وسماعها ... ١٧٥

الأشهرار : يدخلون بين الأخيار . في

صورة النصحاء ... ١٧٥

السباع القوية : إذا دخل بينها ثعلب على ضعفه ١٧٦

الفضائل الخلقية ... ١٧٦

الكسل ، ومحبة الراحة : من أعظم الرذائل ١٧٧

محبة الحكمة ... ١٧٧

رأى أرسطوطاليس في السعادة

الثامنة ١٧٨

الملائكة : لا تعد فضائلهم : لأنهم غير

محتاجين إليها ... ١٧٨

من أحبه الله تعالى : أحبه ، وقربه ، وأرضاه ١٧٩

الحكيم السعيد ، التام الحكمة : هو الله

تعالى ، فلا يحبه إلا السعيد الحكيم ١٧٩

الراحة البدنية : ليست من

أسباب السعادة ١٨٠

المائل الفاضل : يطلب بهمة أعلى المراتب ١٨٠

يجب على الإنسان : أن يحيا حياة إلهية ١٨٠

بعض الناس : أخيار بالطبع . وبعضهم

أخيار بالشرع والتعلم . فالخير بطبعه

يكون بمحبة الله تعالى له ، وعنايته

به أكبر ... ١٨١

صفحة

- ٢٠٦ ... .. المتفخر بنسبه
- ٢٠٧ المزاج ، والثنيه ، والاستمراء
- ٢٠٧ ... .. المزاج المعتدل : محمود
- ٢٠٧ ... .. الفرق بين العجب والثنيه
- ٢٠٨ - الندر ، والضيم
- ٢٠٨ ... .. وجوه الندر كثيرة
- ٢٠٨ الضيم : تكليف الناس احتمال الظلم والغضب
- ٢٠٩ المقتنيات ، والجواهر النفيسة
- ٢٠٩ المقتنيات : من خطايا الملوك والعلماء ...
- إذا لفت المقتنيات ، أو ضاعت : عظم
- ٢٠٩ عليها الأسف والحزن ...
- ٢١٠ الأحجار المتنافس عليها ...
- ٢١٠ كساد التجارة في الأجر النفيسة ...
- ٢١١ أسباب الغضب
- ٢١١ الأمراض التي تحدث من الغضب ...
- ٢١١ صاحب الخلق الرديء ...
- ٢١٢ غضب الملوك : في غير موضعه ...
- ٢١٢ غضب السفهاء ...
- ٢١٢ الشجاع : العزيز النفس ...
- ٢١٢ حكاية عن خلق الإسكندر ، ومزيده
- ٢١٣ عفوه وصفحه ...
- ٢١٣ الأصدقاء : يعرف بعضهم من بعض ...
- ٢١٤ الجبن والخور
- إهانة النفس ، وسوء العيش ، وطمع
- ٢١٤ الأنفال ...
- ٢١٤ علاج هذه الأسباب ...
- ٢١٤ الإنسان : لا يغلب من القوة النفسية ...
- ٢١٤ من سمى مواطن الخوف ووقف فيها

صفحة

- ١٩٣ ما ينبغي لحافظ الصحة على نفسه
- ١٩٤ حافظ الصحة على نفسه
- يجب على الإنسان : أن يضع لنفسه
- ١٩٥ عقوبات : يقابل بها الذنوب ...
- كثير من الحيوانات : أحسن حالا
- ١٩٥ من المذاب ...
- ١٩٥ من تعود في أول نشأته على الفضائل
- ١٩٦ العبيد : إذا ابتلوا بموالي سوء ...
- ١٩٦ معرفة المرء عيوب نفسه
- كل من أحب نفسه : خفيت عليه معايه
- ١٩٦ العدو من بعض المواطن : أفتنع من الصديق
- ١٩٧ خيار الناس يفتنون بأهدائهم ...
- المقالة السابعة : رد الصحة على
- ١٩٩ النفس
- الأمراض الغالبة على النفس
- ٢٠١ وعلاجها
- ٢٠١ مراكز الدائرة ، وقطعها ، وعيظها
- ٢٠٢ مثال الخسوس : كالبياض والسواد ...
- ٢٠٢ أطراف الفضيلة : لا تسمى أصدقاء
- ٢٠٢ أجناس الشرور والردائل : ثمانية
- ٢٠٣ - التهور ، والجبن
- ٢٠٣ سببها ومبدأها ...
- ٢٠٤ النفس إذا استشاطت غضباً ...
- ٢٠٤ شهوة الانتقام ...
- ٢٠٤ علاج هذه الأسباب ...
- ٢٠٥ العجب والافتخار
- يجب على من عرف نفسه : أن يعرف
- ٢٠٥ لقائهم ...
- ٢٠٥ مثال العجب والافتخار : في القرآت

صفحة

- ٢٢٣ ... ... التديبر الإلهي ؛ هو الصواب ...  
 الخائف من الموت ؛ هو الخائف من العدل  
 ٢٢٣ ... ... الإلهي وحكمته ...  
 جوهر النفس : هو ذات الإنسان ، وهو  
 ٢٢٣ ... ... باق ، لا فناء له ...  
 ٢٢٤ علاج الحزن  
 الحزن : ألم نفسي ...  
 من رضى بكل ما يجده ، ولم يحزن لشيء  
 ٢٢٥ ... ... فقهه : يكون دائماً سعيداً مسروراً  
 ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم  
 يحزنون ) ...  
 الحزن : شيء يجلبه الإنسان لنفسه ...  
 من فقد الأولاد والأحباء . فيحزن :  
 ٢٢٦ ... ... كانت حكماً ...  
 الحزن : مرض عارض ...  
 قبح الحسد ...  
 ٢٢٧ ... ... من أحب الشر لمن ليس بعدو له ...  
 ودائع الله تعالى عند خلقه ...  
 ٢٢٧ ... ... النفس ، والعدل ، والفضائل : هبة من  
 المولى تعالى لا تسترد ...  
 ٢٢٧ ... ... يذنبى للماقل : ألا يكفر في الأشياء  
 الضارة للمؤلة ...  
 ٢٢٧ ... ... خاتمة  
 ٢٢٩

صفحة

- ٢١٥ الخوف ، وأسبابه ، وعلاجه  
 الخوف في غير موضعه : من أمراض النفس  
 ٢١٥ ... ... أكثر الروح بأماله ...  
 يحسن العيش ، وتطبيب الحياة : بالظن الجليل  
 ٢١٥ ... ... علاج الخوف من الأمور الضرورية :  
 ٢١٦ ... ... كالهرم وتوابعه ...  
 ٢١٧ علاج الخوف من الموت  
 من جهل بقاء النفس ...  
 ٢١٧ ... ... من ظن أن الموت الماء عظيماً ...  
 ٢١٧ ... ... من جهل الموت ، ولم يدرك حقيقة ...  
 ٢١٨ ... ... النفس : جوهر غير جسماني ، وليس  
 عرضاً ...  
 ٢١٨ ... ... الجوهر الروحاني : لا يقبل الاستحالة  
 ٢١٩ ... ... الموت موتان : موت إرادي ، وموت  
 طبيعي ...  
 ٢١٩ ... ... الحياة حيأتان : حياة إرادية ، وحياة طبيعية  
 ٢٢٠ ... ... من خاف الموت : من أجل العقاب الذي  
 يلقاه ...  
 ٢٢١ ... ... من خاف الموت : لجهله ما بعده ...  
 ٢٢١ ... ... حال المستقيم في دينه ...  
 ٢٢٢ ... ... لو لم يمت أسلافنا : لم ينته الوجود لدينا  
 ٢٢٢ ... ... من يمتى الحياة الأبدية : فهو بالغ الجهل  
 ٢٢٣ ... ... والتباعدة ...

